

المسيحيون بين الوطن والمقدس

الدور والمصير

د.إكرام لمعي



الهيئة المصرية العامة للكتاب



تتعـرض الشـعوب في لحظـات تاريخيـة معينـة لـضرورة اتخاذ قـرارات صعبة؛ لتعبر عن هويتها، وإذا تسربـت هـذه اللحظـات مـن قبضتهـا يبـدأ الاضمحلال. مصر التـي قدمـت أول حضـارة إنسـانية احتضنت المسـيحية ثم الإسلام فعصرنت حضارتهـا ومصَّــرت أديانها، وهي تقـف اليوم في امتحـان كيفيـة الحفاظ عـلى الحضن الذي يضم كل من هو مـصري حتى لو لم يكن يدين بأحد الأديان السماوية.

هـذا الكتاب -عزيزي القارئ- يتعرض لهذه اللحظة التاريخية معلنًا لتكن مصر هي النموذج، وذلك بسرد تاريخ التفاعل المسـيحي الإسـلامي على مدى أكثر من ألف وخمسـمائة عـام بدءًا من الدولـة الأموية حتى ما أطلق عليه الربيـع العربي، ويتعرض للسـؤال: ماالـدور المنوط بالمصريين القيام به لأجل مسـتقبل مـصر في صراعهم بين الوطـن والمقـدس؟ مركـزًا عـلى الـدور الذي قام بـه المسـيحيون على طـول التاريخ والمصير الذي يجب أن يصنعوه مع إخوتهم المسلمين يدًا بيد وكتفًا بكتف.


ISBN# 9789779108100
6 221149 041561

المسيحيون بين الوطن والمقدس

الدور والمصير



المكتبة السياسية
سلسلة شهرية
تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د.هيثم الحاج علي

الإخراج الفنى والغلاف
محمود الجندى

تصحيح
سيد عبد المنعم

رئيس التحرير
عبد العظيم حماد

مديرة التحرير
جيهان أبو زيد

سكرتيرة التحرير
رشا الفقى

المستشار الثقافى
أسامة الرحيمى



ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
E-mail:info@gebo.gov.eg

المسيحيون بين الوطن والمقدس

الدور والمصير

د/ إكرام لمعي



٢٠١٦

لمعى، إكرام.
المسيحيون بين الوطن والمقدس: الدور والمصير/ إكرام لمعى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦.
٢٥٦ص؛٢٠ سم. ـ (سلسلة المكتبة السياسية)
تدمك ٠ ٠٨١٠ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ المسيحية ـ مصر.
٢ ـ الإسلام والمسيحية.
٣ ـ الأقباط ـ تاريخ.
٤ ـ النصارى ـ تاريخ.
٥ ـ المسيحية والسياسة.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٠١٠٠/ ٢٠١٦
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0810 - 0
ديوى ٢٧٠,٩٦٢

المحتويات

المكتبة السياسية

من حلم يناير نبدأ

منذ تفجرت ثورة الخامس والعشرين من يناير سنة ٢٠١١م واعدة باستجابة طال تأخرها من مصر مجتمعًا ونظام حكم لاستحقاقات العصر من ديمقراطية وتنمية وعدالة اجتماعية، توالت الجهود الفكرية والبحثية لتفسير ما جرى وترشيد ما يجرى وتوقع ما سيكون ولرصد مكامن الخطر على هذه الاستجابة، وكشف منابع الرجاء فى تحقيقها كاملة وإن طال المدى.

وبطبيعة الأشياء فقد استأثر ما يسمى «بالإسلام السياسى» بالنصيب الأكبر من هذه الجهود، بما أنه مثَّل -فى خضم العباب الثورى- البديل «الآني» للنظم المتكلسة، الفاسدة والتابعة التى قامت الثورات لإزالتها، والتى لم تكن فى حقيقتها إلا أعقابًا متحللة لنظم حكم بدت واعدة فى لحظة من تاريخنا، وهى نظم التحرر الوطنى المستندة إلى الجيوش الوطنية أوالمنبثقة عنها.

غير أن هذا البديل المسمى بالإسلامي نفسه سرعان ما سقط في تناقضاته الجوهرية مع استحقاقات العصر، ومطالب الشعوب؛ ليكتشف أغلب من أحسنوا الظن به - لبرهة - أنه لن يكون بحال من الأحوال قاطرة مجتمعاتنا إلى الغد الذى رسمت الثورة معالمه الأساسية، فانطلقت ضده حشود ٣٠ يونيوعام ٢٠١٣م، إلا أنَّ ذلك السقوط لم يكن بغير نيران ولا دماء، ولا تخبط ولا إحباط، ولم تكن كل نتائجه لحساب التقدم، بل تذرع بها بقايا السلالات البائدة ليكفروا الشعوب بمطالب المستقبل وينفروها من وعود الثورة.

لذا فالحاجة ملحّة لاستمرار التفكير والبحث وتراكم المعرفة والفهم، غير أننا نحتاج إلى جانب ذلك لجمع الروافد المبعثرة فى نهر رئيس دائم الجريان، وذلك من خلال إصدار شهري متخصص في نقد أفكار وحركات الإسلام السياسي فى المقام الأول، بوصفه العقبة الأهم أمام انضمامنا إلى حركة التاريخ، ضمن عقبات أخرى سنتصدى لها تباعًا.

من أجل ذلك تصدر سلسلة المكتبة السياسية ملتزمة قواعد المنهج العلمى فى البحث والتأصيل، ومستهدفة أوسع قطاع من الجمهور السياسى،متوخية البساطة فى العرض دون الإخلال برصانة المضمون، والإيجاز فى القول دون قصور فى استيفاء الفكرة.

إن إصــدارًا كهذا لم يكن يجدر به إلا أن ينتســب إلـى الهيئة المصرية العامــة للكتــاب، بميزانيتهــا المدفوعــة مــن المواطنيــن، وتحررهــا مــن

كافة حسابات النشر الخاص؛ لتفتح أبوابها لجميع الأقلام المؤمنة بالديمقراطية والمبشرة بها.

وبعد فهذا ما نعتقد أنه جزء من مساهمتنا فى تحقيق وعود الثورة، والاستجابة لاستحقاقات المستقبل.

هيئة التحرير

إهداء

إلى حفيدَيْ كريم وميريام حتى تتعلما وتدركا مع جيلكم أن آباءكم وأجدادكم الفراعنة وصلوا إلى قمة الحضارة الإنسانية منذ أكثر من ألفي عام، وأن آباءكم وأجدادكم العرب وصلوا ثانية إلى ذات القمة مع اختلاف العصر منذ ما يقرب من ألف عام، ولذلك فالتقدم والحضارة حالة في جيناتكم، فلا تنظروا حولكم في غضب ويأس، بل في غضب وعمل وأمل، فجيلكم قادر أن يعيد مصر إلى قمة العالم. هذا هو الأمل الذي نعيش عليه ونموت لأجله.

مقدمة

في عام ١٢١٩م جاء إلى مصر القديس فرنسيس الأسيسي مؤسس رهبنة الإخوة الأصاغر(الفرنسيسكان) والتي ينتمي إليها بابا الفاتيكان الحالي فرنسيس الثاني، وقد استطاع الأسيسي أثناء معركة حصار دمياط بواسطة القوات الصليبية أن يعبر إلى معسكر السلطان الكامل الأيوبي خارج مدينة فارسكور.وقد قابله السلطان في سماحة واهتمام وأمر بعودته سالما إلى المعسكر الصليبي وبعد هذه المقابلة، أذن السلطان الكامل للرهبان الفرنسيسكان بالإقامة في مصر وممارسة دعوتهم بها، كما سمح لهم بزيارة الأراضي المقدسة ولقد تكررت زيارات فرانسيس الأسيسي للملك الصالح أيوب وكانت تدور بينهم حوارات حول المشترك بين الإسلام والمسيحيّة والأمور المختلف عليها، هذا الموقف إن كان يعبر عن شيء

فإنما يعبر عن لقاء الإنسان بالإنسان بغض النظر عن العرق أوالدين فهما مختلفان فيهما،وهما بحكم الموقف عدوان، فرانسيس الأسيسي جاء مع حملة غربية عدائية أطلق عليها العرب حرب الفرنجة بينما أطلق عليها أمراء الغرب الحملة الصليبية، وكان هذا الاسم أكبر تشويه للصليب الذي يؤمن به المسيحيون بأنه رمز السلام بين الله والإنسان وبين الإنسان وأخيه الإنسان.

إن ما فعله الصليبيون أنهم استخدموا الدين لتحقيق مصالح وثروات وغزوات وقتل، وما فعله فرانسيس الأسيسي والصالح أيوب أنهما في قلب الحرب والعداء والقتل والدماء التقيا كرجلي سلام يريدان أن يحققا المقاصد العليا للدينين ومن أهمها السلام بين البشر.

عزيزي القارئ

هذا الكتاب ـ الذي بين يديك ـ يتحدث عن دور المسيحيين على مدى أكثرمن ١٥٠٠عام في بناء الحضارة العربية الإسلاميّة يدًا بيد مع المسلمين العرب الذين تمصروا والمصريين الذين أسلموا مبتدئًا بتاريخ المسيحيّة قبل دخول الإسلام وكيف حدث الانقسام الخطير على طبيعة المسيح بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية وكان الاضطهاد والقتل بينهما، وأيضًا كيف تحول المسيحيون بعد أن صارت المسيحيّة الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية إلى قتلة للوثنيين واليهود وتهجيرهم وتدمير معابدهم بل وقتل الفلاسفة وأساتذة مدرسة الإسكندرية وعندما جاء الإسلام إلى المنطقة كان المنقذ للكنيسة الشرقية من الاضطهاد الغربي وأعاد البابا بنيامين إلى كرسيه بالإسكندرية، وكيف حدث التغير في الهوية

المصرية المدنية والحضارية بدخول العرب بهويتهم الصحراوية البدوية وعاداتهم وتقاليدهم ولقد تمصر العرب المسلمين وتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام وتزاوج العرب والمصريين وهكذا حدث تحول ملحوظ في تكوين الهوية المصرية؛ حيث دخل عنصر جديد في النسيج الاجتماعي المصري وتم تكوين نسيج ثقافي عربي إسلامي في صيغة مصرية متفردة ونتج عن ذلك إسلام حضاري مدني ومسيحيَّة عربيَّة لغةً وثقافةً ولاهوتًا.

ويحكي الكتاب عن ذلك التفاعل الذي استمرلأربعة قرون كان المسيحيون فيها أغلبية سكانية حتى نهاية الدولة الأموية وفي الدولة العباسية كان للمسيحيين الدور الأعظم في ترجمة العلوم والفلسفة العالمية اليونانية والسريانية إلى العربية، وكان الخليفة المأمون يقدم للمترجم وزن كتابة ذهبًا تقديرًا لعلمه ولما ترجمه. وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدي تقدير الخلفاء المسلمين في ذلك الوقت للعلوم وأهميتها في صنع مستقبل البلاد.في قصور الخلفاء كانت تدور حوارات إسلامية مسيحية، وفي شوارع بغداد كان رجل الشارع يفتح التوراة والإنجيل والقرآن مع كتب الفلسفة اليونانية، لقد عرف المسلمون العباسيون كيف يستخدمون الثروات التي تدفقت عليهم من كل البلدان المحيطة في بناء حضارة عربية إسلامية عالمية ولم تتح لهم هذه الفرصة ثانية إلا بعد أكثرمن ستة قرون عندما فتحت الأرض من تحتهم فاها مطلقة من جوفها ذهبًا أسود لكنهم لم يفكروا إطلاقًا في صنع حضارة حديثة عالمية خاصة بهم على خُطى أجدادهم فهل ذلك لأنهم لم يتعبوا ويناضلوا ويبذلوا دماءهم في سبيل رساله وحضارة صنعتهم فأرادوا أن تتسيد العالم كما فعل آباؤهم أم لأنهم تفرغوا للنزاعات بينهم وزرع جماعات متطرفة في أرجاء الوطن العربي أم للشعور بالنقص من نحوالحضارة الغربية واستسهلوا شراءها

جاهزة الصنع والتركيب وجلسوا يتفرجون عليها ويفتخرون باقتنائها وهم مستريحون يأكلون ويشربون ويستمتعون بها بدلاً من بذل الجهد، ثم أفاقوا على الهواء الذي يمسكونه بأيديهم وبلادهم ممزقة وشعوبهم تهجرهم ناقمة عليهم، انقسامات داخليّة وحروب وديون ودماء وعالم من حولهم كان متخلفًا عنهم حل جميع مشكلاته وبالتنمية نافس عالميًا، عندما تلقي نظرة - عزيزي القارئ- على خريطة العالم لاتجد حروبًا ولا انقسامات ولا شعوبًا تلقي بنفسها في التهلكة سواء في البحر أوفي البر أوتفجر ذاتها بفخر إلا عندنا.

ولتذكرة أولادنا نقول لهم لاتغضبوا ولا تيأسوا مما يدور حولكم في يوم من الأيام لقد جلس أجدادكم الفراعنة على قمة حضارة العالم وبعد ألفي عام استعاد آباؤكم العرب قمة حضارة العالم في الوقت الذي انهارت فيه الحضارة الأوروبية ودخلت في القرون المظلمة، وبسبب تهريب كتب الفلاسفة العرب بدءًا من ابن رشد، وابن سينا، والبيرونى، وغيرهم إلى أوروبا وترجمتها قام الإصلاح الأوروبي الديني والمدني والعلمي، بينما دخل العالم الإسلامي على يد الخلافة العثمانية إلى عصور الظلام، ثم جاء محمد على وأسس مصر الحديثة وقد أسهم المسيحيون المصريون والشوام في بناء مصر الحديثةفي كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وهناك أسماء لامعة من الشام مثل : الأخوان تكلا، وجورجي زيدان، ومي زيادة، وروز اليوسف، ومن مصر بطرس غالى الذي كان رئيسًا للوزراء وويصا واصف وكان رئيسًا للبرلمان وفي ثورة ١٩١٩م كان الدور لكثير من المسيحيين ومن أبرزهم مكرم عبيد، وفخري عبد النور وبعد الثورة كان المشروع القومي لعبد الناصر الذي ضم الجميع وبرز في ذلك العصر سلامة موسى ولويس عوض وإستر ويصا وغيرهم.

في ثورة ٢٥ يناير وفي ٣٠يونيو ظهر الدور المسيحي بارزًا وبقوة. وهكذا على طول التاريخ المصري كان التفاعل المسيحي الإسلامي قادرًا على هزيمة أي محاولة للفتنة بين أبناء مصر، والسر هوأن المسيحيين والمسلمين مصريون حتى النخاع، لقد استأنس المصريون المستحيل فاستطاعوا أن يمتطوا الممكن.لذلك أنتم -جميعًا - مسلمون ومسيحيون كمصريين عرب تستطيعون أن تستعيدوا لنا قمة الحضارة العالمية ذلك إن أردتم.

وأنهي مقدمتى هذه بمقولة فرانسيس الأسيسي معبرًا فيها عن خبرته في مصر مع الملك الصالح أيوب واصفًا العلاقة مع الآخر المختلف في كل حالاتها وهوما يحكيه هذا الكتاب عن سر الشد والجذب في زمن ما، وسر اللقاء والحب في زمن آخر يقول :

" أنا لا شىء إن جهلتنى وشيء إن عرفتنى وكل شيء لوأحببتنى "

الفصل الأول

المسيحيون قبل الإسلام

الفصل الأول
المسيحيون قبل الإسلام

قبل أن نتحدث عن دور المسيحيين العرب في بناء الحضارة العربية الإسلامية، علينا أن نسأل أنفسنا هل كان في الأصل مسيحيون عرب قبل الإسلام وإذا كانوا وهوالمرجح ماذا كان تأثيرهم في بيئتهم العربية؟! وما مدى تفاعلهم مع الحضارات التي عاشوا في ظلها؟

يبدأ الكتاب المقدس(العهد الجديد) بميلاد السيد المسيح ويسرد تاريخيًّا قصة السيد المسيح وتلاميذه في الأناجيل الأربعة متى ومرقص ولوقا ويوحنا، ثم بدايات الكنيسة في سفر أعمال الرسل؛ حيث يتحدث كاتبه عن تجمع شعبي في أورشليم للذين آمنوا بالسيد المسيح ويذكر الكاتب أن هذا التجمع يحتوي على جنسيات متعددة ممثلة يقول: "فَرْتِيُّونَ وَمَادِيُّونَ وَعِيلاَمِيُّونَ وَالسَّاكِنُونَ مَا

بَيْنَ النَّهْرَيْنِ وَالْيَهُودِيَّةَ وَكَبَّدُوكِيَّةَ وَبُنْتُسَ وَأَسِيَّا. وَفَرِيجِيَّةَ وَبَمْفِيلِيَّةَ وَمِصْرَ وَنَوَاحِيَ لِيبِيَّةَ الَّتِي نَحْوَ الْقَيْرَوَانِ وَالرُّومَانِيُّونَ الْمُسْتَوْطِنُونَ يَهُودٌ وَدُخَلاَءُ. كِرِيتِيُّونَ وَعَرَبٌ نَسْمَعُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا بِعَظَائِمِ اللهِ؟». (سفر أعمال الرسل الإصحاح الثانى الأعداد ٩ - ١١)، هنا نلاحظ بين الحضور عرب اعتنقوا المسيحية وفي رسالة بولس الرسول الذى لم يعاصر السيد المسيح لكنه اعتنق المسيحية يحكى في رسالته إلى كنيسة مدينة غلاطية عما حدث معه فور اعتناقه المسيحية قائلاً : "لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْماً وَدَماً. وَلاَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ إِلَى الرُّسُلِ الَّذِينَ قَبْلِي، بَلِ انْطَلَقْتُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ رَجَعْتُ أَيْضاًإِلَى دِمَشْقَ." (الرسالة إلى غلاطية ١ : ١٦ - ١٧)، وغالبًا المقصود بالعربية هنا أنه ذهب إلى مؤمنين بالمسيح عاشوا في المناطق الشرقية النائية في دمشق في سوريا، لأنه من الصعب تصور أن المسيحية وصلت الجزيرة العربية مبكرًا جدًا بهذه الصورة[1]، والمرجح أن المسيحية دخلت إلى الجزيرة العربية بعد القرن الثالث الميلادي، فالمؤرخ الكنسى المشهور يوسابيوس القيصرى وكان أسقف قيصرية يذكر أنه كان هناك مطران من - بصرى - في الشمال الجنوبى للطريق التجارى الشرقي في الأردن، وهناك إشارة لعقد برلمان كنسى بجوار مدينة البتراء في نفس الفترة الزمنية، وذكر يوسابيوس أيضًا أن الإمبراطور فيليب العربى الذى حكم(٢٤٤م - ٢٥٩م) كان مسيحيًّا، لكن كثير من العلماء يرفضون فكرة اعتناق الإمبراطور للمسيحية ويعتبرونها شائعة تطلقها - دائمًا - الأقليات كنوع من الإسقاط للإحساس بالذات كما حدث بعد ذلك تحت الحكم الإسلامي، حيث أشاع المسيحيون أن الخليفة العباسى المأمون الذى حكم

(٨١٣ م - ٨٣٣ م) وكان من المعتزلة قد اعتنق المسيحية وكذلك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الذي حكم مصر(٩٦٩ م - ٩٧٥ م) عقب رؤيته لجبل المقطم يتحرك وينتقل إلى مكانه الحالي، وهذه القصة - انتقال جبل المقطم- لم تثبت تاريخيًا من الأصل، وكما حدث في عصرنا الحديث بإطلاق هذه الشائعة على د. طه حسين أوجيهان السادات أوسوزان مبارك... إلخ أما في القرن الرابع فقد ثبت أن مجموعة من أسماء أساقفة عرب مسيحيين حضروا مجامع كنسية كبرى(يطلق تعبيرالمجامع على تجمع قيادات الكنيسة في وقت ما لمناقشة قضية لاهوتية -فقهية- تثيرجدلاً عقائديًا ويتكون المجمع من مجموع أساقفة المنطقة) فمثلاً في قائمة مجمع نيقية[٢] ٣٢٥ م كانت هناك أسماء أساقفة قدموا من الجزيرة العربية من بينهم بامفيليوس أسقف قبيلة -طيء-، وبعد أقل من خمسين عاماً، كان ثيوتونيوس العربى بين الحضور في مجمع أنطاكية والذى انعقد عام ٣٦٣ م، وعندما اندلعت ثورة عرب سوريا ضد الإمبراطورية الرومانية ظهر اسم الأسقف موسى الذى قام بدور واضح في مصالحة شعبه مع الإمبراطور وإن كانت هذه الإشارات عن الأساقفة[٣]في القرنين الثالث والرابع غامضة وضعيفة لكنها تشير إلى وجود الإيمان المسيحى العربى، وأن المسيحية العربية كان لها نظام كنسى محكم، وبالطبع كانت هناك قبائل عربية اشتهرت بأنها مسيحية مثل : الغساسنة، والمناذرة ولخم وكانوا في مقاطعة بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية شمال شبه الجزيرة العربية، وفي القرن الخامس انقسمت الكنيسة المسيحية بسبب قضية طبيعة المسيح، هل هي طبيعة واحدة أم طبيعتان؟ واجتمع مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م وفشل

في حل المشكلة، والمشكلة تتلخص في أن البعض اعتقد أن السيد المسيح مع الله طبيعة واحدة وإرادة (مشيئة) واحدة بينما اعتقد البعض الآخر أنهما طبيعتان ومشيئتان (طبيعة إلهية ومشيئة إلهية من جانب، وطبيعة إنسانية ومشيئة إنسانية من الجانب الآخر) والاثنان منفصلان تمامًا غير ممتزجين وأصحاب فكر الطبيعة الواحدة الإنسانية الإلهية لهم قول شهير (اللاهوت "الله" لم يفارق الناسوت"يسوع المسيح" لحظة أوطرفة عين)، أما أصحاب فكر الطبيعتين فيعتبرون أن الإنسان يسوع المسيح هوالذى كان يأكل ويشرب وينام ويتألم ويموت... إلخ أما اللاهوت فلا يشارك في هذا الأمروهذه العقيدة يؤمن بها الكاثوليك وكذلك الكنائس المصلحة (الإنجيلية) في كل العالم وإن كانت هذه القضية فلسفية من المستحيل إثباتها ماديًا إلا أنها كانت ضربة قاصمة في ذلك الوقت للمسيحية، حيث اضطهد الإمبراطور قسطنطين الذي انحاز لعقيدة الطبيعتين البطريرك المصرى الذي يؤمن بعقيدة الطبيعة الواحدة للسيد المسيح إلهية إنسانية.

كانت شبه الجزيرة العربية[٤] تشتهر بوجود أسقفيات مسيحية على طول السواحل الشرقية والجنوبية، وهناك إشارات لأسماء أساقفة من الكنيسة الشرقية على طول الخليج العربى حتى أواخر القرن الثالث عشروعلى ساحل اليمن وحضرموت حتى القرن التاسع عشر، وكانت مدينة نجران في شمال اليمن تعتقد في معظمها بنظرية الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وفي عام ٥٢٠ م استشهد عدد كبير منهم على يد ذي نواس الملك اليهودى(سورة البروج ٤ - ٨) مما أدى إلى محاولة الأحباش (من

أتباع لاهوت الطبيعة الواحدة) أن يجتاحوا المنطقة بتحفيز من الإمبراطورية البيزنطية.

يحكي التقليد الإسلامي أنه كان هناك حاكم مسيحى وسلطة تعتنق مذهب الطبيعة الواحدة يدعى أبرهة الحبشى الذى وصل للملك عام ٥٣٠ م وشن حملة عسكرية على مكة وفشلت(سورة الفيل).

من هنا يمكن القول إن المسيحية كانت موجودة ومنتشرة بين القبائل الرئيسة على طول سواحل طرق التجارة وكان رجال الدين المسيحى معروفين إلا أنه لم يكن هناك مؤسسة مسيحية واضحة المعالم مثل التى كانت في العالم البيزنطى وفي مصر حتى القرن الثالث الميلادى.ونحن لا نستطيع الجزم بهذا الأمر.

في نهاية القرن الخامس استقلت الكنيسة الشرقية عن القسطنطينية وأنشأت البطريركية الخاصة بها وقامت بدعوة إرسالية وصلت حتى بلاد آسيا ونحوالجنوب وصلت حتى الجزيرة العربية، وهذا يوضح أن الكنيسة الشرقية كانت لها هويتها الخاصة بها مما أعطاها استقلالية واضحة بملامح محددة.

وهناك تقليد إسلامى مؤكد عن وجود صورة أوتمثال للسيدة العذراء وهي تحمل الطفل يسوع(عيسى) في داخل الكعبة إلى جوار مجموعة من الأصنام لآلهة أخرى كان العرب يعبدونها حينذاك وعندما دخل العرب المسلمون في تحريرهم للكعبة حطموا الأصنام إلا أن رسول الإسلام رفض أن تمس صورة السيدة العذراء ووضع يده عليها قائلًا:"إلا هذه".

من كل هذا يمكننا القول إن المسيحية كانت موجودة في مناطق كثيرة من العالم العربى حتى القرن السابع الميلادى لكن طبيعتها كانت ضعيفة فقد كانت المسيحية تصارع من أجل البقاء.

إذا كان هذا هو حال المسيحية والمسيحيين في العالم العربى قبل الإسلام، فماذا كان حال مصر في الستة قرون الأولى قبل الإسلام ؟

بعد أن وصلت حضارة الفراعنة إلى قمتها ونهايتها في الوقت ذاته بعد غزو الأجانب وحكمهم لها ثم غزو الإسكندر المقدونى، والذي حكمها بعد وفاته البطالمة والذي كان آخرهم الملكة كليوباترا التي ماتت منتحرة عام ٣٤ق.م من بعد هزيمتها في معركة أكتيوم مع حليفها ماركوس أنطونيو، من هنا بدأ حكم الرومان لمصر؛ حيث أعلن أوكتافيوس أوغسطس أنها ولاية رومانية تابعة له شخصيًا وبعد ضعف وسقوط الإمبراطورية الرومانية تحت سلطة القبائل الجرمانية صارت مصر جزءًا من الإمبراطورية الشرقية التي سميت بعد ذلك بالإمبراطورية البيزنطية.

طوال التاريخ المصرى غيرت مصر ديانتها مرتين الأولى من الديانات المصرية القديمة إلى المسيحية، والثانية من المسيحية إلى الإسلام[٥].

بعد تحطيم الرومان لأورشليم عام ٦٠ م على يد تيطس الرومانى سار المسيحيون بمحاذاة البحر الأحمر حتى وصلوا إلى الإسكندرية[٦] وبدءوا الدعوة لديانتهم فيها ويتحدث التقليد عن مرقس الرسول الذى استشهد عام ٦٣ م ولقد كان امتداد المسيحية في بداياتها محدودًا بسبب عدم اعتراف السلطات الرومانية بهذه الديانة الجديدة ومطاردة المؤمنين بها والذى بلغ

قمته في عهد الإمبراطور دقلديانوس(٢٨٤م -٣٠٥م)حتى أن المسيحيين اعتبروا العام ٢٨٤ بداية التقويم القبطى المسمى بتقويم الشهداء.

واستمر الاضطهاد حتى وصول قسطنطين إلى الحكم الذى ادعى أنه رأى حلمًا فيه صليب وسمع صوتًا يقول له - بهذه العلامة سوف تنتصر - فأعلن بعد استيقاظه أن المسيحية ديانة تعترف بها الإمبراطورية وذلك في خطاب أرسله من ميلانوبإيطاليا إلى واليه في الشرق يطلب منه وقف اضطهاد المسيحيين ورد ممتلكاتهم وإعطائهم حق ممارسة العبادة وبناء الكنائس، هذه الخطوة كانت وبالاً-في رأيي - على المسيحية والمسيحيين؛ لأن الدين اختلط بالسياسة وتحكم الإمبراطور في الكنيسة رغم عدم فهمه لعقائدها، ودخل المسيحية الآلاف دون إدراك للعقيدة تقربًا للدولة والإمبراطور بينما قبل ذلك كان الذى يدخل المسيحية يدخلها عن اقتناع كامل، ويكون مستعدًا لأن يضطهد ويموت في سبيلها، وهكذا كانت المسيحية تتقدم ببطء لكن بثقة، ومن أهم مساوئ ما حدث في تلك الحقبة تدخل الإمبراطور في المجامع الكنسية التي تحسم العقائد الدينية (اللاهوتية) وهوليس له تعمق فيها أوحتى دراية بها.

والحقيقة أنه وقعت تغيرات جذرية منذ أن صارت الكنيسة كنيسة الإمبراطورية، فبادئ ذي بدء كان الآباء المسيحيون الأوائل بداية من القرن الأول الميلادى وحتى ظهور الإسلام يتمحورخطهم العقيدى حول الفكرة القائلة إن الإنسان ينتمى إلى الإنسانية في الإنسان الأول آدم وإلى الإنسانية الروحية في الإنسان الجديد يسوع المسيح.

من هنا ومن جهة عقائدية بحتة لم يميز هؤلاء الآباء في تلك الفترة بين المسيحية والأدب والفلسفة والثقافة غيرالمسيحية، لذلك قام المفكرون المسيحيون بالتعمق في دراسة الفلسفة اليونانية والعلوم والفنون التي أنتجتها الحضارات السابقة وأسهموا من خلالها في شرح اللاهوت المسيحي فمثلاً يوحنا الرسول استخدم مصطلح "الكلمة"، والتي تعني في اللغة اليونانية "العقل المطلق المتحكم والضابط للعالم وظواهره المتعددة بحيث لاتتضارب ولا تتعارض مع بعضها البعض" للتعبير عن شخص المسيح دون تردد وهذا يتفق مع الفكر المسيحى الأصيل وذلك؛ لأنهم كانوا يتعاملون مع مسيحية إنسانية وليست سلطوية سيادية إمبراطورية.

في القرن الثانى بدأ يظهر التركيز على مركزية الإدارة الكنسية؛ لأنه لم يكن هناك نظام إدارى مركزى في الكنيسة حتى نهاية القرن الأول، بل كانت الكنائس شبه مستقلة، وقد مضت قرابة المائة عام أونحوذلك وحتى عصر البطريرك ديمتريوس(٧) عام ١٨٩م ولا نكاد نعرف عن أولئك الذين شغلوا عرش القديس مرقس سوى أسمائهم.إلا أن الطابع المؤسسى والمركزية الإدارية تفشت بصورة قوية(٨) لأسباب عدة أهمها:

أولًا: محاولة الكنيسة الوصول إلى صياغة لاهوتية تواجه بها ما عرف بالبدع والهرطقات

عندما تتجه الكنيسة في الشرق إلى هذا الاتجاه- خاصة وأن علاقتها بالله علاقة قوية صوفية سرية من خلال الإنسان يسوع المسيح - فهى لا شك تضع صياغة لاهوتية في إطار عقلانى مغلق، وهذا الإطار له جانب إيجابى

من أجل وضوح الإيمان، لكن جانبه السلبي هوالاختلاف على الكلمات والمصطلحات؛ حيث تصبح المسيحية بقوتها الروحية الداخلية عقيدة يكمن الجدل حولها من خلال النصوص، ولقد بدأ انتكاس اللاهوت المسيحي بالجدل حول البدع والهرطقات، في الوقت الذي فيه اتسع تفسير وتطبيق الإكليروس للكلمات فصار التفسير بين أيديهم والسلطان أقوى من ذي قبل، وأصبحت لديهم السلطة في استبعاد من يريدون استبعاده وقبول من يريدون قبوله.

ثانيًا : قيام حركة مراجعة ما كتبه الآباء

المثال الصارخ على بشاعة حركة المراجعة التى تمت في ذلك الوقت هوالحكم على العلامة أوريجانوس السكندري بالحرم وهوما يساوي الكفر أوالخروج على الدين في الإسلام وكانت هذه بداية تحريم كتابات الآباء الذين كتبوا في القرون الثلاثة الأولى وقد كانت حركة المراجعة هذه تهدف إلى خلق فكر لاهوتى رسمي حول كل الموضوعات المختلف عليها.

ولقد حكم على أوريجانوس بعد ٣٠٠ سنة من وفاته وتم حرق كل كتاباته، وكانت مشكلة أوريجانوس عندهم هي قوله: (يجب وضع حد أدنى للاتفاق وترك الباب مفتوحًا للاجتهاد) ولا شك أن حركة المراجعة هذه أغلقت باب الاجتهاد وإلى الأبد في الكنيسة لقد أصبح الاجتهاد كفرًا.

ثالثًا: وأخيرًا فصل الأخلاق المسيحية عن الأساس الخاص بها في العبادة

وقد أضعف هذا المسيحية بلاشك.

بجانب كل ما سبق جاء تأثير الحركة النسكية وقد صارت مؤسسة قائمة بذاتها تحكم الكنيسة من خلال محاضرات عن المسيحية.

الاشتراط على أن يكون الأساقفة ورئيس الأساقفة من غير المتزوجين ويأتون بهم من الدير[٩]، مما جعل لهذه الحركة قوتها، ولا شك أن الحركة النسكية بكل ما تعطيه من تأثيرات نفسية وعمليات تطهير وبعد عن العالم والمجتمع كان لها التأثير في الفصل بين العلمانى(عضوالكنيسة المدني) والإكليروس(طبقة الكهنة) وتقديس الإكليروس، مما فصل الأغلبية العظمى من المسيحيين عن العمود الفقرى للكنيسة، وتركزت كل الأدوار في يد الإكليروس الذين تسلموا التقليد من الرسل الأوائل الذين تسلموها رأسًا من مرقس الرسول، ومما جدير بالذكر هنا أن الأربعة بطاركة الأوائل للكنيسة المرقسية الذين أتوا بعد مرقس مباشرة كانوا من العلمانيين وليسوا من الكهنة الإكليروس وهم إنيانوس (٦٨م - ٨٣م)، وميليوس(٨٣م - ٩٥م)، وكروفوس(٩٥م - ١٠٦م)، وابريموس (١٠٦م - ١٥٢م)، ثم البطريرك التاسع كالاوتيانوس الأول (١٥٢م - ١٦٦م)، ثم البطريرك الثانى عشر ديمتريوس الأول (١٨٨م - ٢٣٠م)، ثم في عصر النهضة الفكرية الكنسية جاء ثاونيانوس(٩٥٢م-٩٥٦م)ومن العلمانيين غبريال الثانى (١١١٣م-١١٤٥م)، ومرقص الثالث (١١٦٦م - ١١٨٩م)، ثم يؤانس السادس(١١٨٩م-١٢١٦م)، ومن عام ١٢١٦م إلى اليوم لم يجلس على الكرسى المرقسى أي علمانى.

في القرن الرابع الميلادي وبعد أن صارت المسيحية دين الدولة كما ذكرنا من قبل[10] تحول الانتماء المسيحى للإنسانية إلى الانتماء إلى المسيحية الرومانية ومن هنا وفي القرن الخامس ظهر فصل بين المعرفة اللاهوتية (الفقهية) والمعرفة العلمانية الإنسانية بكل فروعها، لذلك ونتيجة علاقة الكنيسة بالسلطة السياسية تم تحريم الكتب الوثنية وكذلك تحريم مخالطة اليهود والوثنيين بعد أن كان الزواج المختلط بين المسيحيين من جانب والوثنيين واليهود من الجانب الآخر مباحًا. لقد صدرت قرابة سنة ٤٠٠م تعليمات الإمبراطور بمنع الزواج من الهراطقة(الوثنيين واليهود) وبعدها صدر قرار بإزالة المعابد غير المسيحية وبدأ منذ ذلك الحين الفصل بين ما هومسيحى أدبًا وثقافةً وبين ما هوغير مسيحى.

لقد أنهت المؤسسة الدينية المسيحية(الكنيسة الرسمية) على الثقافة الوثنية المصرية والثقافة التي واكبتها متمثلة في تراث مدرسة الإسكندرية من العصر الهيلينستي، ففي الإسكندرية معقل الحضارة الهيلينستية قام المتعصبون من المسيحين المصريين بنهب السرابيوم الشهير بأمر البطريرك ثيوفيلوس(٣٨٥م- ٤١٣م) وبتحريض منه تم تحويل السرابيوم الذى كان معبدًا ومركزًا علميًا ومكتبة إلى كنيسة مكرسة ليوحنا المعمدان وتكررالأمر في أماكن أخرى من البلاد حسبما ذكر المؤرخ المسيحى القبطى يوحنا أسقف نفيوس[11]، وقد هرب آخر المثقفين والعلماء في مكتبة الإسكندرية خوفًا على حياتهم بعد ما شاهدوا ما جرى على "هيباتيا"

الفيلسوفة التى مزقها المسيحيون المتعصبون بعد عظة تحريضية من البابا في شوارع الإسكندرية، ثم أحرقوا أشلاءها أمام السرابيوم.

وهكذا صارت المسيحية الديانة الرسمية الوحيدة في مصر خلال القرنين الرابع والخامس واعتنقها غالبية السكان، إلا أن الأمور لم تستقر بسبب مشكلة "طبيعة المسيح". والتي تحدثنا عنها آنفًا عندما أدان مجمع خلقيدونية ٤٥١م عقيدة الكنيسة المصرية (الطبيعة الواحدة للمسيح) وكان عام ٤٥١م عام وباء اجتاح مصر وقتل مليونين منهم وصارت مصر قرابة ثلاثة ملايين وزاد الأمر سوءًا غزوالفرس لمصر في القرن السابع ٦١٧م ودخل معهم الخراب والتدمير، لكن الفرس لم يحاولوا فرض ديانتهم الزرادشتية على المصريين، ولم يستمرالاحتلال الفارسى إلا ١١ سنة وانتهى بناء على اتفاق صلح بينهم وبين البيزنطيين سنة ٦٢٩ م وهنا فقد المصريون الثقة في البيزنطيين وحمايتهم وكانوا مؤهلين لقبول الفتح الإسلامي بعد ذلك [١٢].

وإذا حاولنا رسم خطًا بيانيًا للإبداع الفكرى الإنسانى المسيحى الشرقى نراه يرتفع إلى قمته في القرن الخامس، ثم يهبط قليلاً ويصل إلى درجة الصفر في القرن السادس؛ حيث دخل الإسلام إلى مصر ولم يجد فكرًا لاهوتيًا مسيحيًا في استقباله واستمرت ضحالة الفكر المسيحى فى القرن السابع، ثم ابتدأ في الارتفاع حتى وصل إلى قمته في دولة الخلافة العباسية في القرن التاسع، ثم تهاوى مع الخلافة العثمانية في القرن السادس عشر.

في عام ١٨٠٥م حدث تطور مع مصر الحديثة التى أسسها محمد علي وحركة القومية العربية وكان للمسيحيين دور بارز في حركة النهضة والقومية.

وهوما سنتعرض له بوضوح في الفصول القادمة.

الفصل الثانى

دخول الإسلام إلى منطقة الشرق الأوسط والدولة الأموية

الفصل الثاني
دخول الإسلام إلى منطقة الشرق الأوسط والدولة الأموية

انتهينا في الفصل الأول إلى معاهدة الصلح(٦٢٩م) بين البيزنطيين والفارسيين الذين حكموا مصر لمدة ١١ سنة وبانسحاب الفرس من المشهد عاد البيزنطيون إلى حكم مصر، وبإخفاق البيزنطيين في مواجهة الفرس بدأ المصريون يتساءلون عن مدى قدرة الدولة البيزنطية التي تحكمهم على حمايتهم، حيث وضح عجزهم تمامًا أمام الفرس، هذا فضلًا عن كونهم يختلفون معها في عقيدة طبيعة المسيح وقد أثر ذلك تمامًا في موقف المصريين من الفتح الإسلامي(٦٤١م) بعد ١٢ سنة من انسحاب الفرس وعودة البيزنطيين، فقد كان دخول العرب المسلمين إلى مصر حربًا على البيزنطيين الحاكمين للبلاد أكثر منه حربًا على المصريين أهل هذه البلاد المحتلين المغلوبين على أمرهم.

وبدخول العرب المسلمين إلى مصر كانت أغلبية المصريين يؤمنون بعقيدة[١٣] الطبيعة الواحدة(الإلهية الإنسانية للسيد المسيح) بينما الأقليات المصرية كانت تؤمن بعقيدة الطبيعتين (الإلهية والإنسانية غير المختلطين معًا) والتي تؤمن بها الكنيسة البيزنطية. لقد جاء الفتح الإسلامي لمصر[١٤] ضمن الفتوحات الإسلامية الخارجة من المدينة شمالًا حتى حدود الدولة البيزنطية وفي أيام الخلفاء الراشدين أبوبكر الصديق (٦٣٢م-٦٣٤ م)، عمر بن الخطاب (٦٣٤م-٦٤٤م)، عثمان بن عفان (٦٤٣م-٦٥٥م)، على بن أبى طالب (٦٥٦م-٦٦١م) تمكنت هذه الفتوحات من مصر وشمال إفريقيا ومعظم بلدان الشرق الأوسط وبلاد فارس وبالعودة إلى مصر كان بابا الأقباط المصريين الأنبا بنيامين وهومصري حتى النخاع سليل أسرة عريقة ثرية. في ذلك الحين كانت سلطات الإمبراطورية البيزنطية قد عينت واليًا على مصر من أهل القوقاز ليرأس الكنيسة ويحكم البلاد، وهكذا جمع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وكان اسمه-كروس "Cyrus" الذى عرفته المصادر العربية باسم - المقوقس- وكانت مهمة كيروس(المقوقس) توحيد المذهبين المسيحيين في صيغة توفيقية وضعها الإمبراطور، وبناء على ذلك قام بشن حملة اضطهادات قاسية ضد الأقباط المسيحيين، فهرب بنيامين إلى الصحراء وأُحرق أخوه حيًا في الإسكندرية واستولى كروس على ممتلكات الرافضين لمذهبه وأديرتهم وكنائسهم لصالح المسيحيين الذين يؤمنون بمذهب الطبيعتين، واستمر الأمر حتى دخل عمرو بن العاص إلى مصر على رأس جيش لا يزيد على أربعة

آلاف جندي، ولقد رأى كثيرون من الأقباط أن وصول المسلمين سوف يخلصهم من البيزنطيين وهوما حدث إذ أن أحد أعيان الأقباط تحدث مع عمرو بن العاص بعد أن عرف الأخير بهروب الأنبا بنيامين ونصحه أن يعيد الأنبا بنيامين إلى كرسيه وقد قام عمروبن العاص باستدعاء بنيامين إلى الإسكندرية عاصمة مصر آنذاك وعامله باحترام وقد عبرعن ذلك المؤرخ ساويرس بن المقفع وكذلك يوحنا النقيوسي أسقف مدينة نقيوس بقوله: "ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هربه منها لمدة ثلاثة عشر عامًا وسار إلى كنائسه وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون : إن انتصار الإسلام جاء بسبب ظلم الملك هرقل واضطهاد الأقباط الأرثوذكس على يد البابا كروس (المقوقس)، وكانت النتيجة هلاك ملك الروم وسيادة المسلمين مصر.

ولقد أرست العلاقة بين عمروبنيامين العلاقة بين المسلمين والمسيحيين[١٥] المصريين في تلك اللحظة التاريخية المهمة، ولقد تمصر العرب المسلمين وتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام وتزاوج العرب والمصريين، وحدث تحول ثقافي ملحوظ في تكوين الهوية المصرية؛ حيث دخل عنصر جديد في النسيج الاجتماعى المصرى وتكون نسيج ثقافى عربى إسلامي في صيغة مصرية متفردة أسهم فيه المصريون (مسيحيون ومسلمون) معًا يختلف هذا النسيج تمامًا عما كان عليه العرب المسلمون القادمون من شبه الجزيرة العربية، وتنامى وتعمق مع الزمن؛ حيث أسهم المسيحيون العرب في الحضارة العربية ونادرًا ما يحدث في التاريخ مثل هذا التغيير السياسى الكبير ويتوفر فيه السرعة والدوام على مدى التاريخ والسرعة هنا نسبية، حيث نقصد بالسرعة نقطة البداية وسهولتها ويسرها أما التغيير فقد كان سهلاً على مدى مائتى عام، لقد كان عدد العرب الذين استوطنوا مصر

قليلًا جدًّا بالنسبة إلى السكان فقد كانوا قرابة أربعين ألفًا مع عائلاتهم أي مائة ألف في دولة كان تعدادها ستة ملايين على الأقل، وكانت اللغة العربية تصارع اللغة اليونانية (لغة الفلسفة والعلم) واللغة القبطية (لغة الدين)، حتى سادت اللغة العربية وصارت لغة الأدب والحوار اليومى خاصة بعد قرار الخليفة الأموى-عبد الملك بن مروان-(٦٨٤م-٧٠٥ م) بتعريب الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية.

وبحلول ٧١٥ م حكم الأمويون[١٦] الذين اتخذوا من دمشق عاصمة لهم العالم الإسلامي وامتدت الدولة الإسلامية تحت إدارتهم من إسبانيا في الغرب إلى المحيط الهندى ومن وسط آسيا في الشمال إلى حدود الصحراء الكبرى وهكذا أخذت الجيوش الإسلامية معظم المقاطعات جنوبى جبل طوروس(في الأناضول وتركيا) وبعض المناطق وراءها.وكان يسكن في تلك الأماكن أكثرية مسيحية وصارت الكنائس والأديرة والمدارس التابعة وكل المدن المحيطة تحت سيطرة المسلمين.

في البداية لم يكن هناك تغيير مفاجئ في حياة المسيحيين، كان هناك قتال لكن لم تكن هناك مذابح ولم توجد سياسة محددة لإبادة كل من يعارض الحكام الجُدُد، والحقيقة أن الفاتحين المسلمين في بعض الأماكن والمدن لم يقوموا بعمليات سلب ونهب، بل كانوا منعزلين خارج حدود تلك المدن في معسكراتهم وفي مصر بنوا لأنفسهم مدينة خاصة بهم وأسموها الفسطاط؛ أي الخيام ويبين معظم المؤرخين إلى أن الفتوحات المبكرةكانت تتم على أساس إبرام عهد-ميثاق- بين السكان الأصليين والجيوش الفاتحة، وبلا شك أن هذه العهود[١٧]، أعطت حرية نسبية ومكنت السكان من البقاء على ما كانوا عليه من قبل إلا أن نفس المصادر التاريخية الإسلامية تتحدث عن بعض اختلاف وتباين بين مواقف الحكام المسلمين بخصوص مساحة

الحرية الممنوحة للبلاد المفتوحة، فمثلًا كان الفاروق عمر بن الخطاب يرى أنه مسئول عن حماية الصلبان الموضوعة على الكنائس وملحقاتها، وأكد بقوة وكرركثيرًا وأوصى ألا يقوم أحد مهما كان بالتعدى عليها أما الحكام في سوريا على طول جنوب الفرات فقد سمحوا للمسيحيين بحمل الصلبان بشكل علنى يومًا واحدًا في العام، وأن يتم ذلك خارج المناطق التى يسكنوها أما الخليفة - عبد الله بن مروان -(٦٨٥ م - ٧٠٥م) ومن تلاه من الخلفاء الأمويين فقد أمروا بتحطيم الصلبان الموضوعة على مبانٍ مرتفعة، بل وبدلوا صورة الصليب المرسومة على العملات المعدنية بصورة عمود رأسى فقط، والجدير بالذكر أن مؤسس الخلافة الأموية معاوية بن أبى سفيان(٦٦١ م -٦٨٠ م) حاول أن ينفذ هذا الأمر من قبل لكنه فشل بسبب معارضة الأهالى. واستكمالًا لهذا النهج قام الخليفة-عبد الملك بن مروان-ببناء المسجد الأقصى في أورشليم القدس تذكارًا لحادثة الإسراء والمعراج ووضع داخل المسجد وخارجه العديد من الآيات التي تنص على وحدانية الله، ومع بداية القرن الثامن الميلادى كان المسيحيون العرب أوغيرهم يعرفون بأهل الكتاب[١٨] وكانت توضع لهم قوانين ولوائح خاصة بهم وقد نسبها الخلفاء اللاحقين إلى عمر بن الخطاب وإن لم يكن من المؤكد أنها في جميعها وضعها الخليفة عمر لكن بعده جاء خلفاء أضافوا لما وضعه عمرولم يذكروا أنها من عندياتهم، وبالتالى لم يعرف شكل الوثيقة العمرية الأولى لكن من المؤكد أن هذه القوانين واللوائح كانت تلزم أهل الكتاب بدفع الجزية والخراج(ضريبة الأرض) وبعض البنود تنص على شروط معينة لبناء الكنائس وملابس أهل الذمة والأصل في هذا الأمر أن الدولة الإسلامية توفر الحماية لأهل الذمة في مقابل التزامهم ببنودها وعدم حمل السلاح ومن المعروف أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيزالمشهور

بتقواه وبعدله ونزاهته (٧١٧م - ٧٢٠م) دعم فرض تلك الشروط على أهل الذمة.

لقد كان عصر الخلافة الأموية من أفضل العصور؛ لأنه لم تكن هناك أي نزاعات قائمة على أساس ديني، لقد قام الحكام والجيوش الإسلامية بحماية الشعوب، وكان كل ما هنالك أن ما يدفعه أهل الذمة ضرائب إضافية يعفى منها المسيحى إذا اعتنق الإسلام، وهنا يصبح مثله مثل أي شخص مسلم بدون أي تفرقة في الأعراق أوالأنساب أوالتمييز من أي نوع وهذا عكس ما حدث بعد الخلافة الأموية مع الفرس الذين اعتنقوا الإسلام ورفعت الجزية من عليهم، ولكن وقعت بينهم وبين المسلمين العرب حروب طويلة على أساس أن العرب يعاملونهم كمواطنين درجة ثانية لكن في ظل الخلافة الأموية كانت الأمور تسير بسلام وهدوء ذلك؛ لأن المسلمين لم يصبحوا أغلبية في أي بلد مفتوح في ذلك الوقت.

من المسيحيين الذين لفتوا النظر في الخلافة الأموية القديس[١٩] يوحنا الدمشقي(٦٦٠م-٧٥٠م) وهو مسيحى خلقيدونى (من أتباع عقيدة الطبيعتين للسيد المسيح)، والتي شرحناها من قبل يتحدث اليونانية، ولا شك أن تنصيبه في بلاط الخليفة الأموى كان دليلًا على نجاحات المسيحيين أيام الأمويين، طبعًا هذا النموذج ليس قياسيًا، لقد عمل والد يوحنا الدمشقى وجده في مناصب قيادية في عاصمة الأمويين دمشق وقام جده بتسليم المدينة للفاتحين المسلمين بعد هروب الحاكم البيزنطى أما يوحنا الدمشقى فقد عمل في بلاط الخليفة الأموى وظل مسيحيًا متمسكًا بإيمانه ولم يضايقه أحد، ووضع كتابات لاهوتية عديدة باللغة اليونانية، ولقد اعتزل يوحنا الدمشقى الحياة العامة وترهبن في دير القديس سابا (توفى ٥٣١ م) جنوب شرق أورشليم القدس وهناك ألف موسوعة

لاهوتية شاملة - ينبوع الحكمة- ولقد كتب يوحنا الدمشقى في الجزء الثاني من موسوعته اللاهوتية عن الدين الإسلامي وأوضح رأيه دون وجل أوخوف من عقاب.

وهكذا فعل معظم اللاهوتيين المسيحيين العرب بعد دخول الإسلام إلى بلدانهم؛ حيث تأقلموا مع الثقافة الجديدة واللغة الجديدة وقدموا إيمانهم أوأعادوا تفسير عقيدتهم في القرينة الإسلامية، ومن أهم ما قدمه يوحنا الدمشقى شرحه لطبيعة المسيح (طبيعتان ومشيئتان، بحسب مجمع خلقيدونية ٤٥١ م) بأنَّ السيد المسيح كان له طبيعة إنسانية كاملة من ولادة ونمو في الجسد والعقل والثقة بالله والمعرفة... إلخ، كذلك عاش الضعف الجسدى من تعب وإرهاق وجوع وحاجة إلى النوم، ومات كإنسان... إلخ وأيضًا كانت له مشيئة إنسانية، ولم تختلط هذه الطبيعة الإنسانية بالطبيعة الإلهية بأى شكل من الأشكال.

بالطبع هذا الشرح كان أكثر راحة للفقهاء المسلمين والحكام من إيمان الكنيسة الشرقية غير الخلقيدونية التي تؤمن بأن السيد المسيح له طبيعة واحدة إلهية إنسانية ومشيئة واحدة إلهية إنسانية وهنا يؤكد يوحنا على هويته وصحة موقف مجمع خلقيدونية في وجه اعتراضات الآخرين من فكر الكنيسة الشرقية. في الوقت ذاته أوضح يوحنا الدمشقى الموقف اللاهوتى المسيحى إزاء اعتراضات الإسلام وتحدث عن أن المسيحية لا تضع مريم العذراء جزءًا من الثالوث فمريم العذراء ليست إلهة في المسيحية، كذلك تحدث عن الآب والابن بأنه لا يقصد بها تناسل لكن يقصد بها أدوار وخصائص ووظائف وفي النهاية يتحدث عن أن الله واحد وحدانية جامعة وليست وحدانية بسيطة. ولقد كان هذا النوع من الكتابات منتشرًا بقوة في الدولة الأموية من تأليف علماء مسيحيين يجددون

فكرهم اللاهوتي وعقيدتهم إزاء الطوائف المسيحية الأخرى من ناحية وإزاء الإسلام من ناحية أخرى،وكانت هذه المؤلفات رفضًا لهرطقات وبدع الطوائف وانحرافاتها العقائدية ومن الجدير بالذكر أنه لم يصادر أي مؤلف من هذه المؤلفات ولم يحاكم أحد المؤلفين على ما كتبه من موقفه من الإسلام[٢٠] أومن العقائد المسيحية الأخرى وكان أحد أهم أهداف الكتابات المسيحية، والتي تمت بكثرة شديدة بالتزامن مع كثرة الوثائق العقائدية والمؤلفات الجدلية هو إعلام الحكام والمثقفين المسلمين والفقهاء الفوارق بين الطوائف المسيحية والموقف من الإسلام. ويمكننا القول - بلا تردد - إن وجود الإسلام في الشرق أسهم بشكل أو آخر في تحديد الخلافات اللاهوتية بين الطوائف المسيحية للمرة الأولى في التاريخ.

لقد أدرك المسيحيون في ذلك الوقت أن وجود العرب بينهم سوف يكون وجودًا مستديمًا بخلاف الذين مروا عليهم من قبل، وهذا الوجود الإسلامي يتطلب منهم أن يقدموا أنفسهم للمسلمين كبشر يؤمنون بدين المسيح الذى به بعض من اختلاف عن الإيمان الإسلامي، وقد اهتموا بصورة حقيقية كيف يعبرون عنه لمتحدثين بالعربية لهم حضارة تختلف عن حضارتهم؛ حضارة الصحراء والشعر والقلم والبيان والقيم البدوية الأكثر محافظة من القيم الحضرية والمدنية، وقد استعانوا بالكتاب المقدس مع وضع تفسيرات له تناسب الحضارة القادمة عليهم، ومن الأمور التي أكدوا عليها بشدة هي أن الإسلام دين إبراهيم وذكر المؤرخ الأرمينى سيبوس(أسقف ومؤرخ عاش في القرن السابع) أن محمدًا أتبع شريعة موسى غير أن كثيرين من المسيحيين رأوا أن الإسلام يمثل لهم تحديًا فكريًّا حقيقيًّا.

لكن معاملة الحكام الجُدُد خاصة في ظل الخلافة الأموية[٢١] لم تتدخل ـ بتاتًا ـ في الحرية الدينية بل كان فرض الجزية مقابل الحماية وتدعيم دولة الإسلام؛ حيث لم يكن في ذهنهم قصة الأسلمة، لكن بعضًا من المسيحيين اتجهوا للإسلام لأسباب عدة من أهمها: تعريب الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية في زمن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان -(٦٨٤ م- ٧٠٥م) مما أدى إلى سرعة انتشار اللغة العربية وزيادة عدد المتحولين من المسيحية إلى الإسلام، ومما يدل على أنه لم يحدث ضغط من أي نوع أواضطهاد للمسيحيين للتحول للإسلام، إن الخليفة عمر بن عبد العزيز[٢٢] جاءه خبر من أن الحكام المسلمين في الدول المترامية تحت خلافته يمنعون المسيحيين عن دخول الإسلام حتى لا يتأثر دخل الدولة من الضرائب أوما يذهب منه لدولة الخلافة كل عام؛ لذلك أرسل الخليفة مكتوبًا إلى الحكام في بداية القرن الثامن بألا يمنعوا المسيحيين من التحول إلى الإسلام؛ لأن موقفهم النفعي بشأن الجزية جعلهم يوقفون التحول إلى الإسلام، قائلاً: لا تعطوا المصادر المالية هذا القدر من الاهتمام لكن عليكم أن تنظروا وتقيموا البعد الإيمانى في عملية التحول.

لا شك أن الفتح الإسلامي لمصر كان نقطة فارقة في التاريخ الطويل لها، إذ كانت المرة الأولى التي يتغير فيها شكل مصر الحضارى بعد قرون من الخمول الحضارى في ظل الاحتلال الرومانى الذي استمر قرابة سبعة قرون وبالفتح الإسلامي صارت مصر مركزًا من مراكز صنع الثقافة العربية الإسلامية في العالم ومما لا شك فيه بل والثابت تاريخيًا أن المسيحيين وعبر مجالات متعددة بعد أن تعربت مصر ودول الشرق الأوسط تغير

نسيجها الاجتماعى والثقافي (الدين واللغة) وقاموا بدور رائع وواضح في العلوم والآداب والفلسفة وحوار الأديان والتواصل الحضاري، كما ذكرنا من أمثلة في هذا الفصل والخاص بالدولة الأموية، لكن الدور المسيحى في بناء الحضارة العربية ازداد اتساعًا ورسوخًا تحت الخلافة العباسية وهوما سنراه في الفصل التالى.

الفصل الثالث

المسيحيون والعصر العباسي

الفصل الثالث
المسيحيون والعصر العباسي

في عام ٧٥٠ م جاءت الخلافة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية[٢٣] وذلك؛ لأن العباسيين كانوا من بلاد فارس ومركزها خراسان، وكان المسلم الفارسي مواطن من الدرجة الثانية في خلافة الدولة الأموية؛ لأن العربى المسلم كان مواطنًا من الدرجة الأولى، وفي الحرب التي قامت بينهما كانت ترفع الشعارات من المسلمين العرب: - أيها السادة أدبوا عبيدكم-ومن الناحية الأخرى: - ثوروا لكرامتكم -، وهكذا وصل العباسيون للحكم وكان التأثير الفارسى واضحًا فى خلافتهم-قام الخليفة المنصور(٧٥٤ م -٧٧٥ م) ببناء مدينة جديدة على نهر دجلة وجعلها عاصمة للخلافة العباسية وأسماها بغداد، وقد استمرت الخلافة العباسية حتى غزو المغول لها في القرن الثالث عشر.

ولكي نستطيع أن نحدد وضع المسيحيين في بدايات الخلافة العباسية نجد شهادة المفكر الإسلامي أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ(٧٧٥ م - ٨٦٩ م) وهويروى كيف تمتع المسيحيون بالحرية إلى حد ما في أيامه يقول الجاحظ : ومما عظمهم(يقصد المسيحيين) في قلوب العوام وحببهم إلى الطغام (الطبقة العليا) أن منهم كتاب السلاطين، وفراشي الملوك[٢٤] وأطباء الأشراف (ص ٣٣-٣٤ من كتاب المسيحيّة العربية) ويوضح هذا النص أن المسيحيين المحكومين بقوانين معينة صاروا من صفوة المجتمع وأنهم استطاعوا أن يتجاوزوا القوانين الموضوعة لهم فقد شغلوا وظائف مهمة وحيوية في خدمة الخلفاء على طريقة يوحنا الدمشقي في الخلافة الأموية.

وهناك مصادر تاريخية تؤكد أنهم وظفوا مكانتهم الاجتماعية في وضع سياسات للأديرة المسيحيّة، فضلاً عن أن معظم المسيحيين منذ بدء الفتح الإسلامي[٢٥] وعلى طول التاريخ كانوا يتخصصون في مجال المال والصرافة لحرفيتهم في هذا الأمر فضلًا عن أمانتهم وهوما نراه حتى اليوم في البنوك والمصارف العربية خاصة في مصر وأيضًا تخصص المسيحيون في مهنة الطب ومعظم الأطباء في مصر كانوا من المسيحيين حتى الستينيات من القرن الماضى ومازالت نسبتهم مرتفعة حتى اليوم، ومن أشهرهم في الدولة العباسية كانت أسرة بكاملها متخصصة في الطب تدعى أسرة بختيشوع وقد عملوا لسنين عدة وتوارثوها أبـًا عن جد وكانوا ضامنين (صحيًّا) للخلافة العباسية كلها، وذلك لاحترافهم وأمانتهم، والملاحظ أن توارث الحرف والوظائف من الآباء للأبناء ليست وليدة اليوم في بلادنا وإن كانت في الدولة العباسية لها أسباب أخرى وهي إمكانية ضياع الوظيفة منهم.

أما أروع ما ميز المسيحيون في الخلافة العباسية فقد كانت ثقافتهم العالية وتجلت في هضمهم للفلسفة اليونانية الرومانية وتمكنهم من اللغة العالمية(لغة الثقافة) في ذلك الوقت وهي اللغة اليونانية وقد كان المواطن العالمى الذى يمكن أن يقبل في أي دولة يسافر إليها هومن يتكلم اليونانية ويحمل الجنسية العربية ويدين بالمسيحيَّة أوالإسْلام، وكان المسيحيون العرب يتميزون بالجنسية العربية واللغة اليونانية، مما جعل المسلمين إما يقدرونهم إما يشعرون بالغيرة منهم وكانت نتيجة ذلك أن الأمير العباسي المأمون أسند إليهم ترجمة ونقل العديد من الكتب اليونانية والسريانية للعربية، وقد استمر ذلك طوال القرنين الثامن والتاسع.

فقاموا بترجمة كتب الفلسفة والفلك والطب والحساب مما فتح للعرب غير المجيدين للغات الأجنبية بابًا متسعًا للثقافة وقد لمع نجم حنين بن إسحق وابنه إسحق بن حنين، وكان الخليفة يعطيهما وزن الكتاب المترجم ذهبًا تقديرًا لهذه الخدمة الجليلة والفريدة في ذلك الوقت.

ويذكر الجاحظ[٢٦] أن بعض المسيحيين بسبب مناصبهم المرموقة تمردوا على القوانين التي تحد من حريتهم مثل الملبس الخاص بهم ومبدأ دفع الجزية، ورفض الاثنين، فقد كانوا أرستقراطيين يمارسون الرياضة ويرتدون الملابس الفاخرة ويتسموا بأسماء مسلمين؛ لكى يظهروا حجم الحرية التي يتمتعون بها داخل المجتمع الإسلامي والسؤال المطروح لأي محلل سياسي أوثقافى: هل كان لهذا السلوك رد فعل طبيعى ومتوقع من أقلية كبيرة العدد نسبيًّا شعرت بأنها تتميز سلبيًّا عن الأكثرية فحاولت الاندماج في المجتمع عن طريق تجاهل علامات التمييز المفروضة عليهم؟

أوكانوا يريدون التأكيد على هويتهم الخاصة عن طريق مناصبهم المتميزة متجاهلين القوانين والقيود؟! بالطبع نحن لا نستطيع الإجابة على مثل هذا السؤال رغم أن هذه الظاهرة تكررت كثيرًا في الدول العربية التي بها أقليات مسيحية وتحتاج إلى دراسة رغم أنه لا يوجد الآن ما يسمى بعهد الذمة وإن كانت هناك قوانين غير معلنة مثل "شروط بناء الكنائس" المجحفة لوكيل الداخلية محمد العزبى ١٩٣٦م وقوانين معلنة وحديثة مثل قانون ازدراء الأديان وما بينهما... إلخ لكننا نستطيع القول إن هذه التصرفات تخرج من دول لا تقر أوتحترم مبدأ المواطنة وحقوق الإنسان ومثل هذه النوعية من الدول تضعف وتنقرض إن لم تتغير إلى الأفضل.

خلاصة القول إن المسيحيين كانوا يتمتعون بحرية حركة كبيرة داخل مجتمع الدولة العباسية غير أنهم لم يكونوا معتبرين كاملى المواطنة وهذه المواقف تختلف من زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر.

وقد لخص هذا الأمر المفكر المصرى غالى شكرى[٢٧] في سلسلة مقالاته تحت عنوان-حصان طروادة المسيحى في مصر - ردًا على كتاب -المسيحيّة السياسية في مصر- لرفيق حبيب - يقول : منذ دخول الإسلام إلى مصروفرض التعددية الدينية الكتابية لم يوجد أبدًا في مصر ما يسمى بالوحدة أوبالوطنية، وإنما وجدت ـ دائمًا ـ دولة قوية أودولة ضعيفة، وفي الحالة الثانية كانت الفتنة هي القاعدة -وهوهنا يقول -أن الدولة القوية منذ دخول الإسلام هي التي كانت تعطى الحرية للأقليات أوتسمح لهم بالتعبير عن ذواتهم بطريقتهم في حماية الدولة (دولة المواطنة) أما الدولة

الضعيفة فتستمد بقاءها من إثارة الفتن بين الأغلبية والأقليات، وكان هنا يتحدث عن حكام مصر بعد ثورة ٢٣ يوليوخاصة السادات ومبارك.

وبالعودة إلى العصر العباسي وتطبيق هذا المبدأ(الدولة القوية والدولة الضعيفة) نجد أن الخلافة العباسية كانت قوية لذلك أفرزت حالة واحد من أهم بطاركة الكنيسة في الشرق وهوالبطريرك تيمثاوس الأول(٧٢٨م - ٨٢٣م) وقد جلس على كرسى البابا وية ٤٠ عامًا منذ رسم بابا في بلادنا عام ٧٨٠م، وقد كتب رسائل عدة مهمة فيها يتحدث عن العمل التبشيرى في بلاد فارس وآشور والهند والصين والتبت وفي أحَد خطاباته أظهر تعاطفًا مع موقف زوجات المبشرين واللواتى يعشن في مناطق نائية لفترات طويلة بعيدًا عن عائلاتهم ويطلب البطريرك تيموثاوس الأول من قادة الكنيسة أن يقوموا برعاية تلك الأسر، ولقد كانت كنيسة البطريرك كنيسة ضخمة كبيرة تمتد بطول طريق الحرير مما أعطى له وللمسيحيين قوةً ونفوذًا وبسبب قدرات البطريرك الإدارية والمالية تمتع بكثير من التوقير والاحترام وتقديرًا واضحًا من السلطات الإسلاميّة باعتباره رئيسًا لكل مسيحى الدولة العباسية، وقد كان له الحق في الدخول الفوري لمحضر الخليفة، وكان الخلفاء العباسيون يعشقون المناظرات والحوارات الإسلاميّة المسيحيّة ويقيمونها في قصورهم، وقد دعا الخليفة العباسى أبوعبد الله المنصور بن محمد بن على المهدى(٧٤٥ م - ٧٨٥ م) البطريرك تيموثاوس الأول لمناظرة دينية استمرت لمدة ٤٨ ساعة حول الخلاف العقائدى بين المسيحيّة والإسلام وبالطبع كان موقف البطريرك دفاعيًّا عن المسيحيّة

أمام أسئلة الخليفة الهجومية، وكانت ردود البطريرك دبلوماسية وواضحة وجلية وقوية ولم ينكر عقيدته في الوقت الذى فيه لم يكن قادرًا على توجيه أي نقد للإسلام، وقد كان هذا أمرًا طبيعيًّا ومنطقيًّا، فالبطريرك أحد رعايا الخليفة وقد أعطاه الخليفة الأمان لكى يتحدث بحرية ويعبر عن ذاته وإيمانه بكل طلاقة والواضح من الحوار أن الخليفة كان دارسًا جيدًا للإسلام والمسيحيَّة ويعرف بوضوح الفروق الرئيسة بينهما والأسئلة التي وجهها للبطريرك توضح أن الخليفة كان واعيًا بالاعتراضات القرآنية على المسيحيَّة وكان الخليفة يحض البطريرك على أن يقدم برهانًا عقليًّا على صحة العقائد المسيحيَّة ولعلنا نلاحظ أن الفقهاء المسلمين الأوائل كانوا يدافعون عن الإسلام باستخدام نصوص القرآن أمام من لا يؤمنون بالقرآن، لكن بعد اختلاط المسلمين بأتباع الديانات الأخرى اليهودية والمسيحيَّة والذين كانوا يدافعون عن إيمانهم بالمنطق العقلى؛ لأن الآخرين لا يؤمنون بنصوص الكتاب المقدس بدأ الفقهاء المسلمون يدافعون عن إيمانهم من خلال الفلسفة والمنطق لأول مرة في التاريخ إسوة باللاهوتيين المسيحيين، وقد تم ذلك على طول العصر العباسى وكان الخلفاء يدعون اللاهوتيين المسيحيين ليروا كيف يقومون بالدفاع عن الإيمان بالعقل ولقد كانت الحوارات الدينية تتم في شوارع بغداد بين العامة دون حساسيات رغم اختلاف ذلك لأن المسلمين كانوا يقومون -دائمًا- بزيارة الكنائس والأديرة، وهذا يدل على قبول التعددية الثقافية التى تبناها الكثير من الحكام المسلمين، بل إن الحكام المسلمين أنفسهم داوموا على زيارة الأديرة والكنائس المسيحيَّة للتأمل الهادئ وممارسة السكينة للنفس، أوللاسترخاء والتمتع بحدائق الأديرة مترامية الأطراف، وكذلك كان لدى المسلمين

وحكامهم فضول إيجابي للتعرف على أسلوب عبادة وطقوس المسيحيين خاصة أثناء الصوم، وهوما نشاهده حتى اليوم في الموالد التى تقام باسم العذراء مريم فكثيرًا ما يكون رُوَّادها من المسلمين أكثر من المسيحيين، بل كان حكام العباسيين وكبار الشرطة يذهبون إلى الأديرة؛ لتذوق النبيذ الذى تنتجه الأديرة والذى يستخدمه المسيحيون تذكارًا لموت المسيح على الصليب وقد ظهر في القرن العاشر ما سمى -أدب الأديرة- والذى يوثق لمواقع تلك الأديرة ويصفها من نحوشكلها وطبيعتها ومميزاتها وموقعها... إلخ.

إذن كان المجتمع العباسى يموج بحركة حضارية اجتماعية ثقافية تعددية على مستوى البشر الذين يعيشون فيه، من هنا كان للمسيحيين العرب دور بارز ليس فقط في نقل أوترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية[٢٨] والذى استخدمه المثقفون المسلمون فيما بعد في بناء الحضارة العباسية بل كانوا -أيضًا- سببًا في تشجيع وتحفيز المثقفين والحكام المسلمين؛ لكى يناقشوا معًا كيف يكون لهذا المجتمع هوية فكرية ودينية وحضارية معينة بذاتها.

في هذا الزمان البديع نشأ علم الكلام الإسلامي وهوالمقابل لعلم اللاهوت المسيحى، وقد دار نقاش معاصر بين مختصين بدراسة تاريخ الفكر الإسلامي حول موعد انبثاق أونشوء علم الكلام وترى هل جاء هذا العلم نتيجة الحوارات اللاهوتية المسيحيّة التي استخدمت في ذلك الوقت للدفاع عن الإيمان أم أنه جاء نتيجة الحوارات المسيحيّة المسيحيّة؛ أي بين الفرق المسيحيّة حول قضية قضاء الله ومسئولية الإنسان؛ حيث

كانت كل فرقة تقدم إثباتاتها لرأيها وحججها من خلال النصوص المقدسة والفلسفة والمنطق العلمي، وكذلك حول قضية صفات الله وهل هذه الصفات موجودة في جوهره أم تختلف عن جوهره وقد اعتبر كثير من العلماء والمؤرخين أن نشوء علم الكلام كان تأثرًا بهذه الحوارات المسيحيّة المسيحيّة، لكن البعض يرفض هذا القول، أما ما يتفق عليه الجميع أن الفكر الديني الإسلامي في نهايات العصر الأموي وبدايات العصر العباسي قد تأثر بالمسيحيّة. وديانات أخرى مثل اليهودية وقد استخدموا هذه المعرفة للدفاع عن الإسلام وعن موقفه من بعض العقائد المسيحيّة التي يرون أنها منافية للعقل مثل التجسد الإلهي في عيسى ابن مريم والتثليث.

بدأ المسيحيون استخدام اللغة العربية في عام ٨٠٠ م ولم تؤد سيادة اللغة العربية(٢٩) في الحياة المصرية إلى القضاء على اللغة المصرية القديمة (القبطية) مثلما حدث مع اللغة اليونانية التى كانت سائدة في البلاد قبل الفتح الإسلامي، والتي كتب بها يوحنا الدمشقي قبل ٧٥٠ م لجمهور كان يستوعبه بتلك اللغة وذلك لأن الفاتحين المسلمين غداة الفتح سمحوا للمسيحيين المصريين باستخدام لغتهم للمرة الأولى في الوثائق القانونية وهوما لم تسمح به السلطات البيزنطية ومع ذلك لم تصمد اللغة القبطية أمام اللغة العربية لأسباب عديدة تتعلق ببنية كل من اللغتين وقدرة كل منهما على التعبير عن شتى جوانب الحياة إذ أن اللغة القبطية التصقت بالكتابات العربية بشكل يكاد يكون كاملًا من هنا بدأت عملية ترجمة من المسيحيين العرب داخل الأديرة بالقرب من أورشليم القدس وظهر منذ بدايات القرن التاسع عدد كبير من اللاهوتيين المسيحيين العرب الذين لم يكتبوا - فقط باللغة العربية - بل كان تفكيرهم اللاهوتي يتم -أصلًا- باللغة العربية، ومن أشهر هؤلاء اللاهوتيين المسيحيين ثيودروس أبوقرة

(٨٢٥م) أسقف حران واليعقوبى حبيب بن حذيفة أبورائطة التكريتي (٨٣٥م) والنسطورى عمار البصرى(منتصف القرن التاسع الميلادي)، وكان هؤلاء لا يبذلون جهدًا كبيرًا في شرح اللاهوت المسيحى في الواقع الإسلامي ومصطلحاته مستخدمين مفردات ومفاهيم وأمثلة يفهمها العامة، بل كانوا يستعينون بمفاهيم إسلامية في شرح اللاهوت المسيحى وفي مصر كان سعيد بن البطريق المتخصص في التاريخ كما كتب ساويرس ابن المقفع كتاب - سيرة البيعة المقدسة - عن تاريخ الكنيسة المصرية وبطاركتها باللغة العربية من الناحية الأخرى كتب الشعراء المسيحيون قصائدهم باللغة العربية في الموضوعات نفسها التي كتب فيها الشعراء المسلمون.

ومن هنا نستطيع القول إن ما حدث للمسيحية والمسيحيين العرب في القرن التاسع كان بمثابة بلورة شكل أصيل وجديد من أشكال المسيحيَّة غير المسبوق في صياغة عربية وقرينة إسلامية.

ولقد كان انبثاق هذا الشكل الأصيل للمسيحية ضروريًا ومهمًا وذلك لأن[٣٠] المسيحيين وجدوا أنفسهم مطالبين بإثبات صحة الإيمان المسيحى أمام مجموعة من الأسئلة الجديدة هذا فضلًا عن إحساسهم بالحرية لانزياح البيزنطيين من على كاهلهم وتأثيرهم النافذ فى المواقف اللاهوتية المصرية فبدءوا يعبرون عن لاهوتهم وقناعاتهم في القرينة والحضارة الإسلاميَّة الجديدة وكانت وسيلتهم لغة يشتركون فيها مع نظرائهم المسلمين وهكذا خرجت أدبيات لاهوتية كنتيجة حتمية لإعادة التفكير في كيفية التعبير عن اللاهوت المسيحى في خلفية قرينة دار الإسلام وهكذا رأينا عبقرية المفكرين المصريين الذين يرتبط لاهوتهم بعمق وشدة

بالتراث الآبائى منذ القرن الأول الميلادى في قرينة يونانية يهودية بفحصهم وفهمهم في كتابات الآباء باستحضاره وإعادة صياغته في قوالب خطاب فكرى لاهوتى معاصر يعبر عن الإيمان المسيحى ورغم أن هناك أجزاء من الكتاب المقدس ترجمت في وقت سابق إلى اللغة العربية، فإن الترجمة المنظمة بمنهاج ثابت للكتاب المقدس إلى اللغة العربية لم تتم إلا في منتصف القرن التاسع وإن كان البعض يتحدث عن ترجمات سابقة ويعتمدون في ذلك على أن تجمعات المسيحيين العرب كانت موجودة من قبل، غير أن ما هو ثابت -تاريخيًا- أن اكتمال ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية تم في العصر العباسى مع الإقرار بوجود أجزاء من الكتاب المقدس مترجمة قبل ذلك العصر لكن لا توجد مخطوطات سوى من العصر العباسى ولا يوجد لدينا أي مخطوط سابق للعصر العباسي ولا يوجد دليل صحيح يقول إن هناك ترجمة عربية أقدم من القرن التاسع وهذا يوضح أن احتياج المسيحيين العرب في أيام العباسيين لإثبات الذات كان هو الدافع الأساس وراء ترجمة الكتاب المقدس للغة العربية وربما -أيضًا- بسبب أن عدد من كان لهم لغات أخرى بدأ يتناقص وينتهى.

من هنا نستطيع القول إن التأثير المسيحى العربى الأصيل[٣١] وسيرته ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالإسلام العربى الأصيل ذي الخلفية المصرية الفرعونية واليونانية والفينيقية والآشورية، وهكذا تآلفت المسيحيّة العربية فكرًا وعملًا وأسهمت بقوة في نشأة الفلسفة الإسلاميّة من خلال الحوار الفقهي اللاهوتى العميق والمستنير والمنفتح ونوعية الأسئلة التي وجهها الفكر الإسلامي للمسيحية والدفاع المسيحى عن صحة الدين المسيحى

ومحاولته تضمين الأقليات العددية إلى الإسلام كل ذلك إلى جوار التحديات الاجتماعية التي فرضها الإسلام على المسيحيين كل هذا الحراك الاجتماعي الديني أدى إلى بناء حضارة إسلامية عالمية بفكر عقلاني يحتوى الجميع على أسس واضحة مقبولة عالميًا أما في مجال الاقتصاد، فالزراعة كانت مهنة معظم المصريين منذ فجر التاريخ وهوما يعنى أن هؤلاء الزراع ظلوا يمارسون مهنتهم الأزلية بغض النظر عن التغيرات التي جرت على الظروف السياسة أوالديانة التي يدينون بها فقد كان الريف المصرى ولا يزال يوحد بين سكانه من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ومن حيث العادات والتقاليد بسبب الطبيعة الكلية للوجود الإنسانى في الريف، فالإنسان الفرد جزء من الكل في الريف المصرى فلا وجود للفردية التي نراها في المدن، لقد عاش المسلمون والمسيحيون نفس الحياة ونفس المجتمع وتعرضوا لنفس الظواهر وخضعوا لنفس الظروف لقد عمل المسيحيون بالزراعة في الريف كما عملوا في الإدارة والطب والهندسة والتجارة وسائر المهن والحرف التي كانت في المجتمع المصرى آنذاك.

وهكذا نرى أن المسيحيين في العالم الإسلامي لم يعيشوا -مطلقًا- في (جيتو) مجتمع انعزالى اختيارى ودليلنا الواضح في ذلك الفيلسوف المسيحى العربى يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا التكريتى(٨٩٣م -٩٧٥م)[٣٢] وقد كان يعقوبى العقيدة (طائفة مسيحية) ودرس على يد أحد النساطرة (طائفة اعتبرت هرطوقية وعلى يد الفيلسوف المسلم أبى نصر الفارابى (٨٧٤ م -٩٥٠ م) والذى كان يطلق عليه المعلم الثانى بعد أرسطو، ثم صار يحيي بن عدى فيلسوفًا يشار له بالبنان وزعيمًا للفكر

الدينى والفلسفى في بغداد وقد قام بتأليف كتب عدة ضد طوائف مسيحية يختلف معها، ثم كتب ناقدًا مجموعة من العلماء والفلاسفة المسلمين الذين عاشوا قبله، ومن أهم أعماله التي تركت أثرًا عميقًا في العالم الإسلام كله رسالته في تهذيب الأخلاق، ولعلنا نلاحظ من هذا السرد أن يحيي بن عدى لم يكن مقيدًا أومحددًا في فكره وتعبيره عن ذاته لكونه مسيحيًّا على الرغم من أنه إذا نظرنا إلى معظم مؤلفاته اللاهوتية نستطيع أن ندرك أنها مجموعة لنقد وتفنيد أعمال مفكرين مسلمين سابقين، فلم تكن أعماله - في معظمها - مؤلفات أصيلة بقدر ما كانت ردودًا استلزمت منه جهدًا فكريًّا كبيرًا، وحتى كتاب (تهذيب الأخلاق) لم يكن كتابًا لاهوتيًّا منظمًا كلاسيكيًّا لدرجة أن كثيرًا من الباحثين ينسبونه إلى مؤلفين مسلمين.نخرج من هذا النموذج لمفكر مسيحى أنه كان على وعى كامل بقدر التحديات التي واجهها المسيحيون العرب في دار الإسلام وأهمية وضرورة الرد على الاعتراضات الإسلاميّة من ناحية والتفاعل مع معطيات الفكر الإسلامي من الناحية الأخرى وذلك بدلًا من التمركز حول الذات والعقيدة فحسب وكفى المؤمنين شر القتال لقد كان هذا التفاعل من أكثر عوامل بناء حضارة عربية أصيلة مستنيرة.

وهناك مثل آخر ربما يكون أوضح وأكثر مباشرة هي كتابات اللاهوتى بولس الأنطاكى(٣٣) الذى كان أسقفًا على مدينة صيدون في القرن الثالث عشر وهومؤلف أصيل؛ حيث وجه رسالة إلى صديقه المسلم تتميز بجراءة عالية يريد من خلالها إثبات أن الإسلام ليس دينًا عالميًّا جاء ليحل محل المسيحيّة أواليهودية، بل هو دين موجه أساسًا للقبائل العربية، وهذا

اعتراف صريح بالدين الإسلامي بأنه دين سماوى لكنه مخصص لشعب معين وهذا اجتهاد مسيحى متقدم؛ حيث يرى الحق في الدين الإسلامي وقد اختلف في اجتهاده مع رؤية يوحنا الدمشقى الذى صاغها في القرن الثامن الميلادى، وهذا دليل على وجود تفكير لاهوتى عربى جاد حول قضية تعدد الديانات وهذا التفكير يأخذ الإسلام بشكل خاص بعين الاعتبار وقد خدم هذا الفكر المسيحيّة العربية في دفاعها ضد الاتهامات التي وجهت لها، ولقد تم تبادل هذه الرسالة لمدة قرن كامل قبل أن يقوم أحدهم بتحريرها(ضبط النص) في بدايات القرن الرابع عشر، وعندئذ تم إرسال هذا النص بشكل سرى إلى عالمين من علماء المسلمين كى يجدا بعض الحق فيها ويوافقا على أن المسيحيّة دين يعترف بالإسلام، لكنهما لم يقتنعا.

لكننا هنا نستطيع القول إن هذه الرسالة تتحدث بشكل جسور وواضح عن علاقة الإسلام بالمسيحيّة، وتعتبر مصدر الديانتين واحدًا هو الله تعالى وتؤكد على أن الإسلام ليس منافسًا للمسيحية والعكس صحيح، لقد اعتبر بولس الأنطاكى أن الإسلام دين من عند الله واعتقد أبو الفرج الطيب أن الرسول محمدًا أحد أنبياء العهد القديم.هذه كلها كانت اجتهادات جريئة لكن الكنيسة رفضتها والإسلام رفضها؛ لأنها اجتهادات تتحدث عن أن الأديان جميعًا من عند الله دون تحريف من جهة أوتجاهل من جهة أخرى.

ومن المرجح أن تكون الحروب(الصليبية أوالفرنجة) كم أطلق عليها العرب هي الخلفية التاريخية للرسالة التي وضعها بولس الأنطاكى، ولقد كانت هكذا بالفعل في النص المحرر لاحقًا.

إنها علاقة واضحة تبين مدى استيعاب المسيحيين العرب القرينة الإسلاميّة، ذلك لأنهم عاشوا في مدن عبرت فيها جيوش الأوروبيين فعانوا نفس المعاناة وتجرعوا نفس الكأس المرة التي تجرعها المسلمون دون تفرقة، ولم يكن ممكنًا -إطلاقًا - أن يميز المعتدون الأوروبيون بين المسيحيين العرب والمسلمين العرب لقد كان كلاهما ضحية مجازرهم، وهو ما حدث في العصر الحديث في حرب (١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م) لقد سال دم المسيحى كما سال دم المسلم ولم تفرق جيوش إسرائيل والصهاينة بين المسلم والمسيحى في كل البلاد العربية وكم نحن في حاجة اليوم مع انتشار ندوات واجتماعات الحوار الإسلامي المسيحى أن تكون هنالك جدية في اختراق الجمود باجتهادات فقهية إسلامية مسيحية يهودية تعطى قدرة حقيقية على التوحد.

يرصد الأب الدكتور جورج [٣٤] قنواتى إسهام المسيحيين في تعريب التراث اليوناني أيام الخلافة العباسية كالتالى :

أولا : قائمة الناقلين من التراث اليوناني إلى العربية إما مباشرة إما بواسطة اللغة السريانية.

ثانيًا : ما نقله هؤلاء من التراث اليوناني.

ثالثًا : أسماء المشهورين من المسيحيين في المجالات المختلفة.

أولًا : قائمة الناقلين من التراث اليوناني إلى العربية :

١-اصطفان القديم : وقد نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها.

٢-البطريق: وقد كان في أيام المنصور وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة.

٣-أبوزكريا يحيي بن البطريق : وكان في حملة الحسن بن سهل.

٤-الحجاج(بن يوسف) بن مطر :ترجم وفسر للمأمون وهوالذي نقل المجسطي وإقليدس.

٥-ابن ناعمة واسمه عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمة.

٦-سلام الأبرش :من النقلة القدماء في أيام البرامكة واشتهر بنقله مخطوط السماع الطبيعي.

٧-حبيب بن بهرنير مطران الموصل :ترجم وفسر للمأمون كتب عدة.

١٠-أيوب وسمعان:ترجما وفسرا زيج بطليموس لمحمد بن خالد يحيي بن برمك، وبعض الكتب القديمة.

١١- ابن شهد الكرخي: نقل من السريانية إلى العربية نقلًا رديئًا كتاب الأجنة لأبقراط.

١٢- أبوعمرويوحنا بن يوسف الكاتب : نقل كتاب أفلاطون في آداب الصبيان.

١٣-أيوب بن القاسم الرقي :نقل من السريانية إلى العربية ومن نقله كتاب إيساغوجي.

١٤-داديشوع : ترجم وفسرلإسحق بن سليمان بن على الهاشمي من السريانية إلى العربية.

١٥- قسطا بن لوقا البعلبكى :جيد النقل، فصيح اللسان اليوناني والسريانى والعربي، وقد نقل أشياء، وأصلح نقولا .

هذا بخلاف حنين بن إسحق، وإسحق(بن حنين بن إسحق) وثابت ابن قرة (الحراني)، وحبيش(بن الحسن بن الأعشم الدمشقي)، وعيسي

ابن يحيي والدمشقي، وإبراهيم بن الصلت (أبونوح)، وإبراهيم بن عبد الله، ويحيي بن عدى وغيرهم الكثير وجميع هؤلاء النقلة، ما عدا قلة هم من العلماء المسيحيين، ويمكننا أن نضيف من مصادر أخرى :

١-سنان بن ثابت بن قرة.

٢-عيسي بن إسحق بن زرعة.

٣- يعقوب بن إسحق الكندي.

٤- عمر بن الفرخان الطبري.

٥- أبوبشر متى بن يونس : من دير قنى تفقه في مدرسة مار مارى على يد أساتذة عظام وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره.

٦-يوحنا بن مأسوية.

٧ - آل بختيشوع وهم من السريان النساطرة.

٨ - آل ماسرجويه: أولهم ماسرجويه متطيب البصرة، وهويهودى المذهب سرياني اللغة، وكان ينقل من السريانية إلى العربية.

٩ - موسى بن خالد، ويعرف بالترجمان، نقل كتبًا كثيرة من الستة عشر لجالينوس وهودون حنين.

١٠ - سرجيس الرأسي : هومن مدينة رأس العين في جزيرة العراق نقل كتبًا كثيرة وكان متوسطًا في النقل وحنين كان يصلح نقله.

١١- الجاثليق طيموثاوس الأول النسطوري.

١٢- أبوالفرج بن الطيب.

ثانيًا: ما نقلوه من التراث اليوناني :

١ -علم التنجيم -الطب جورجي بن بخيشوع.

٢- طبقات الأطباء.

٣- كتب الفلسفة في أيام المأمون :

أولًا : كتب أفلاطون

١ -السياسة نقله حنين بن إسحق.

٢- المناسبات نقله يحيي بن عدى.

٣ - النواميس نقله حنين ويحيي.

٤- طيماوس نقله البطريق وأصلحه حنين.

٥- أفلاطون نقله يحيي بن عدى.

٦ - التوحيد نقله يحيي بن عدى.

٧- أصول الهندسة نقله قسطا بن لوقا.

ثانيًا : كتب أرسطا طاليس

١- المقولات: حنين بن إسحق.

٢- العبارة:نقله حنين بن إسحق إلى السريانية وإسحق إلى العربية.

٣- تحليل القياس: تيادروس، وراجعه حنين.

٤- كتاب البرهان :إسحق بن حنين، ومتي.

٥- كتاب الجدل: إسحق، ويحيي.

٦- المغالطات أوالحكمة الموهة: ابن ناعمة، وأبوبشر إلى السريانية، ويحيى إلى العربية.

٧- الخطابة :إسحق بن حنين.

٨- الشعر: أبوبشر.

ثالثًا : الطبيعيات

١ - كتاب السماع الطبيعى :أبوروح الصابى، وحنين، وقسطا، وأبوناعمة.

٢ -كتاب السماء والعالم: ابن البطريق، وراجعه حنين.

٣ -الكون والفساد :حنين إلى السريانية، وإسحق الدمشقى إلى العربية.

٤ -الآثار العلوية :أبوبشر، ويحيي.

٥ - الحس والمحسوس: أبوبشرمتى بن يونس.

٦ - الحيوان: ابن البطريق.

رابعًا : الإلهيات

١ - كتاب الحروف والإلهيات :إسحق، ويحيي، وحنين، ومتى.

٢ - الأخلاق :إسحق.

٣ - المرآة: الحجاج بن مطر.

٤ - أثولوجيا: حمصي بن نعيمة، وراجعه الكندى.

خامسًا : كتب الطب وفروعه

١ - عهد أبقراط:حنين إلى السريانية، وحبيش، وعيسى إلى العربية.

٢- الفصول: حنين بن إسحق لمحمد بن موسى.

٣- الكسر: حنين بن إسحق لمحمد بن موسى.

٤- تقدمة المعرفة :حنين، وعيسى بن يحيي.

٥- الأمراض الحادة :عيسى بن يحيى.

٦- الأمراض الوافدة: عيسى بن يحيي لأحمد بن موسى.

٧- حانوت الطبيب :حنين، بن إسحق لمحمد بن موسى.

٨- الماء والهواء : حنين، وحبيش.

٩- طبيعة الإنسان: حنين، وعيسي.

هذا غير كتب جالينوس في الطب وهم ٤٧ كتابًا ترجمت كلها للعربية وكتب إقليدس في علم النجوم، والهندسة، والحساب، والموسيقى، والميكانيكا. وكتب أرشميدس، وكتب أبولونيوس... إلخ.

ثم يرصد شحاتة قنواتي، الشعراء المسيحيين. وهكذا نستطيع القول إن الحضارة العربية، الإسلاميّة وصلت إلى قمتها السياسية والثقافية والاجتماعية أثناء الخلافة العباسية ثم بدأت في التراجع.بل نستطيع القول إن عصر الإصلاح الأوروبي والنهضة الأوروبية قامت على ترجمة كتب العلماء العرب والمعتزلة مثل : ابن رشد، وابن سينا، والكندي، والفارابي، وغيرهم الكثير بينما الحكام العرب الذين أتوا بعد الخلافة العباسية وعلى رأسهم الخلافة العثمانية تهاوت بحرية الفكر وحركة الترجمات.من الثابت -تاريخيًّا- أن أوروبا بنت نهضتها، على الفكر الفلسفي والعلمي للعصر

العباسي بينما الأبناء والأحفاد العرب اجتاحهم التخلف العلمي والتطرف الديني والانقسامات الحادة بين مِلَل ونِحَل كما سنرى في الفصول القادمة.

لكن قبل أن نترك الخلافة العباسية لا بد أن نتعرض للدول التي توالت على حكم مصر بدءًا من الدولة الفاطمية (٩٦٩م -١١٧١ م) المعاصرة لبدايات الخلافة العباسية وحتى الخلافة العثمانية مرورًا بالدولة الأيوبية والهجمة الصليبية والمغول.

تعتبر الدولة الفاطمية[٣٥] بمصر العصر الذهبي للمسيحيين واليهود، فقد تولوا مناصب مهمة في الإدارة الفاطمية بسبب سياسة الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية ضد السنة الذين كانوا يشكلون غالبية المصريين في ذلك الحين ومن الواضح أن الوجود الاجتماعى للمسيحيين المصريين في العصر الفاطمى كان أفضل منه في الفترة السابقة على هذا العصر على الرغم من أن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى قد شوه الصورة بسبب تصرفاته الغريبة التى خرجت عن سياق الدولة الفاطمية عمومًا بيد أن تصرفات الحاكم بأمر الله لم تكن قاصرة على فئة دون أخرى من المصريين وإنما شملت المصريين جميعًا من المسلمين والمسيحيين واليهود كما أن هذا الخليفة المثير للجدل بين المؤرخين قد تراجع عن كل تصرفاته تجاه المصريين جميعًا في الفترة الأخيرة من حياته وقبل اختفائه على نحو غامض.

الدولة الأيوبية : (١١٧١م - ١٢٥٠م) عاش المسيحيون واليهود المصريون وقتًا مريحًا بشكل عام على الرغم من أن الدولة الأيوبية نفسها كانت الاستجابة السياسية للحملات الصليبية التي نجحت في زرع الكيان الصليبى الغريب على الأرض العربية في فلسطين والشام، وكانت

في حروب شبه دائمة ضد الصليبيين الذين هاجموا مصر بحملتين كبيرتين في غمار الصراع الإسلامي / الصليبى وعلى أي حال لم يتأثر الوجود الاجتماعى للمسيحيين المصريين كثيرًا بالحرب الدائرة ضد الفرنجة الصليبيين الذين كانوا يعادون المسيحيين العرب بقدر عدائهم للمسلمين.

المغول والمماليك :[٣٦]

نستطيع القول إنه كان للصليبيين الباع الأعظم في تقريب العالم العربي بمسيحيه ومسلميه بعضهم البعض، فقد وضع الصليبيون الأوروبيون حجر الأساس لبطريركيات وكراسى أسقفية غربية وظهرت رهبنيات غربية في المناطق الخاضعة لحكمهم وقد أزاحوا الرهبنيات والأسقفيات الشرقية المحلية رغم روحانياتها العالية ونظام عبادتها الثرى.

في ذلك الوقت اجتاح المغول بلدانًا عديدة في اتجاه الغرب بدءًا من وسط آسيا حتى تمكنوا من دحر الخلافة العباسية في بغداد عقر دارها وهكذا تعرض البناء الاجتماعى للزوال.

في عام ١٢٥٨م حطم المغول بغداد بوحشية وقتلوا المستعصم بالله (١٢٤٢م - ١٢٥٨م) آخر خليفة عباسى، وقد أظهر المغول تسامحًا مع المسيحيين في البداية، بل كاد المغول أن يقبلوا المسيحيّة كدين رسمي واستبدل البطريرك النسطورى كرسى الأسقفية ووضعه داخل قصر الخليفة وشعر بحرية بالغة حتى أنه كان يمارس الشعائر الدينية بشكل علني لأول مرة في التاريخ منذ تشييد بغداد، لكن سرعان ما تغير المغول وتحولت الحرية إلى اضطهاد وإذلال وتم حرق الكثير من الكنائس والأديرة وتم قتل العديد من الكهنة والأساقفة وفقدت كنيسة الشرق مكانتها في

الحياة العامة وانتهت التجمعات المسيحيَّة في آسيا وفقدت بذلك صدارتها في قيادة الكنيسة في الوطن العربى وزاد الاضطهاد في عهد تيمورلنك(١٣٩٦ م - ١٤٠٥ م) ومن تبعه من حكام المغول.

في الوقت ذاته استولى المماليك على حكم مصر(١٢٥٠م - ١٥١٧م) وقد كان عصر المماليك في مصر استمرارًا لسياسة الأيوبيين من نواحٍ عدة، فقد واصلوا المقاومة ضد الصليبيين واحتفظوا بل وصانوا البنيةَ الاجتماعية والنسيج الثقافي للمجتمع المصرى، فلقد عاش المسيحيون المصريون حياتهم ضمن الإطار العام للحياة المصرية، وكان المسيحيون منقسمين إلى طائفتين؛ الطائفة الملكانية وهم أقلية الأقلية، واليعاقبة وهم الأغلبية بين المسيحيين المصرين وعلى عكس اليهود الذين رفضوا أن يمارسوا الزراعة جنبًا إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين في الريف، ولقد كان للحضور الاجتماعى للمسيحيين في الريف ـ بخصائصه المغروسة في الأرض بعاداته وتقاليده وحيازة الأرض الزراعية ـ تواجد قوي ومؤثر في المجتمع المصرى حينئذ، تشير وثائق دير سانت كاترين بسيناء عن المصادر التاريخية الموازية أن المسيحيين المصريين انخرطوا في كافة مجالات العمل المتاحة في مصر، بل واشتغلوا في كافة الحرف والمهن وتميزوا في التجارة والزراعة والعمل الإدارى، والصرافة والأموال لقد كانت هذه الأمور تسير بطريقة طبيعيةجدًّا، فالمسيحيون ليسوا غرباء أوأجانب وقد احتفظوا بمسيحيتهم بينما اختارت الأغلبية الدين الإسلامي دينًا لهم لسبب أوآخر، ولكن هؤلاء وأولئك بقوا - بالطبع - مصريين حتى النخاع، وقد أشار المؤرخ المدقق العظيم - تقى الدين المقريزى - إلى أن كلمة - القبط - أوالأقباط كلمة من أصل فرعونى تشير إلى مصر أي تعنى المصريين جميعًا

مسلمين ومسيحيين وأنه لا توجد ديانة اسمها - الديانة القبطية - أي ربط صفة القبطي بالدين خطأ علمي جسيم من ناحية ويحمل مضمونًا إقصائيًّا غير مريح لشريك الوطن المختلف في الدين من ناحية أخرى وقد شاركه هذا الفكر مؤرخون وعلماء معاصرون له ومن بعده.

وبالعودة للوثائق نجد أن الوجود المتكافئ للمسيحيين والمسلمين (اليعاقبة والملكانية) امتلكوا العقارات على اختلاف أشكالها وأنواعها ومستوياتها وتعاملوا مع المصريين جميعًا بغض النظر عن الانتماء الديني في جميع أنحاء البلاد في البيع والشراء والرهن والإيجار وتكوين الشركات والمصانع طبقًا للقوانين الحاكمة في ذلك الوقت، بل تشارك المسيحيون والمسلمون في كثير من أعمال التجارة والصناعة وما يلفت النظر أن كافة التصرفات القانونية للمسيحيين المصريين من بيع ورهن ووقف ودين ومصادقة شرعية... إلخ كانت تتم أمام قاضي مسلم حتى لو كان طرفا العقد من المسيحيين إذا اختار الطرفان المسيحيان ذلك وهو ما كان أمرًا عاديًّا، بل في الغالب الأعم وكان يشهد على صفحة هذه العقود مصريون من المسلمين والمسيحيين على السواء ومن اللافت للنظر أن الأوقاف المسيحيّة الأرثوذكسية كانت نظارتها تعهد إلى القاضي المسلم الحنفي حسبما نرى في كثير من الوثائق المحفوظة حتى اليوم وربما هذا يجعلنا نخرج بانطباع أن القانون هو الحاكم وأن الديانة لم تكن تؤثر في التصرفات القانونية وأن جميع المتعاملين يشعرون بوحدة وجودهم الاجتماعي والوطني تحت ظل سيادة القانون.

وقد كان المصريون جميعًا عدا اليهود يحتفلون بعدد كبير من الأعياد والمواسم المسيحيّة باعتبارها أعيادًا ومواسم - مصرية - وقد جرت عادة

المصريين ومازالت حتى اليوم على صنع أطعمة بعينها في هذه المواسم كانوا يتهادون بها فيما بينهم، وتشير المصادر التاريخية أنه كان يحدث أحيانًا أن يقوم المسئولون عن كنيسة باستعارة الأثاث والفرش من الجامع المجاور لاستخدامها في مناسبة دينية مثلما حدث عندما استعار القائمون على شئون الكنيسة المعلقة في الفسطاط القناديل والأثاث من جامع عمروبن العاص لاستخدامها في أحد اجتماعاتهم الدينية المهمة أما بالنسبة إلى المشكلات الاجتماعية التي كانت تنشب بين المسيحيين والمسلمين من وقت إلى آخر، فقد كانت –بطبيعة الحال– لأسباب اقتصادية أواجتماعية لكنها تأخذ الطابع أوالشكل الدينى(كما يحدث حتى اليوم) وفي عصر المماليك واجه المسيحيون واليهود بعض من هذه النوعية من المشكلات فيها تعرضوا للإيذاء في بعض المواقف من جانب السلطات الحاكمة، بل إن السلطات الحاكمة كانت تستخدم العوام وتثيرهم ضد المسيحيين لشغل الناس عن فساد الحكم والحكام، وهوما كان يحدث أثناء حكم مبارك ووزير داخليته؛ حيث كانت أدواته في شغل الناس عن الفساد المنتشر هي الفتنة الطائفية خاصة بناء الكنائس أوزواج مسيحية من مسلم فيثيرون العامة لصنع مشكلة أومباريات الكرة والشغب فيها من الناحية الأخرى.

كان أكثر ما يسعد الحكام[٣٧] أن يقوم بعض المتعصبين لسبب أوآخر بالتجمهر ضد الطرف الآخر وهنا يأت الحاكم كالحكم العدل بينهما وفي حادث مشهور قام بعض الرهبان المسيحيين بإشعال الحرائق في عدد من مساجد القاهرة وبعض أحيائها كرد فعل لإيذائهم والسخرية منهم، فقام بعض المسلمين بإحراق عدد من الكنائس، وقاموا بتظاهرة تطالب

السلطان محمد بن قلاوون (النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلاد) بطرد أهل الذمة من الوظائف الحكومية وعلى الرغم من أن السلطان تردد في البداية في استجابة هذه المطالب فإنه بدا وكأنه رضخ في نهاية الأمر لكي يعود الهدوء للشارع وتم طرد اليهود والمسيحيين من وظائفهم الحكومية بناءً على طلب الجماهير، إلا أنه من المعروف حينئذ أن هذا الأمر كان معدًا - سلفًا - بالتوافق مع المسيحيين وتم تجهيز الشارع المسيحي لقبولها وبعد أن هدأت الأمور حدث أن تقدم بعض أصحاب الأملاك المسيحيين والمسلمين النافذين وطلبوا من السلطان أن يعيدهم فأعادهم وهوما يتم الآن بحذافيره عند تهجير مسيحيين نتيجة لقانون سيئ السمعة يدعى – ازدراء الأديان – وبعد تهجيرهم من السلطات الأدنى يعادون إلى منازلهم بأمر من السلطات العليا... وهكذا وبالطبع كانت الأحداث العنيفة تهدد النسيج الاجتماعى خاصة عندما تفرض قيود على المسيحيين واليهود في الملبس أوالطرد المؤقت من الوظائف لكن لم تصل -إطلاقًا- إلى القتل أوالطرد (التهجير) أومصادرة الأملاك والملاحظ أن مثل هذه القوانين على أهل الذمة مثل: الجزية، وتطبيق الشروط العمرية، والتى بالغ فيها الفقهاء بعد عمر ونسبوها إليه لم تكن تطبق بشكل يومى أومستمر لكن كان يلجأ إليها عند حاجة الحكام السياسية لإثارة بعض الشغب وتنسى بعد ذلك، وقد كتب المؤرخون أن الحكام يرجعون من وقت إلى آخر ليذكروا الناس بمثل هذه القوانين ويعملون على تطبيقها وهذا يعنى أنها لم تكن تطبق بشكل دائم وحرفى وهذا -تمامًا- ما ينطبق على قوانين سيئة السمعة مثل : قانون العيب أيام السادات، وقانون التظاهر، وازدراء الأديان هذه الأيام.

ومن الأمور التى كانت تثير المجتمع المصرى ـ مسيحييه ومسلميه ـ في عصر سلاطين المماليك بوجه عام أن الوجود المسيحى الفعال في المجتمع كان يسمح لأثرياء المسيحيين بالتباهى بمظاهر العز والرفاهية أمام عيون غالبية الشعب الذين كانوا يعانون من الفقر الشديد والظلم الاجتماعى والاقتصادى وغياب العدالة الاجتماعية، وقد ربط الشعب الفقير معاناته مع تقلد المسيحيين وظائف عليا من ناحية وثرائهم من الناحية الأخرى، وكانوا يظنون أن بعض المسيحيين النافذين لدى الدولة- وهذا حقيقي- يستغلون مناصبهم للإضرار بعامة الناس لصالح السلطان وتكوين ثروات خاصة لأنفسهم، وإن كان هذا يحدث من مسلمين ومسيحيين إلا أنه عندما اكتشف السلطان محمد بن قلاوون أن- النشو-وكان جامعًا للضرائب بكل أنواعها أثقل كاهل الناس من جميع الطبقات والفئات لصالح السلطان ولصالحه هووأسرته صادر أملاكهم لكنه لم يعيد الثروات التي اكتسبها للناس كالعادة.

أما المجال الثقافي والعلمي[٣٨] وهوالمجال الذى تبدع فيه الأقليات دائمًا، فقد تأكد الوجود الاجتماعى المسيحى فيه، فقد اشتهر عدد كبير من المسيحيين بالتأليف ويلفت النظر أنهم كتبوا في كل المجالات تقريبًا وقد وصلتنا معظم هذه الكتابات، وكانت أعمالهم تدور -غالبًا- حول الموضوعات والاهتمامات ذات الطبيعة الدينية والكهنوتية أوتاريخ الكنيسة لكن هناك -أيضًا- من كتبوا في التاريخ والشعر نذكر منهم الصفى أبا الفضائل الأمجد بن العسال وإخوته (مؤتمن الدولة أبا إسحق، والأسعد أبا الفرج هبة الله) كذلك اشتهر ابن الدميرى الذى ألف كتابًا

في أصول اللغة القبطية، وكان من أشهر المؤرخين المسيحيين ابن العميد الذى كتب التاريخ المعروف باسمه، والذى يعد من أهم المصادر التاريخية في تاريخ مصر وأيضًا المؤرخ مفضل بن أبى الفضائل ليكون استمرارًا لتاريخ ابن العميد..... وغيرهم الكثير، ونتيجة لكل ذلك تحول كثير من المسيحيين إلى الإسلام في الفترة ما بين عام ١١٥٠م حتى نهاية عصر المماليك في القرن السادس عشر؛ حيث وصل عدد المسيحيين العرب إلى ٧٪ من سكان المنطقة.

الفصل الرابع

المسيحيون والخلافة العثمانية (١٥١٧م-١٨٠٥م)

الفصل الرابع
المسيحيون والخلافة العثمانية
(١٥١٧م-١٨٠٥م)

كان لهزيمة المماليك[٣٩] على يد العثمانيين عام ١٥١٧م أثره الواضح على الوضع السياسى والاجتماعى في كل المصريين، إذ صاروا جميعًا تحت حكم غريب من الأستانة وهكذا تغيرت الأحوال ثانية؛ حيث أصبحت مصر خاضعة للإمبراطورية العثمانية تحت حكم السلطان سليم الأول الذى بعث إلى إسطنبول آلاف عدة من أمهر المصريين بينهم عدد كبير من الأقباط في كل المهن والحرف، وهذه كانت عادة الإمبراطوريات القديمة عندما تجتاح البلاد فتختار أفضل ما فيها من علماء وحرفيين ومفكرين وترسلهم إلى العاصمة للاستفادة بعقولهم في بناء الدولة الغازية، هكذا فعل البابليون والآشوريون والفرس وهكذا تفعل الولايات المتحدة الأمريكية في هذه الأيام ليس قسرًا لكن بإغراءات مادية عالية فهى تبحث عن الطلاب الذين

تبدو في ملامحهم العبقرية المبكرة وتغريهم بالمال والجنسية الأمريكية والعمل وهي تقوم بذلك بطريقة منظمة في مصر ولبنان وباكستان والهند وجنوب شرق آسيا من خلال الجامعات الأمريكية المنتشرة بكثرة في هذه البلاد وذلك لسببين إفراغ هذه الدول من النابهين، وتعضيد حضارتها بأذكياء العالم.

وكانت أحوال المصريين تحت الحكم العثماني(٤٠) مرتبطة بأنها ولاية تابعة تدار من على البعد من السلطة المركزية؛ أي ليست دولة مستقلة كما كانت من قبل، ومن هنا كان من الضرورى التفرقة بين دور الإدارة المركزية في إسطنبول والإدارة المحلية في القاهرة وامتداداتها الإدارية المنتشرة في طول البلاد وعرضها من هنا ندرك أن الدور الرئيس تلعبه الإدارة المحلية في القاهرة سواء بحكم السلطات الممنوحة لها من الإدارة المركزية في إسطنبول أوبحكم قربها من موقع الأحداث أوإلى نظرية الدولة الإمبراطورية التي تضم شعوبًا متعددة، وهنا تختلف دولة عن أخرى فمصر -مثلًا- كان نفوذ المماليك والقوى المحلية ومحاولات الخروج أحيانًا على الدولة العثمانية أمرًا بديهيًّا، لذلك كان الأقباط أقرب إلى السلطات المحلية من المركز في إسطنبول وقد كان الأقباط مطمئنين في ظل حاكم قوى مثل على بك الكبير لكن حكامًا آخرين طالبوا بمزيد من الأموال بإصدار قوانين ضرائبية جديدة خلقت معاناة لكل شعب مصر،وقد برز من الأقباط شخصيات لعبوا دورًا مهمًا في الحياة العامة قبل ظهور مصر الحديثة مثل المعلم رزق الذى كان رئيسًا للكتبة الأقباط تحت حكم على بك الكبيروخلفه بعد وفاته المعلم إبراهيم الجوهرى، في تلك الأثناء تحولت الجزية إلى ما هوأقرب إلى(ضريبة دفاع) منها إلى أنها جزاء كفرهم، يدعم هذا الرأي الإعفاءات التي تتمتع بها النساء والأطفال والرهبان

ومرضى الجزام وأحيانًا الشيوخ وهي العناصر التي لا يمكنها الاشتراك في القتال ومن الواضح هنا أنه بدأت تقدم تفسيرات جديدة لنظم قديمة (الجزية وأهل الذمة) وكذلك تم رفع الحوافز المالية التي كانت تدفع الأقباط للتحول للإسلام نتيجة التطور الإنسانى العام وقد كان ذلك تمهيدًا للتطور القادم في الطريق بالانفتاح على العالم الجديد في أوروبا.

وقد تم[٤١] إلزام البطريرك القبطى بجمع الجزية من الأقباط وذلك للحيلولة دون تعسف من المحصلين وضمان وصول المال كاملًا إلى خزانة الدولة.

وأيضا تم التغاضى عن إلزام النصارى بالأزياء التي كانت مفروضة عليهم(الزناروالزنط والألوان) ولم نسمع طيلة العصر العثمانى عن إلزام النصارى بزيهم الأصلى إلا في الأيام العصيبة التي مرت بها مصر أيام حملة حسن باشا لردع المماليك المتمردين.

وقد كانت هنالك قيود أخرى مثل : ركوب الدواب، ودخول الحمامات العامة، أوامتلاك الجوارى، لكن ثبت أن المصادر القبطية تغالى كثيرًا في هذا الأمر والمصادر الأخرى تقلل من شأنها، لكن مصادر القناصل الأجانب العائشين في مصر(إنجلترا وفرنسا) تحدثوا على أنها أمور هامشية وليست دائمة وكان هنالك أقباط يمتلكون جوارى عدة بما معناه أن القصة ترتبط بالمستوى الاجتماعى للفرد فمن يمتلك الكثير من مسلم أومسيحى يستطيع أن يتجاوز القوانين المفروضة بسهولة والذى يمتلك القليل من السهل تخويفه وإخضاعه، وهي عادة مصرية قديمة جديدة يمكن رصدها في المجتمع المصرى حتى اليوم في ملابس النساء التي توضح الطبقة الاجتماعية للمرأة وتختلف هذه الملابس من الأحياء الراقية إلى

الأحياء الشعبية إلى الصعيد.. وهكذا رغم ارتباط الثياب بالتدين سواء للمسيحيات أوالمسلمات.

ومن أهم التغيرات التي أدخلها العثمانيون إلى مصر نظام الْمِلَل والنِّحل[٤٢]، ولقد ظهر هذا النظام(الملة) لدمج أتباع كل طائفة معًا وطبقًا لهذا النظام سمح لكل طائفة أن تعيش وفق عاداتها وتقاليدها وقوانينها الخاصة، على أن تعيش كل ملة بعيدة عن الْمِلَل الأخرى، ولم يكن هناك تعاملات مالية بين الملل المختلفة، ولا تزاوج بينهم، وبحسب مفهوم العثمانيين للحكم فكل أعضاء أي ديانة هم أهل ملة واحدة، ولكل ملة رأس أورئيس وكان رأس كل المسلمين هو(السلطان) العثمانى وهكذا كان بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية رأسًا لكل المسيحيين ولقد أضعف هذا النظام مكان بطاركة الكنائس الأخرى خاصة الشرقية ومصر والذى كان أقوى أيام حكم العباسيين وإن كان قد حصل بعضهم على درجة من الاستقلالية بالقدر الذى سمح به القانون العثماني ولقد كان فصل أتباع الْمِلَل[٤٣]سببًا رئيسًا في زيادة عدد المسيحيين العرب في الهلال الخصيب في القرن السادس عشروالقرن التاسع عشر، حيث وصلت نسبتهم إلى ٢٠٪ من إجمالي عدد السكان وبدون شك فقد ساعدت القوانين المانعة للزواج المختلط وإلغاءالحوافز المالية المؤدية للتحول إلى الإسلام في هذه الزيادة، وقد تميزت التجمعات المسيحيّة في المدن الساحلية (بسبب الهروب من المغول) بمجموعة من المميزات عن غيرها من التجمعات الإسلاميّة، حيث صار المسيحيون أكثر انفتاحًا على أوروبا من ناحية التجارة والحياة الاجتماعية وسبب آخر في ارتفاع نسبة المسيحيين هوحرصهم على وجود نظام صحى أفضل على عكس النظام الذى اتبعه المسلمون، فقد كان المسيحيون يقومون بعزل عائلاتهم عن بعضهم البعض وقت الأوبئة. كذلك تميز المسيحيون في مجال التعليم وصاروا قادة في هذا المجال، كل هذا

أدى إلى زيادة عددهم في ظل الخلافة العثمانية، ولكن تمثلت المشكلة في أن نموهم وازدهارهم تحول إلى هجرات جماعية إلى أماكن أكثر استقرارًا من مجتمعات القلاقل والاضطرابات سواء أكانت المناطق مسيحية أم غير ذلك هذا بالإضافة إلى الوضع الاقتصادى المتمدن، وتغيرالوضع منذ منتصف القرن التاسع عشر،إذ هاجر المسيحيون اللبنانيون مع بعض المسلمين إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل، واستمرت هذه الهجرة حتى القرن العشرين وتوجد الآن تجمعات مهمة من المسيحيين العرب في مدن أمريكا وأستراليا وأوروبا وكندا وكذلك انتقلت معهم بالتوازي بطريركات قديمة وأسقفيات يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام كذلك حدث انفتاح على الغرب فى مصر من خلال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ م -١٨٠١م) والذى سوف نأتى إليه بالتفصيل في الفصول التالية.

أما الآن فسوف نتحدث عما قام به المسيحيون المصريون من بناء للحضارة العربية الإسلاميَّة في ظل الخلافة العثمانية وهويتلخص في ثلاثة أمور مهمة : (٤٤)

١ - الإدارة المالية.

٢ - النشاط الاقتصادي.

٣ -دور الكنيسة المصرية.

أولًا : المسيحيون ودورهم في الإدارة المالية للدولة المصرية أثناء الخلافة العثمانية :

يرجع تميز المسيحيين في الإدارة المالية إلى اللحظات الأولى للفتح الإسلامي لمصروحاجة الحكام المسلمين الجُدُد إلى تصريف شئون البلاد بعد رحيل البيزنطيين، فالمسيحيون الوطنيون هم أدرى العناصر الوطنية

بشئون البلاد في الوقت الذى لم يكن لدى المسلمين الخبرة الكافية لإدارة شئون البلاد ومنذ ذلك الوقت حرص المسيحيون المصريون على التميز في هذا المجال بل واحتكاره، ولقد وجد الأقباط في احتكارهم لهذا الفرع المهم تعويضًا لهم عن عدم توليهم مناصب عليا في إدارة البلاد مع أن المسلمين يشاركون الأقباط في عدم وصولهم للمناصب العليا، لأنها كانت حكرًا على أرباب السيف(الجيش).(٤٥) وكان المسيحيون يقومون بإدارة الأموال برصد الأرقام وتقسيم البلاد لجباية الضرائب باللغة القبطية.

وكان من الصعب على المسلمين تعلمها فتركوا الأمر لهم تمامًا وعندما تقرر تعريب الدواوين على مستوى الخلافة الأموية كما ذكرنا من قبل كان المسيحيون الذين يقومون بالإدارة المالية قد تعلموا العربية وأتقنوها قبل تعميمها فلم يحتاجوا لأحد من المسلمين ليعلمها لهم كما تكاسل المسلمون في أن ينخرطوا في الإدارة المالية وتعقيداتها،وكان المسيحيون يعلمون أولادهم ويوظفونهم في الإدارة المالية وبالطبع أعطت الإدارة المالية للمسيحيين العاملين بها نوعًا من الثراء وكذلك السطوة وقد أثار ذلك حفيظة المسلمين في مصر وحاولوا أخذها منهم بالشكوى سواء للحكام المحليين أوالخلافة لكن الواقع أثبت أنه لا بديل لهم؛ حيث يحملون أسرار العمل ويورثونها لجيل بعد جيل وأحس الخلفاء والحكام أنه لومنع المسيحيون من الإدارة المالية ستحدث كارثة مالية في البلاد، وهكذا لم تثمر سياسات منع الأقباط من تولى الإدارة المالية عبر تاريخ مصر الإسلاميّة ولم تؤد إلى تنحية المسيحيين عن لعب دورهم التاريخى في الإدارة المالية ولقد استمر هذا الأمر في مصر الحديثة حتى قبل ثورة

٢٣ يوليو١٩٥٢م؛ حيث كانت البنوك والبوستة والإدارات المالية حكرًا على المسيحيين وكان هذا أحد عوامل انتعاش الاقتصاد المصرى على مدى التاريخ ومن أهم الوظائف التي شغلها المسيحيون وظيفة(المباشر) سواء في الإدارات الحكومية مثل ديوان الروزنامة المختص بمالية البلاد "وزارة المالية الآن" أولدى الأمراء والمتنفذين(أصحاب الثروات) وحتى لدى المعمارباش (وزارة الإسكان) اشتغل المسيحيون -أيضًا- بوظائف المباشر في الشئون السلطانية وأيضًا بدار ضرب (صك العملة) حتى في إدارة الجمارك والعجيب أنه حتى ديوان الحسبة والمحتسب الذى تنبع وظيفته من مفهوم وفقه إسلامى كان هناك (برسوم النصرانى) مباشر الحسبة.

ونجد المعلم جرجس بن شنودة بن إيليا المباشر بخدمة دولارأغا ناظر الدشيشة(أوقاف الغلال المخصصة...) بل نراهم في إدارة الشئون المالية للأوقاف الإسلاميَّة، لكن هذا لا يمنع من وجود أسماء من غير المسيحيين المصريين من وقت إلى آخر ففي وثائق المحكمة الشرعية نجد المعلم موسى بن عامر بن موسى النصرانى الملكى عين ضمن مباشرى النصارى بالديوان العالى أي أنه مسيحى من أصول غير مصرية. وأيضًا اشترك اليهود مع المسيحيين في إدارة الجمارك وأيضًا اشترك المسلمون معهم في بعض الإدارات الحكومية، فهناك وثائق تذكر اسم (الشيخ عبد الخالق مباشر الأنبار).

لقد كان دور الأقباط[٤٦] يعطى بعدًا سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا ويعضد مفهوم قدرة الحضارة العربية الإسلاميَّة على احتواء مواطنيها من غير المسلمين للعمل على بنائها وثرائها ويصف الجبرتى (المعلم

واصـف القبطى) بأنه "أحد الكتاب المباشرين المشـهورين ويعرف الإيراد والمصاريف وعنده نسـخ من دفاتر الروزنامـة ويحفظ الكليات والجزئيات ولا يخفى عن ذهنه شـيئًا من ذلـك" وعند نهاية القرن الثامن عشر يذكر أن "المعلم إبراهيم جوهرى رئيس الكتبة الأقباط بمصر كان هوالمشـار إليه في الكليـات والجزئيات والروزنامة والميرى وجميـع الإيراد والمنصرف وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده".

وفي الإدارة المركزية للدولة كانت دفاتر ترابيح الحملة الفرنسية، والتي وضعها علماء الحملة عام ١٨٠٠ م قد تم إعدادها بالأساس استنادًا إلى دفاتر المعلمين الأقباط(المسيحيين) الصيارفة والمباشرين ولقد كان بعض كبار المباشرين الأقباط يستخدمون أختام خاصة بهم فالأخوان الشهيران إبراهيم، وجرجس جوهرى كانا لهما أختام تختم بها الأوراق الصادرة منهما وعلامة خاتم المعلم إبراهيم جوهرى(يا قاضى الحاجات وكافى المهمات.. إبراهيم جوهرى)، وخاتم جرجس جوهرى لا يقرأ منه سوى (عبده جرجس جوهرى). ولا شك أن الإدارة المالية تؤدى إلى الفساد الشخصي وقد تحدث بعض الناس عن فساد بعض من المباشرين الأقباط ومبالغتهم في فرض الضرائب على الفلاحين المسلمين لكن لا توجد قضية رسمية بهذا الخصوص أدانت الصيارفة، بل كانت مثل هذه القضايا تنتهى بالصلح بين الصراف والفلاح لعدم القدرة على إثبات مساحة الأرض بالضبط وقيمة الضريبة عليها بالتدقيق إلا أن بعض الصيارفة كانوا يستخدمون الأموال التي معهم من الجباية في قروض صغيرة للفلاحين بفائدة أوفي

تجارة رابحة.ويذكر أيضًا أن بعض الملتزمين يولى النصرانى الصراف أمر القرية فيحكم فيهم بالضرب والحبس وغير ذلك، فلا يأتيه الفلاح إلا وهويرتعد من شدة الخوف.

ولعلنا نلاحظ هنا أننا عندما نأتى إلى المال والثروة بجانب السطوة والقوة يختفى الدين والقانون وحديث الأكثرية والأقلية فالبشر يستخدمون ما يريدون استخدامه من حديث الدين والتدين أوالقانون والأعراف أوحديث الأقلية والأكثرية في الوقت الذى يرونه نافعًا لهم بأنانية شديدة ويتخلون عنه تمامًا عندما يحسبون أن ذكره سيكون ضارًا بهم وهوما نراه بوضوح في مجتمعنا حتى اليوم وربما بصورة أكثر وضوحًا وانتهازية.

ولأن المباشرين من صفوة الأقباط لذلك كانوا يتمتعون بوعى ثقافى واضح ولقد وجدت في منازل بعضهم كتبًا دينية مسيحية وقام البعض منهم بنسخ مخطوطات قديمة فمثلًا نجد المعلم حنا غطاس مباشر يقوم بنسخ مخطوطة تتضمن مجالات عدة فهى تحتوى على رسالة أحد الباباوات وبعض المعلومات الجغرافية والفلكية والتنجيم، كما قام بعض المباشرين بتمويل عمليات ترجمة الكتب الدينية من اليونانية إلى العربية مثل المعلم جرجس جوهري الذى أنفق في مقابل ترجمة كل كراسة من المخطوط دنانير ذهبية.

وكان للمعلم رزق المباشر اهتمامات بعلم الفلك ويذكر الجبرتى أن المعلم واصف المباشر القبطى له معرفة باللغة التركية وهي حالة نادرة

وتدل على ذكاء بعضهم؛ لأن معرفة اللغة التركية تفتح له أبوابًا واسعة من النشاط والاحتكاك بأعالى القوم.

ثانيًا: النشاط الاقتصادى

عادة ما تلجأ الأقليات في البلاد التي تعيق حركتها إلى النشاط الاقتصادى وذلك؛ لأنهم لا يجدون لهم مكانًا في الوظائف الحكومية أوالعليا (الوزراء والسفراء... إلخ) وأيضًا لا يجدون مكانًا في الجيش الوطنى؛ حيث قيادات الجيوش الوطنية عادة من الأكثرية لذلك لا يسمح بالترقية للأقليات إلا إلى حد معين، والذى ينفذ منهم إلى القيادات العليا يكون شخصية استثنائية، من هنا جاء اللجوء إلى المجال الاقتصادى؛ لأنه المجال الوحيد الذى فيه يستطيع الإنسان أن يحقق ما يشاء بناء على ذكائه وجهده. وعلى طول التاريخ المصرى كان هناك الأثرياء من المسيحيين في كل جيل، وكانٍ منهم من يستخدم ثراءه في النشاط السياسى لكن معظمهم كانوا ومازالوا يكتفون بالوجاهة كأشخاص من علية القوم وقدرتهم على النفاذ لكل مفاصل الدولة من خلال أموالهم وإن كنا نرى ذلك اليوم فهوصورة مكررة مما حدث في العصر العثمانى[٤٧] فقد شارك الأقباط في النشاط الاقتصادى السياسى حينئذ وهوالزراعة، فالقرى المصرية عامرة بالفلاحين- أقباطًا ومسلمين- ومن الملاحظ أن من يضبط مواسم الزرع والقلع التقويم القبطى لدورة فيضان النيل والزراعة ومن تقاليد الريف المصرى أن يوزعوا أولادهم بين التعليم والزراعة ولا يوجد في النشاط الزراعى أغلبية وأقلية، فالقبطى يستأجر الأرض من المسلم أويعمل عنده والعكس صحيح وقد امتد نشاط المصريين المسيحيين إلى حدائق الفواكه

والنخيل وفي هذا الأمر أثبتت الوثائق أن المصلحة الاقتصادية مقدمة على النعرات الطائفية، فهناك وثيقة لاستئجار مسلم إحدى الحدائق بحارة النصارى بمصر القديمة والحديقة من وقف كنيسة قبطية أرثوذكسية واستأجر مسيحي قطعة من حديقة مملوكة لمسلم... إلخ.

أما في التجارة فقد تميز المسيحيون في تجارة المعادن النفيسة(المجوهرات) ومعادن الذهب والفضة... إلخ أما الحرفة التالية فكانت أعمال الخياطة وقد انتشر الخياطون المسيحيون عبر أحياء القاهرة المختلفة بشكل ملحوظ. يذكر أحد الرحالة الأجانب أن الأمراء البكاوات كانوا يحتاجون لخياط تركى لهم ولأتباعهم لكنهم لم يجدوا ووجدواخياطين مسيحيين يعملان لدى بعض الأمراء وهذا يبرز دور الأقباط.

وفي حجة تركة المعلم ميخائيل الخياط القبطى بوكالة التفاح بخط الركن المعلق بالقاهرة فإننا نجد نماذج مهمة للحرية الاقتصادية في المعاملات بين مختلف أتباع الديانات والطوائف والأعراق في أواخر القرن الثامن عشر، وهذا ما يميز النشاط الاقتصادي عن أي نشاط آخر خاصة أن أواخر القرن الثامن عشر كانت فترة قلاقل سياسية وأمنية، لقد مات المعلم ميخائيل الخياط وله باقي أجر خياطة في ذمة عملائه المسلمين وبعض منهم من السادة الأشراف، بل ويتضح أن عليه ديونًا لصالح مسلمين ومسيحيين، بعضهم عقادون (تجار أوصناع خيوط) لارتباطهم بمهنته مثل الأسطى حسين ويوسف العقاد وعليه أيضًا دين لصالح ديمترى الدخاخنى(تاجر دخان)وهو- غالبًا-يونانى ودين لصالح جرجس الحمصى وهومسيحى من الشام ودين لصالح بعض الأشراف المسلمين، وكذلك تذكر الحجة

أن له تعاملات مالية للخياطة مع شخص يهودى يدعى إسحق.. وبمجرد قراءة هذه الحجة تكتشف التفاعل والحيوية والمصلحة في الحياة الاقتصادية؛ حيث لا أهمية هنا لدين أوطائفة أوعرق فالأهمية فقط في المال وحساب المكسب والخسارة وهكذا دائمًا.

ومن المهن التي برع فيها المسيحيون المصريون بجوار المسلمين مهنة التجارة وكذلك أعمال العمارة والهندسة وأعمال النسيج خاصة في الصعيد نسيج الحرير والصباغة وأيضًا اشتهر الأقباط بتجارة العطارة، وكان لكل طائفة من هذه الطوائف تنظيم يرأسه شيخ هذه الطائفة ولها نقيب وتوضح الوثائق -مثلًا- أن طائفة الصاغة بالقاهرة كان شيخها ونقيبها من المسلمين وفي وثيقة أخرى يتضح أن شيخ الطائفة مسيحى، وقد قام المسيحيون بتكوين طائفة للصياغ خاصة بهم في سوق الصاغة الرئيس وعملها فقط توزيع الميراث للمتوفى منهم وكان اختيار شيخ الطائفة لا يتم على أساس دينه لكن على أساس خبرته وسنه ولم تكن هناك أي حساسية دينية في التعامل في طوائف أغلبيتها من المسلمين أوالعكس، لأن العمل هوالعمل أوكما نقول اليوم Business is business ولأن الموضوع عرض وطلب وأموال وتجارة وإتقان وحرفية.

وأتذكر في طفولتى وصباى في الستينيات أنه كان في احتفال المولد النبوي في بلدتنا ملوى يتم عرض مثير يبدأ براكبى الأحصنة(فوارس)، ثم براكبى الحمير، ثم يأتي من بعدهم الحرفيون والخطاطون والحدادون والصاغة والنجارون... إلخ كل طائفة على عربة ضخمة يجرها حصان ويمثلون الحرفة، فالحداد فوق العربة يضرب الحديد المحمى بالناروالنجار

يستكمل عمل باب أوشباك والصائغ يضع الذهب في النار ويعيد تشكيله... وهكذا وكنا نقف على جانبي الطريق نصفق لأصحاب الحرف وهم يحيوننا ويحيون الرجال والنساءالذين يتابعونهم من الشرفات والشبابيك ويلقون عليهم البونبون والشيكولاتة والملح. لكى لا يحسدهم أحد، وفي نهاية العرض تمر الجمال التي تحمل المحمل النبوى والطرق الصوفية (الطريقة الشاذلية بعدها الطريقة البيومية... إلخ) وأصحاب الحرف الذين كانوا يحتفلون كانوا من المسيحيين والمسلمين دون تفرقة وأيضًا الجمهور الذى يحييهم ويشجعهم، وكصبيان كنا وأصدقائنا المسلمين نخرج معًا لنحتفل بالمولد النبوى الشريف كما نحتفل بميلاد السيد المسيح أومولد السيدة العذراء مريم.

ثالثًا: دور الكنيسة المصرية الأرثوذكسية

يمتد تاريخ الكنيسة المصرية الأرثوذكسية[٤٨] إلى القرن الأول الميلادى فهى كنيسة لها تراثها العميق، ومنذ بدأت وهي تتبنى النظام الهرمى في الإدارة فعند قمة الهرم البابا أوالبطريرك وهوخليفة المسيح ومرقس الرسول يليه الأساقفة ثم الكهنة(قمامصة وقساوسة) منهم من تزوج وأنجب ومنهم المتبتل أوالراهب وأخيرًا الرهبان الذين يقطنون الأديرة ولا يخرجون منها حتى الموت وقد كان الباباوات الأوائل يختارون من العلمانيين منهم المتزوج وغير المتزوج فمن البابا الأول بعد مرقص الرسول ويدعى إنيانوس (٦٨م-٨٣م)حتى التاسع كالاوتيانوس (١٥٢م-١٦٦م)كانوا جميعًا من العلمانيين ثم من الثاني عشرديمتريوس الأول (١٨٨م-٢٣٠م) حتى الرابع عشر ديونسيوس (٢٤٦م-٢٦٤م)

وسابقه من مديري مدرسة الإسكندرية من العلمانيين، ثم اشيلاوس (٣١١م-٣١٢م) من مديري مدرسة الإسكندرية، ثم جاء البابا رقم ٥٨ قسما الثالث (٩٢٠م-٩٣٠م) من العلمانيين، ثم جاء اثنان متتابعان من العلمانيين رقمي ٧٣، ٧٤ البابا مرقس الثالث (١١٦٦م-١١٨٩م) والبابا يؤانس السادس (١١٨٩م-١٢١٦م) وهكذا كان آخر بابا يختار من العلمانيين في القرن الثالث عشر؛ حيث أطبقت المؤسسة الرهبانية على مقدرات الكنيسة حتى اليوم ولم يعد مكانًا لعلماني بين الباباوات أوالأساقفة.

وفي هذا المجال سوف نتحدث عن أربعة أمور : علاقة الكنيسة الأرثوذكسية بالخارج، والدور الاجتماعى للكنيسة داخليًّا، ثم علاقة الكنيسة بالدولة، وأخيرًا الانشقاقات داخل الكنيسة.

١- علاقة الكنيسة الأرثوذكسية بالخارج[٤٩]

كان من أخطر القرارات الكنسية في العصر العثمانى مسألة الاتحاد بين الكنيسة الأرثوذكسية المصرية والكنيسة الكاثوليكية بروما فقد أرسل بابا روما وفدًا لإقناع البابا الأرثوذكسى بقبول الاتحاد بين الكنيستين واقتنع البابا رقم ٩٦ يؤانس الرابع عشر (١٥٧١م-١٥٨٦م) بصفة مبدئية بالقبول ودعا لانعقاد المجمع المقدس، وقد انعقد المجمع المقدس فى مصر القديمة وانقسم الأساقفة بين مؤيد ومعارض لكن البابا كان يميل إلى الاتحاد وهكذا أصدر المجمع قرارًا بقبول الاتحاد، لكن هذا القرار لم ينفذ نتيجة اضطهاد الباشا للبابا؛ حيث أثار الفريق المعارض الباشا ضد القرار بادعاء أنه ضد المواطنة المصرية للكنيسة وأهمية الحفاظ على استقلال الكنيسة ولم

يكتفوا بذلك، بل دسوا له السم ليموت القرار مع البابا، وهكذا لم ينفذ القرار ولم يكتفوا بذلك، بل حرضوا الدولة لعزل البابا رقم ٩٨مرقس الخامس(١٦٠٣م-١٦١٩م) الذى مال نحوفكرة الاتحاد مع روما وبذلك اختفت تلك الفكرة بنزول البابا من على عرش البابوية.

من هذا الحدث نستطيع أن نكتشف دور الدولة في القرار الكنسى ولجوء بعض الأرثوذكس النافذين المعارضين إلى الدولة لتأخذ موقفًا ضد قرار أصدره البابا، ومن هنا نلاحظ أنه هنالك ثلاثة عناصر لهم أهمية في صنع القرار :البابا- الإكليروس(المجمع المقدس)- الشخصيات العلمانية الكبيرة. ولعلنا نلاحظ أن هذا الأمر مازال ساريًا حتى اليوم، وعادة عندما يفشل العلمانيون في تحقيق ما يريدون يلجأون إلى الدولة، والعلمانيون النافذون في ذلك الوقت كانوا المباشرين، ويمثلهم اليوم في المجتمع المصرى المعاصر رجال الأعمال الأقباط أصحاب الثروات الضخمة والذين لهم علاقة مباشرة بالكنيسة.

لكن كان نتيجة ما حدث أن تحول رجال الدين الأرثوذكس الذين كانوا يؤيدون قرار الوحدة مع كنيسة روما إلى الكاثوليكية وكان هذا التحول نتيجة مخطط مدروس من جانب الكاثوليك الذين كانوا يريدون الوحدة فتكون الكنيسة الأرثوذكسية المصرية تابعة لكرسى روما، ولقد أرادوا أن يحولوا الكهنة الأرثوذكس ليصيروا هم دعاة للكثلكة ومن الذين تحولوا الأنبا أثناسيوس أسقف بيت المقدس الأرثوذكسى في عام ١٧٤١م وأصدر بابا روما أوامره لتنصيبه (نائبًا رسوليًا) له في مصر وراعيًا عامًا على جميع الأقباط الكاثوليك إلا أنه ما لبث أن عاد إلى أرثوذكسيته عام ١٧٤٤م، ثم تحول الأنبا أنطونيوس فلايفل وكان أسقفًا لجرجا وانتمى إلى

الكثلكة وفي عام ١٧٦١ م أصدر بابا روما أوامره بتنصيبه (نائبًا رسوليًّا) له ولقد تصدت الكنيسة لهذا الأمر واستطاعت أن تحتفظ بوحدتها. ومن جهة أخرى قامت الكنيسة الأرثوذكسية المصرية برعاية السريان الأرثوذكس والوقوف في وجه محاولات تحويلهم إلى الكثلكة.

لقد كانت العلاقات بين روما والكنيسة الأرثوذكسيَّة من أهم العلاقات الخارجية تأثيرًا في الساحة المصرية على عكس طبيعة العلاقات بين الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريةً وكنيسة الحبشة الأرثوذكسيَّة، والتي لم تترك أثرًا يذكر على الساحة المصرية بينما تركت آثارًا عظيمة في أوضاع الحبشة فقد كانت الأرثوذكسيَّة المصرية من القوى المهمة إن لم تكن أقواها وأهمها في التأثير في الأحداث في الحبشة.

٢ - الدور الاجتماعي للكنيسة

في أثناء الخلافة العثمانية انتشرت أمراض اجتماعية عدة في صفوف المسيحيين المصريين مثل تسرى أثرياء الأقباط بالجوارى وتروى المصادر القبطية عن زيارة البابا يوحنا ٩٩ لمدينة أبنوب بالصعيد ونزوله ضيفًا على أحد أثريائها واكتشافه ممارسة هذا الثرى للتسرى فنهاه عن ذلك ووبخه ويبدوأن هذا الرجل أحسها إهانة شخصية له في وسط مجتمعه الصغير المغلق فقام بدس السم في طعام البابا مما أدى إلى مصرعه أثناء خروجه من المدينة كذلك أصدر الأنبا يوساب منشورًا ينهى المسيحيين المصريين من بعض المظاهر اللا أخلاقية التي تمارس أثناء أفراح الزواج وقد تعودوا عليها مثلما يحدث فى المجتمع بإحضار الراقصات لهذه الأفراح وانتقد بشدة لمس أجساد الراقصات وأيضًا كان هناك عادة أن يلبس رجل "زى

النساء الزوانى وترقصوه في وسطكم"على حد نص المنشور ولعلنا ندرك أن هذا يحدث حتى اليوم في الأفراح بِشكل عام في المجتمع ونراه في الأفلام وكذلك واجهت الكنيسة ألعاب الميسر(القمار) بين الأثرياء المسيحيين وأيضًا رفضت الكنيسة اللجوء للسحر والسحرة لإلحاق الأذى والضرر بالآخرين.

٣ - علاقة الكنيسة بالدولة(٥٠)

يذكر التاريخ أن الكنيسة في العصر العثمانى لم تبادر أحدًا بالعداء، وأيضًا كانت تدخلات الدولة في شئون الكنيسة تتم - غالبًا- لصالح أطراف مسيحية مصرية أخرى مثل ما حدث في أمر الاتحاد بكنيسة روما أما علاقة الكنيسة بالمسلمين على وجه العموم وعلى مستوى الأفراد فتذكر الوثائق أن الكنيسة استخدمت محامين عنها من المسلمين.

المعضلة تحدث عند عملية صناعة القرار في الكنيسة في فترات خلوالكرسى البابا وى عقب وفاة البابا وكانت هذه المدة يمكن أن تمتد لسنوات عدة حتى يتم اختيار بابا جديد، فقد ظل الكرسى البابا وى شاغرًا بعد وفاة البابا ١٠١ مرقس السادس (١٦٤٦م-١٦٥٦م) أربع سنوات، ومن المرجح أنه كان يقوم مقام البابا أقدم الأساقفة لحين انتخاب البابا الجديد وهوما حدث بعد وفاة البابا شنودة الثالث؛ حيث قام الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة مقام البابا حتى تم اختيار البابا تواضروس.

كذلك لا توجد معلومات تاريخية عن كيفية صناعة القرار في الفترات التي يختفى فيها البابا عن بطريركته لفترات طويلة فمثلا ترك البابا ١٠٠ متاوس الثالث (١٦٣١م-١٦٤٦م) مقره البابا وى وسافر إلى مسقط رأسه

ويقى هناك لمدة عام ورحل البابا ١٠٣ يؤانس السادس عشر(١٦٧٦م-١٧١٨م) إلى دير، واستمر به لفترة طويلة حتى ذهب إليه كبار الشخصيات المسيحيّة المصرية وطلبوا منه الحضور معهم إلى القاهرة،والسؤال الذي يلح علينا في مثل هذه الحالات هو، ماذا كان موقف الدولة أثناء هذه الأحداث ؟

أتصور أننا نستطيع الإجابة عن طريق القياس مع ما حدث من خلاف بين الرئيس السادات والبابا شنودة في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات عندما قام السادات بعزل البابا شنودة بسحب مصادقته على اختياره بابا، وقد استقبل الرئيس السادات الأب متى المسكين وعرض عليه القيام بأعمال البابا لكنه رفض لأن تقليد الكنيسة يمنع ذلك، وقام الرئيس بتكوين لجنة من خمسة أساقفة للقيام بأعمال البابا أثناء غيابه لكن الواقع يقول إن هؤلاء الخمسة لم يكن لهم وجود أونشاط حقيقي في هذا الشأن وربما الذين أشاروا للسادات بهذا التصرف من الأرثوذكس المصريين كانوا قد قرءوا في التاريخ أنه حدث في أيام البابا٩٨مرقص الخامس(١٦٠٣م-١٦١٩م) أن الباشا عزله وقام بتنصيب بابا مكانه وأمر بذلك ونفذت الكنيسة أمره، لكن لم يذكر التاريخ طبيعة القرارات التي اتخذها كل منهما وهل وقعت صدامات أوشيء من مثل ذلك ولقد حاول الدارسون أن يجدوا أي أثر تاريخى لذلك فشلوا.وحل هذه المعضلةيتضح بجلاء بما حدث أثناء حكم السادات فقد كان البابا الذي سحبت الدولة اعترافها به(البابا شنودة) يدير شئون الكنيسة من الديروكل الكنائس بدون استثناء يصلون باسمه ويتشفعون به كرئيس للكنيسة ولا تستطيع اللجنة الخماسية

أن تتخذ أي قرارات واللجنة لم تحاول ذلك من الأصل وكانت القرارات تصدر من البابا مباشرة للتنفيذ وسار الأمر كذلك حتى توسط لعودته لكرسي البابوية د. القس صموئيل حبيب رئيس الطائفة الإنجيلية حينئذ وطيب الذكر د. ميلاد حنا في عصر مبارك بعد مصرع السادات وقام البابا شنودة بالتوقيع على وثيقة عدم معارضة سياسة مبارك وعدم التدخل في السياسة كشرط للعودة واعتقد أن هذه القصة تفسر ما لم يستطع المؤرخون فهمه في أن البابا يدير شئون كنيسته من أي مكان كان سواء أكان في مسقط رأسه (متاوس ١٠٠) أم من ديره (يؤانس السادس عشر ١٠٣) أم عندما تعين الدولة بابا آخر محله وهذا يوضح فشل مشيروالسادات من الأقباط المقربين له لعل الحكام يعتبرون.

٤-الانشقاقات داخل الكنيسة

في القرن السابع عشر تعرضت الكنيسة إلى انشقاق خطير في عصر البابا ٩٨ مرقص الخامس (١٦٠٣م-١٦١٩م) وقد كان انشقاقًا فكريًا (لاهوتيًا وكتابيًا) وهوأيضًا له تأثير عملى على الأرض في الوقت نفسه، فلأول مرة في تاريخ الكنيسة يخرج أسقف على الإجماع المسيحى وهوأسقف دمياط حينئذ وصرح تصريحًا غريبًا أن المسيحيّة لا تحرم تعدد الزوجات، وقد كان هناك عدد من المسيحيين متعددي الزيجات ووجدوا لهم في تصريح الأسقف ظهيرًا فكريًا مقدسًا كنسيًا في مواجهة الموقف الرسمي للكنيسة لتحريم الزواج لأكثر من واحدة، وقد قام هذا الأسقف وكان واعظًا مفوهًا بإلقائه المواعظ أمام الجماهير التي توضح وجهة نظره باعتبار أن المسيحيّة بها نص في الإنجيل يحرم الطلاق لكن لا

يوجد نص إنجيلي مباشر يحرم التعدد بنفس الوضوح كما أن العهد القديم يبيح الطلاق والتعدد، وفي البداية حاولت الكنيسة معالجة الأمر بسياسة اللين لاحتوائه وإعادته إلى صوابه لكنه رفض فاضطر البابا إلى إصدار قرار بحرمانه وهذا يؤدى إلى قطعه تمامًا من الكنيسة الأرثوذكسية، لكن المسألة لم تقف عند هذا الحد بل ازداد الأمر حدة؛ لأنه كانت هناك مطالب شعبية بتعدد الزوجات وهو الأمر الذى تسمح به المسيحيّة من وجهة نظره حيث لا يوجد نص مباشر بذلك وطالبوا الدولة بعزل البابا الذى استجاب للشعب الأرثوذكسي وقام بعزل البابا مرقس ٩٨ ربما؛ لأن الدولة ترى أن تعدد الزوجات لا مشكلة فيه، إذ الإسلام يسمح بذلك وقام الشعب المطالب بتعدد الزوجات بتنصيب أحد الرهبان المؤيدين للتعدد بابًا جديدًا وهكذا للمرة الأولى في التاريخ تشهد الكنيسة الأرثوذكسية مثل هذا الانقسام العقائدى حول واحدة من أهم عقائد المسيحيّة الثابتة (شريعة الزوجة الواحدة)، ولقد كان انقسام الكنيسة حول هذا الأمر أصاب في مقتل هيبة وقدسية البابوية بوجود باباوين في الوقت ذاته هذا فضلا عن عزل الدولة للبابا والاعتراف بالآخر،إلا أن جموع الأرثوذكس كانت تؤيد البابا المعزول؛ لأنه البابا الرسمي ولم تقف خلف البابا الحكومى سوى بعض الشخصيات الأرثوذكسية الكبيرة ذات الصلة بإدارة الدولة وبعض رجال الدين وهوما حدث بالضبط في مشكلة السادات والبابا شنودة كما ذكرنا من قبل وبمرور الوقت وكالعادة فقد أولئك الأشخاص علاقاتهم المتينة بالدولة؛ لأن الدولة استشعرت أن الأغلبية العظمى من الشعب الأرثوذكسى ليس معهم وهكذا تبدلت الأحوال ووجد البابا الحكومى

ظهره في الحائط فترك الكرسى الباباوى وعاد إلى الدير ومع هدوء الحال عاد البابا مرقس ٩٨ إلى كرسى البابوية ثانية.

بعد أن انتهينا من دراسة المسيحيين والخلافة العثمانية نستطيع أن ندرك ونفهم جيدًا تعبير هنرى كيسنجر تعليقًا على هزيمة مصر عام ١٩٦٧م في مذكراته (بهزيمة ٥ يونيو١٩٦٧م انهارت الدولة المصرية تمامًا ولم يبق فيها سوى مؤسستين لم ينهارا الجيش والكنيسة الأرثوذكسية؛ لأن هاتين المؤسستين تتمتعان بنظام إدارى قوى مصمت يصعب اختراقه، لذلك استطاع الفريق محمود فوزى استعادة قوة الجيش في ست سنوات، وكان العبور الناجح ١٩٧٣م وهوما لم يحدث في تاريخ الجيوش المهزومة ووقفت الكنيسة الوطنية صامدة أمام كل التيارات ولم تهتز وخرجت سالمة).

الفصل الخامس

المسيحيون ومصر الحديثة

الفصل الخامس

المسيحيون ومصر الحديثة (١٥١٧م ـ ١٨٠٥م)

أولا: الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م- ١٨٠١م)

في عام ١٧٩٨م جاءت الحملة الفرنسية [٥١] إلى مصر فكانت نافذة مصرعلى العالم ونافذة العالم على مصر، ولذلك يعتبر القرن التاسع عشر الذى تواكبت معه الحملة الفرنسية مرحلة انتقال من أوضاع القرون الوسطى في الفكر والسياسة إلى انطلاقة دولة عصرية في مجال الإدارة الحديثة والزراعة والصناعة والتعليم بحيث يمكن اعتبارها الميلاد الحقيقي للقومية المصرية وظهور ملامح مجتمع مصرى حديث، ولقد تميز موقف المسيحيين المصريين من الحملة الفرنسية برد فعل متحفظ تجاه سياسة نابليون، فقد جاء مرددًا ادعاء أنه قدم لمساعدة المصريين ضد المماليك وتخليصهم من الظلم الواقع عليهم؛ لأنه يحترم الإسلام كدين وكحقيقة تاريخية. وبالطبع اتهم المسيحيون

> **الفرنسيين أنهم كانوا يريدون التخلص منهم بالكف عن الاعتماد عليهم في الإدارة المالية للبلاد وقد برر الأقباط موقفهم الرافض للحملة بأن نابليون قد جاء إلى مصر عام ١٧٩٨م غازيًا ومعلنًا نفسه حاميًا للإسلام ومدافعًا عنه بطريقة مستفزة لا تنطلي على أحد.**

لكن موقف الفرنسيين من المسيحيين المصريين تغير بعد ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين، والتي وضح اشتراك المسيحيين فيها بقوة كمحاولة منهم لكسبهم بجانبهم، وعندما طلب ثوار القاهرة الأمن والسلام وافق كليبر خليفة نابليون على طلبهم لكنه قرر فرض ضريبة إضافية على جميع السكان باستثناء الأقباط والسكان غير المسلمين، ولكي نرصد الموقف المصري المسيحي من الحملة الفرنسية سوف نركز على الشخصيات المسيحيّة المهمة وتأثيرها التاريخى أثناء الحملة الفرنسية وكان من أهمهم جرجس جوهرى وأنطون أبوطاقية ويعقوب حنا المعروف بالجنرال يعقوب وهؤلاء مع غيرهم من المسيحيين ومعظم المسلمين رأوا أن الحملة الفرنسية يمكن أن تخلص مصر من الحكم العثمانى الغاشم وتفتح مصر على أوروبا وأي حكم قادم سيكون أفضل من الموجود.

١-جرجس جوهرى (عميد الأقباط)

كان جرجس جوهرى[٥٢] رئيس المباشرين في عهد إبراهيم بك ومراد بك وأثناء الحملة الفرنسية على مصر حتى أوائل حكم محمد على ١٨٠٥م، وقد تقلد هذا المنصب بعد وفاة شقيقه إبراهيم جوهرى يقول الجبرتى-ولما مات أخوه في زمن الأمراء المصرية تعين مكانه في الرئاسة على

المباشرين والكتبة وبيده حل الأمور وربطها في جميع الأقاليم المصرية نافذ الكلمة وافر الحرية، وتقدم في أيام الفرنسيين فكان رئيس الرؤساء كذلك عند مجيء الوزير والعثمانيين قدموه وأجلسوه لما يسديه لهم حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف أفندى الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره يراعون جانبه يشاورونه وكان عظيم النفس.... وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم".

لقد عرف الفرنسيون مكانته فأبقاه بونابارت كبيرًا للمباشرين، وفي القاعة الشرقية لمتحف فرساى بفرنسا صورة للمعلم جرجس جوهري مع خمس صور ملونة لعظماء مصر في عهده وهم الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ السادات، والسيد البكرى، والشيخ سليمان الفيومى، والشيخ محمد المهدى الكبير ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار وفي وسطهم نابليون واضعًا إحدى قدميه على حجر من أحجار الأهرام مشيرًا إلى جنده.

٢-أنطوان أبوطاقية

كان رجلًا ذا ثراءعظيم عند مجيء الحملة الفرنسية، عينه الفرنسيون حاكمًا لإقليم الشرقية فمحاسبًا للحكومة وقد لقب بـ "أبى طاقية"؛ لأن بونابارت عندما احتاج للمال لسداد نفقات جيشه بعد قطع الاتصال بينه وبين فرنسا زاره في منزله في حارة السقايين فخلع أنطوان طاقيته وأخذ يكيل بها الذهب لبونابارت حتى استوفى حاجته وقد طالب حفيده الحكومة الفرنسية برد المبلغ الذى أقرضه جده أنطون لبونابارت؛ حيث كتب صكًا عليه بمبلغ مليون وثلثمائة ألف فرنك فسافر حفيده إبراهيم

عوض أبوطاقية إلى باريس في مارس ١٨٥٣م وقدم مستندات وقابل نابليون الثالث، وكان القرار عام ١٨٥٥م باعتماد المديونية إلا أنهم لم يوافقوا على سداده لمخالفة ذلك للقوانين العامة بمضى زمان استحقاقه واعتبرتها الحكومة الفرنسية ضريبة فرضت على الأقباط وأخذت من أنطوان أبوطاقية وأمر الحكومة الفرنسية أن تدفع نفقات الحفيد والمحامى الذى استأجره لذلك وقد قدروها بأربعة آلاف وخمسمائة ليرة فرنسية يستلمونها من وزارة الخارجية الفرنسية مع فرمان الرعوية لكم ولذريتكم من بعدكم توقيع "نابليون الثالث".

٣-يعقوب حنا المعروف بالجنرال يعقوب

وقد أثار هذا الرجل[٥٣] الكثير من الأقاويل عن موقفه الوطنى وهل انحاز للفرنسيين على حساب مصر كما انحاز للمماليك ضد العثمانيين. يقول د. مصطفى الفقى : "إن موضوع التعاون العسكرى بين الأقباط والغزاة الفرنسيين والمعروفة (بحركة الجنرال يعقوب) أوالفيلق القبطى ورفض معظم المسيحيين المصريين سياسة هذا الرجل لكن. يرى عدد من الباحثين المدققين والكتاب من الأقباط في حركة الجنرال يعقوب أسلوبًا وطنيًا من نوع خاص ويعتبرون إن محاولة يعقوب هي المحاولة المصرية الأولى من أجل تحقيق الاستقلال عن السيادة التركية "وقد غاب عن الدكتور الفقى أنه ليس فقط الكتاب الأقباط من دافعوا عن الجنرال يعقوب، بل هناك المؤرخ العظيم محمد شفيق غربال وكتابه" الجنرال يعقوب ومشروع استقلال مصر ١٩٣٢م"، والكاتب الكبير محمد فهمى عبد اللطيف.

ولقد كان المعلم يعقوب[٥٤] مدير مالية سليمان بك قبل مجىء الفرنسيين إلى مصر وجمع ثروة ضخمة وقد اكتسب باتصاله بالمماليك ميزتين الأولى

خبرة في الشئون المالية والإدارية والثانية براعة في الفروسية والطعن بالسيف، فقد عرف المماليك بأنهم أعظم فرسان العالم وقد حارب المعلم يعقوب بجوارمراد بك الأتراك وأبلى بلاءً حسنًا وشهد له بذلك وكان له نصيب من النصر الذى أحرزه مراد بك، بعدها انقلب على المماليك وحاربهم مع الفرنسيين وهزمهم في الصعيد؛ لأنه كان يرى أن أسوأ حكم سوف يكون أفضل من حكم الأتراك والمماليك.

ولقد أنصف هذا الرجل المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال حيث إنه كان أول من اكتشف وثائق مشروع يعقوب فكتب عنه في كتابه "الجنرال يعقوب والفارس لاساكرس ومشروع استقلال مصر ١٨٠١م" وفيه يقارن بين يعقوب وزعماء الكفاح الشعبى في تلك الفترة من أمثال السيد عمر مكرم، ثم وضع يعقوب في موضع كريم بينهم بسبب إحساسه العميق بقوميته المصرية وبعد نظره وتلمسه الوسائل العملية لتحقيق الاستقلال الوطنى وقد نشر كتابه عام ١٩٣٢م.

وأيضًا كان من ضمن الذين اهتموا بهذا الأمر[٥٥] الكاتب الكبير محمد فهمى عبد اللطيف، وكان أحد أعضاء اللجنة التي حققت كتاب الجبرتى "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" فكتب في عام ١٩٤٧م بجريدة "البلاغ" يصف يعقوب بأنه أول سياسي مصري فكر في جعل المسألة المصرية مسألة دولية على أن تستقل مصر استقلالًا تامًا عن الحكم العثمانى وأن تكون باستقلالها واسطة لكبح أطماع فرنسا وإنجلترا وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان على توطيد النفوذ في مصر وفي حوض البحر المتوسط وفي عام ١٩٦١م ينشر الكاتب الكبير لويس عوض كتابه

"تاريخ الفكر المصري الحديث" شارحًا موقف المعلم يعقوب وإذا بجلال كشك ومحمود شاكر ومحمد عمارة وأحمد الصاوي يعارضونه فيما ذهب إليه على رغم أن ما ذهب اليه لم يزد عما قاله محمد شفيق غربال ومحمد عبد اللطيف.يحكى لويس عوض عن نشأة الجنرال يعقوب الذى ولد في ملوى عام ١٧٤٥م، ثم التحاقه بخدمة المماليك(مراد بك) وتكوين ثروة ضخمة وحارب معه ضد الأتراك وعندما دخل الفرنسيون مصر حارب معهم ضد المماليك، وبعد مغادرة نابليون لمصرعاد المعلم يعقوب إلى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد وعينه قائدًا للفيلق القبطى الذى شكله في مصر ليعاونهم ضد المماليك والأتراك ثم عين مستشارًا لمسيوإستيف مديرالإيرادات العامة ورقاه القائد العام عبد الله مينوإلى رتبة جنرال وجعله مساعدًا للجنرال بليار في مارس ١٨٠١م للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيش التركي الإنجليزي ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي وعند تسليم القاهرة في يونيو١٨٠١م دخل الجنرال يعقوب في اتفاقية التسليم ورحل الجنرال يعقوب ومعه جماعة من فيلقه القبطي مع القوات الفرنسية عند جلائها من مصر، ولكن الجنرال يعقوب كان يحمل معه مشروعًا خطيرًا كان في نيته عرضه على الإنجليز والفرنسيين هو"استقلال مصر" وبعد أن ركب مع الجنرال بليار على ظهر الفرقاطة الإنجليزية (بالاس) والتى كان قبطانها الكابتن جوزيف إدموندز وأبحرت في ١٠ أغسطس متجهة إلى قبرص بعدها بيومين أصابت يعقوب الحمى ومات في ١٦ أغسطس، وكان الجنرال يعقوب قد أفضى بمشروعه إلى الكابتن جوزيف إدموندز في

أول يومين من الرحلة قبل خروج "البالاس"من ميناء "أبوقير" وقد كتب الكابتن إدموندز إلى اللورد "سانت فنسنت" وزير البحرية الإنجليزية برسالة ينبه فيها بما كان من حديث بينه وبين الجنرال يعقوب وكان يقوم بالترجمة بينهما رجل يدعى لاسكارسوكان موضوع الحديث يدور حول مستقبل مصر وقد ذكر إدموندز أنه التقى بزعيم من زعماء الأقباط يدعى يعقوب ذا مكانة عالية ونفوذ كبير بمصر وأفضى إليه يعقوب أن أي حكم في مصر في نظره خير من الحكم التركى وأنه ما انضم إلى الفرنسيين إلا بدافع الوطنية لتخفيف آلام إخوته المصريين وأنه يقصد فرنسا لإقناع حكومات أوروبا للاعتراف باستقلال مصروأنه يعرف أن فرنسا ليست الدولة العظمى الوحيدة في أوروبا، ولذا فإن الاعتراف باستقلال مصر إن لم تشارك فيه بريطانيا سيدة البحار فهومقضٍ عليه بالفشل ورجا يعقوب إدموندز أن يحمل آراءه هذه إلى القائد العام الأميرال اللورد كيث لحملها بدوره إلى مجلس الوزراء البريطاني لكن المنية عاجلته فحالت دون كتابة مشروعه إلا أن لاسكاريس الذى كان يترجم وضع مذكرة تشتمل على أهم نقاط هذا الحديث وقد وصلتنا هذه المذكرة المحفوظة في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية بلندن تحت رقم F.078 , vol. 39 مع مقدمة لجورج دريان.

ويلخص لويس عوض[٥٦] مشروع الجنرال يعقوب على النحوالتالي: "محور نظرية الجنرال يعقوب التي يبسطها أمام الإنجليزهوأن استقلال مصر في مصلحة إنجلترا أكثر من أي بلد آخر فإنجلترا سيدة البحار وهي تستطيع أن تمنع بأساطيلها فرنسا من الاستئثار بمصر، ولكن إذا حاولت إنجلترا نفسها غزومصر فإنها ستصدم بأكبر قوة عسكرية في أوروبا وهي

فرنسا، فمصر المستقلة -إذن- هي الحل الوحيد الذى يوفق بين مصالح إنجلترا ومصالح فرنسا مع مزايا مضافة للإنجليز وهي أن تجارتها البحرية سوف تنتفع من زراعة مصر التي لا يمكن أن تزدهر إلا في جو يسوده السلام كما أنها تنتفع من منتجات إفريقيا التي تعد مصر بابها الطبيعى".أما نظام الحكم الذى يقترحه الجنرال يعقوب لمصر المستقلة فهوقيام حكومة وطنية يكون هدفها الأول تحسين حال الفلاح.... إلخ.

من الذين كان لهم نفس التحليل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الباحث المدقق والمؤرخ محمد صبرى في كتاب " تاريخ مصر الحديثة " دار الكتب ١٩٢٦م وكذلك أحمد ذكى بدوى في كتابه تاريخ مصر الاجتماعي.

ثانيًا : محمد على مؤسس مصر الحديثة [٥٧] (١٨٠٥م-١٨٤٨م)

كان محمد على - بلا شك- يسعى إلى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية ولذلك اهتم كثيرًا ببناء الشخصية المصرية وأراد أن يغرس فكرة "الفخرأن يكون الإنسان مصريًا" وشجع إرهاصات القومية المصرية التي بدأت تتردد بقوة أثناء وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر هذه الإرهاصات كانت في الواقع ميلاد الدولة العلمانية في مصر الحديثة، ذلك لأن هوية الدولة محايدة فلا يوجد ما يسمى بالدولة الدينية، فالدولة لا تمارس طقوسًا لكنها تضم بشرًا يختلفون في الدين والطائفة والتوجه الثقافي لكنهم يجتمعون على مصريتهم بلا فارق بين أحدهم والآخر ولقد ساعد محمد على في محاولته لتحقيق مثل هذه الدولة أن الحملة الفرنسية كانت بالنسبة إلى مصر مرحلة انتقال من أوضاع القرون الوسطى في الفكر والسياسة إلى بداية دولة عصرية في مجال الزراعة والصناعة والإدارة

الحديثة، بل وفي التعليم أيضًا، بحيث يمكن اعتبارها المولد الحقيقي لما يسمى القومية المصرية وتحديد ملامح المجتمع المصرى الحديث، ولقد نظر محمد على إلى مصر كدولة يشارك فيها مواطنوها مسيحيون ومسلمون على قدم المساواة وأن عليه أن يعتمد على العنصر المصرى في كل مشاريعه وإنجازاته وخطط دولته من أجل خلق الدولة العصرية التي يريد تحقيقها، ولقد نظر إلى جميع المصريين نظرة متوازية ليست بها تفرقة بين شخص وآخر بسبب دينه أوعرقه أوجنسيته وطبقًا لتلك النظرة لم يرفض قط أي طلب من أجل بناء كنيسة جديدة وكان أول حاكم ينعم بلقب بك على مسيحى مصري، كما قام بتسهيل الحج للأراضى المقدسة للمسيحيين وهناك بعض المواقف التي توضح ميله للعلوم والتحديث والمساواة فعندما عرض عليه كلوت بك أن يقيم مدرسة للطب استجاب سريعًا وأسس مدرسة للطب بالقاهرة وانتدب أحد شيوخ الأزهر العارف الإنجليزية؛ ليترجم للطلبة محاضرات كلوت بك ويدعى الشيخ الهراوى، وعندما دخل الشيخ الهراوى إلى مدرسة الطب ورأى في دروس التشريح أن د. كلوت بك يشرح على جثة إنسان ميت ثار جدًّا وقال هذا حرام ومنع الطلبة من القيام بذلك.أرسل كلوت بك خطابًا لمحمد على بهذا المضمون وعندما قرأ محمد على الخطاب أصدر أمرًا نصه كالتالى : "أنه علم أصول معارضة من الشيخ الهراوى في بعض أمور لا تعنيه وبالنسبة إلى علمه وآدابه لم يقابل بشيء من الأطباء وأن المذكور ليس ممن يجب احترامهم بل من الأشرار المحتاجين للإيقاظ حتى أن تزويره لعلوم معلوم من قبل فيلزم استحضار المذكور والتنبيه عليه مؤكدًا عدم تدخله في شيء خارج

وظيفته وبأنه ينفى ويطرد فيما لوحصل إقدام ثانٍ على ما يوجب التشكى منه" ثم عاد بعد خمسة أيام ليصدر أمرًا أشد لهجة؛ لأنه لاحظ أن المسئولين بالديوان خضعوا لابتزاز الشيخ الهراوى لهم باسم الدين وأنه اضطلع على المضبطة الصادرة بشأن التقرير المقدم من الشيخ الهراوى في حق كلوت بك بخصوص تلامذته، فكتب المارستان (كلية الطب) وعلم الكيفية. وأن تقرير المذكور من قبيل التزويرات وبناء عليه يشير بدعوة المذكور إلى ديوان خديوى والتنبيه عليه بعدم تدخله فيما هوخارج عن وظيفته المحوله عليه وهي الترجمة والتصحيح وإن لم يرتدع يضرب بالنبوت واستحضار كلوت بك أيضا والتنبيه عليه بمداومته على السعي والاجتهاد في تعليم أولئك التلامذة علم الطب كمرغوبة".

ومحمد علي أيضًا كان أول من نفذ حكم الإعدام في مسلم قتل مسيحى في مدينة الإسكندرية رغم هيجان الشعب السكندري.

من هنا يتضح انحياز محمد على للدولة الحديثة في التوجه العلمي وسيادة القانون والمساواة بين جميع المواطنين أمام القانون لكن لا بد أن نلاحظ أن طبقة الأعيان التي كانت قبل محمد على بدأت تتلاشى في عهده؛ لأنه احتكر مصادر الثروة المصرية فكان هوالمالك الوحيد لأراضى مصر والتاجر الوحيد لحاصلاتها ثم بعد أن أنشأ[٥٨] مصانع عدة وصناعات صارهوالصانع الوحيد المستفيد من كل ذلك وبناءً عليه احتكر التجارة الخارجية وهكذا وضع كل مصادر الثروة في يده، لقد أوجد محمد على طبقة من الإقطاعيين بمنحه لأفراد أسرته ورجال حكومته وأنصاره من الأتراك والشراكسة إقطاعيات وأبعديات... إلخ، وبالتالى كان من النادر

أن يخصص لقبطي أومسلم عادي مثل هذه الامتيازات وكان الاستثناء الوحيد بين الأقباط عندما منح محمد علي رئيس دواوينه المعلم غالي أبعدية بمركز منفلوط بمديرية أسيوط كانت تعرف في الصعيد قبل بيعها بسنوات عدة بأبعدية حليم بك غالي (حفيد المعلم غالي).

لكن نستطيع القول إن محمد علي تفوق على كثيرين من رؤساء جمهورية مصر العربية في نظرته إلى المسيحيين المصريين كمواطنين كاملي الأهلية فكان يعين كبير المباشرين منهم لجمع الضرائب وهو بمثابة وزير المالية وبعد غضب محمد علي على جرجس جوهري قام بتعيين المعلم غالي الذي كان كاتب محمد بك الألفي من أمراء المماليك وكان يجيد اللغة التركية وكان متوقد الذكاء، ويبدوأن هذا الأمر أيضًا صار -عادة - كثيرة التكرار حتى العصر الحديث فآخر وزير مالية لحسني مبارك قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م كان يوسف بطرس غالي، ومشكلة هذا المنصب أن صاحبه يكون ممزقًا بين جشع الوالي أوالرئيس في تحقيق أكبر قدر من الدخل وبين المواطنين الذين يقومون بدفع هذه الأموال للدولة كضرائب وكانت نهاية المعلم غالي مؤسفة على يد إبراهيم باشا بن محمد علي الذي أطلق عليه رصاصة من مسدسه أردته قتيلًا بسبب إصرار إبراهيم على فرض ضرائب على النخيل ورفض المعلم غالي وطلب أن يعرض الأمر على أفندينا الكبير محمد علي فما كان من إبراهيم إلا أن يصرعه. وباقي المأساة أن المعلم غالي كان له ثلاثة أولاد ذكور هم باسيليوس، وطوبيا، ودوس ولما قتل المعلم غالي استدعى محمد علي الابن الأكبر باسيليوس ووجه إليه سؤالًا عجيبًا

أأنت حزين لموت أبيك ؟ فأجاب لم يمت أبى مادام مولاى الآن حيًا. وفي رواية أخرى حاشا لله يا سيدى أن أعرف أبا غير أفندينا فأعجب محمد على بباسيليوس وعينه مدير حسابات الحكومة المصرية(وزير المالية) وأنعم عليه بلقب بك وهوأول من منح هذا اللقب من المسيحيين المصريين وقد بقى في منصبه حتى وفاته ومن الأمور اللافتة للنظر أن عين حكامًا على الأقاليم رؤوس أسرة كبيرة من المسيحيين المصريين نذكر منهم رزق أغا حاكم الشرقية، ومكرم أغا حاكم أطفيح بمديرية الجيزة، وميخائيل أغا حاكم الفشن، وبطرس أغا حاكم برديس.

وأيضًا نستطيع أن نرى مقابل ذلك اليوم الأيدى المرتعشة في تعيين محافظين مسيحيين أورؤساء جامعات أوأي مناصب عليا. إن القضية ليست الحاكم أوالمحكوم لكن القضية هي هل لدينا دولة قوية أم دولة ضعيفة متداعية.

لقد حقق محمد على إنجازات ضخمة في الزراعة؛ حيث حفر ترعة المحمودية بالسخرة وتعتبر القناطر الخيرية أعظم مشروعات الرى في العالم حينئذ... إلخ، كذلك مهد طرق التجارة، وبدأ في إعداد جيش وطنى مصري خالص لكنه كان دكتاتورًا رهيبًا ولا ينسى التاريخ مذبحته للمماليك في القلعة؛ حيث دعاهم للاحتفال وبعد ما تعشوا أغلق الأبواب وأنزل فيهم القتل والذبح.

كثيرًا ما يتحدث المصريون عن إنجازات ملوكهم ورؤسائهم ويتغاضون عن احتقارهم وعنفهم لرعاياهم، وكثيرًا ما يتحدثون عن

هذا الجانب المظلم وينكرون إنجازاتهم، ومازال هذا الأمر حتى يومنا هذا لكـن بكل المقاييس وبتحليل معظم المؤرخين أن محمد على هو الأفضل بين حكام مصر سـواء من ذريته أومـن جاء بعد ثـورة ٢٣ يوليوفهو تميز بذكاء حـاد ورؤية إسـتراتيجية واضحة لموقع مصر وسـط العـالم، وكذلك رؤية نافذة لمستقبل مصر الحديث.

وفي عهد محمد على حاولت روسيا فرض حمايتها على مسيحيي مصر طبقًا لمعاهدة ١٧٧٤م التى أعطت لروسيا حق التدخل لحماية الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية، وقد استعملت روسيا هذا الحق في تحريض اليونان والعرب والبلغار والرومان للثورة ونجحت وتطلعت إلى مصر وكانت حالة الأقباط تحت الحكم العثماني في منتهي السوء فأوفد قيصر روسيا من قبله أميرًا يعرض على[٥٩] البابا بطرس الجاولى المعاصر لمحمد على حماية روسيا للكنيسة الأرثوذكسية فرفض البابا الفكرة تمامًا ولما علم محمد على بذلك ذهب إلى البابا في مقره وشكره على ما فعل فقال البابا: "لا تشكر من قام بواجب عليه نحوبلاد تظلله وتظلل إخوانه في الوطن" فقال محمد على وهو واقف : "لقد رفعت بعملك شأنى وشأن أمتك".

لقد اهتم محمد على بإرسال بعثات دراسية للخارج كان من أهم روادها رفاعة رافع الطهطاوى الذى كان إمامًا لأول بعثة عام ١٨٢٦م وكان متأثرًا بالحضارة الغربية ومقتنعًا بأن تطوير مصر يكمن في طريق واحد هوتطوير نظام التعليم وفهم نظام الحياة الأوروبية، وقد وصف رفاعة انطباعاته عن الحياة الأوروبية في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وأنشأ مدرسة

للغات وأولى اهتمامًا خاصًا بترجمة الكتب الأوروبية إلى العربية أما على مبارك فيعرف بأنه "أبو التعليم"، وسافر إلى فرنسا في بعثة عام ١٨٤٤م وبعد عودته أنشأ مدرسة المهندسخانة ونشر كتابه الشهير "الخطط التوضيحية" كدائرة معارف كلية وصار وزيرًا للمعارف والطهطاوى ومبارك هما رائدا إضفاء الطابع العصرى على مصر في القرن التاسع عشر وكانت مساهمتهما ذات قيمة عظيمة لكل من المسلمين والأقباط في إبراز الشخصية الثقافية لمصر الحديثة وتعتبر المشاركة السياسية والاجتماعية في الحياة العامة بمثابة إعلان لمولد الدولة العلمانية في مصر، وقد درس في المدارس القبطية جيل من المسلمين والمسيحيين، منهم اثنان من رؤساء الوزراء عبد الخالق ثروت، وحسن رشدي.

محمد سعيد (١٨٥٤م - ١٨٦٣م)
والبابا كيرلس الرابع أب الإصلاح

قام محمد سعيد[٦٠] باتخاذ قرارات واضحة وحاسمة في نقل مصر إلى الدولة الحديثة من أهمها اعتماده أكثر على العنصر المصرى وخاصة (الفلاحين)؛ حيث كان يرغب في الحد من المشاركة التركية وأهم ما قام به هوالسماح للمسيحيين المصريين بالخدمة العسكرية في الجيش المصرى وألغى في الوقت نفسه عام ١٨٥٥م ضريبة الجزية على غير المسلمين.

في هذا العصر قام المسيحيون المصريون بإعادة تشكيل منظماتهم وهيئاتهم، وبدءوا في إنشاء المدارس الحديثة بدلًا من الكتاتيب وكانت أول محاولات لتحويل مصر من عصر الكتاتيب إلى المدارس الشبه أوروبية

وكـان رائـد هـذا العمـل البابـا كيرلس الرابع (١٨٥٤م- ١٨٦١م) الملقب بـ (أبوالإصلاح)، وقد كان لحركة الإصلاح التى قادها تأثيرها الضخم في المجتمع المصرى وكانوا ينظرون إليها كمثال أونموذج للتحضر وتطوير التعليم وقد أسس مدرسة أخرى في منطقة مسيحية (حارة السقايين) وتخرج من هاتين المدرستين الكثيرين الذين لعبوا دورًا مهمًا في المجتمع المصري بعد ذلك مثل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء والسياسي المؤرخ ميخائيل عبد السيد مؤسس صحيفة الوطن وقد أنشأ البابا مدرسة البنات المسيحيات، ولأن هذا التعليم يحتاج إلى كتب لذلك قام باستيراد مطبعة مصرية خالصة وقد أقيم حفل خاص لاستقبالها.

ومن المواقف الوطنية التي تحسب للبابا كيرلس الرابع قيامه بتسوية نزاع بين مصر وإثيوبيا ولولا قيامه بهذا الدور الوطنى لوقعت الحرب بين البلدين فقد شن نجاشى الحبشة هجومًا على بعض الأملاك الواقعة على الحدود ونهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم الكثير، فهال سعيد هذا الأمر وأزعجه فجند جندًا لقتال النجاشى، إلا أنه آثر طريق السلم أولًا فرأى أن يتدخل البابا كيرلس لفض النزاع ويقوم بدور السفير بين بلاده من ناحية وبين دولة شقيقة هورئيسها الأعلى من ناحية أخرى فقبل القيام بالمهمة مهما كلفه الأمر ولما علم الإمبراطور الإثيوبى بقدوم البابا كيرلس الرابع سارع إلى لقائه في موكب حافل وعندما اقترب البابا ترجل الإمبراطور وقبل يدى البابا الذى قبل رأس الإمبراطور وسار معه وانتهت المشكلة بين البلدين.

الخديوي إسماعيل والمسيحيون المصريون(١٨٦٣م-١٨٧٩م)

كان حلم الخديوى إسماعيل[٦١] أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، لذلك شجع كل من يسهم في هذا الاتجاه، فقد دعم المدارس المسيحيّة، وعين عددًا من القضاة المسيحيين في المحاكم، وأعطى المسيحيين الحق في أن يصبحوا أعضاء في مجلس شورى النواب، أول برلمان مصري وهكذا ظهر ولأول مرة مصطلح الأمة المصرية؛ لتضع فارقًا بين المسيحيين والمسلمين المصريين من ناحية والأجانب من الناحية الأخرى مثل الأتراك والأرمن وغيرهما ولأول مرة في التاريخ حصل مسيحى على الباشوية كان من الخديوي إسماعيل وهونوبار باشا وكان أرمنيًّا مصريًّا.

وبعد وفاة أب الإصلاح البابا كيرلس الرابع ساد الفساد المجال التعليمي الأرثوذكسي وعند وفاة خليفته ديمتريوس آلت أمور الطائفة الأرثوذكسية إلى النائب الأسقف العام وقامت مجموعة من الأرثوذكس بتكوين (جمعية إصلاح) وطالبوا بإنشاء (مجلس ملي) وفي ١٥ فبراير ١٨٧٤م صدر مرسوم خديوى يقضي بإنشاء هذا المجلس الذى تم تكوينه من ١٢ عضوًا منتخبين ومثلهم معيَّنين.

في عام ١٨٥٤م بدأت الكنيسة الإنجيلية في مصر عن طريق مرسل أسكتلندى يدعى جون هوج يعمل في الإرسالية الأمريكية، وقد بدأ المرسلون العمل من خلال الكنيسة الأرثوذكسية على أساس أنهم لا يريدون تأسيس كنيسة منفصلة لكنهم يريدون تقديم مبادئ الإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي الذي حدث في أوروبا في القرون الوسطي ونجح مع الكاثوليك للكنيسة الأرثوذكسية وهي تختار ما يناسبها منها،

وفعلا رحب الأساقفة بالمرسل ومساعديه وبدأ يعمل من داخل الكنيسة الأرثوذكسية لكن الآباء الأرثوذكس بعد سماعهم لتفسير الكتاب المقدس، بوجهة نظر إصلاحية رفضوا أي نوع من الإصلاح الكنسي الذي وقع في أوروبا وقالوا إنهم كنيسة لها طابع خاص وطردوا المرسلين وحرموهم، فاضطر المرسلون أن يقدموا لاهوت الإصلاح للمجتمع وهوطرح لاهوتي غير مسبوق وإن كان يتفق مع أساسيات الفكر المسيحي في الكتاب المقدس، إذ يقوم على بناء مدرسة ومستوصف وبينهما مكان صغير للعبادة لموظفى المدرسة والمستوصف، ولما كان المجتمع المصري يتطلع إلى التغيير والمفاهيم الجديدة استقبل الأمر بترحاب. من هنا انتشرت الدعوة الإنجيلية من أسيوط؛ حيث أخذت زخمًا بانضمام آل ويصا وآل خياط أغنى عائلتين في أسيوط للكنيسة الإنجيلية وكان سبب انضمامهما قصة طريفة فقد كان الأخوان ويصا يحضران اجتماعات المرسلين وهم معجبون بالتفسير الجديد للإنجيل وكان معهما اثنانِ يعملان بالنجارة فقراء فأرسل أسقف أسيوط بأسماء الأربعة[٦٢] إلى قداسة البابا في القاهرة فأجابه بأن يقوم بحرمان النجارين فقط من الكنيسة، وعندما أعلن الأسقف ذلك واجهه الأخوان ويصا بالقول لماذا لم تحرمنا كالنجارين فنحن نحضر معهما الاجتماعات الإنجيلية لأننا أغنياء؟ نحن سوف نحرم أنفسنا وننضم للكنيسة التي لا تفرق بين فقيروغنى وقد انتشر المذهب الإنجيلي؛ لأنه بدأ مع المجتمع المحلي وأسس أول مدرسة للبنات في أسيوط، ثم تبعها بمدرسة في القاهرة وأنشأ كلية اللاهوت؛ ليتعلم فيها خدام الإنجيل بثقافة عالية ولذلك بدأ الإنجيليون برعاة مثقفين، ولقد حاربت الكنيسة الأرثوذكسية الكنيسة الإنجيلية على أساس أنها كنيسة أجنبية والحقيقة

غير ذلك تمامًا؛ لأن الكنيسة قدمت فكرها لمصريين، والمصريون الذين قبلوا فكرها أنشأوا كنائس مصرية وقد بدأت الكنيسة الإنجيلية عبادتها باللغة العربية وليست بلغة غريبة عن رجل الشارع وأيضًا تفسير الإنجيل والوعظ باللغة العربية، وأعلنت مبادئها الأخلاقية بكل صرامة وكان أحد الأغنياء يمتلك قرية(صفط ميدوم) أرضًا وبشرًا ولديه عبيد وجوارى وأعجب بالتفسير الحديث للإنجيل وطلب أن ينضم للكنيسة الإنجيلية، وهنا طلب منه مسئولوالكنيسة أن يحرر عبيده وجواريه أولًا لأن هذه مبادئ الكنيسة لينضم لها، وبعد فترة تفكير وتردد حرر العبيد والجوارى وانضم للكنيسة لكن الكنيسة الأرثوذكسية حاربت الكنيسة الإنجيلية وحرضت الدولة على محاربتها على أساس أنها كنائس أجنبية.وقد كان الخديوي إسماعيل غير راضٍ عن أعمال المرسلين المؤسسين للكنيسة الإنجيلية واقترح أن يقوم الأنبا ديمتريوس بطريرك الأقباط برحلة إلى صعيد مصر لمواجهتهم ووضع أحد قوارب الدولة تحت تصرفه بكل أطقمه وأمر كل حكام الأقاليم أن يكونوا تحت إمرة البطريرك،وقد أدى ذلك إلى تراجع العمل الإنجيلي وعندما وصل البطريرك إلى أسيوط أمر بجلد كاهن قبطى في قرية مجاورة سمح لأخيه أن يكون بروتستانتيًا ويقوم بخدمات في كنيسته، ثم سحب من الكاهن رعويته وأفرزه من الخدمة، وقد فكر البطريرك في إمكانية تدمير المدارس الإنجيلية مدرسة الأخوان ويصا للبنين ومدرسة واصف خياط للبنات والكلية الأمريكية المؤسسة حديثًا وذلك بإصداره حرم يشجب(تكفير) كل من يدعمهم، لكن هذه التصرفات لم تستمر طويلًا إذ جاء البطريرك كيرلس الرابع أبوالإصلاح عام ١٨٥٤م ورأى انحدار الأقباط الأرثوذكس إلى تبجيل الصور المقدسة

فبني كاتدرائية جديدة وقرر عدم وضع أي صور فيها وجمع كل الصور التي كانت تزين المبنى القديم وقام بإحراقها بشكل مهيب في حضور جمهور كبير، ثم شرح للجمهور لماذا فعل ذلك في عظة تعليمية اختتمها بالقول "هذه هي الصور الخشبية التي اعتدتم احترامها وحتى تقديسها فهى لا تفيدكم ولا تضركم الله وحده هوالذى يجب أن يعبد".

يحكى حنا فهمى ويصا أن جده حنا بقطر ويصا تسبب في حدوث ضجة في البلاد عام ١٨٧٠م إذ أنه بعد بضع سنوات من تحوله إلى البروتستانتية ذهب هوويعض أصدقائه مدفوعين بالحماس الزائد إلى الكنيسة الأرثوذكسية في إحدى الليالى وأخذوا الأيقونات خارج الكنيسة وقاموا بحرقها وفي اليوم التالى خرجت جماهير تهتف "حنا ويصا حرق الكنيسة" فحكم عليه بالنفى ووضع في قارب ذاهب إلى السودان، لكنه حصل على عفومن الخديوي عند وصوله إلى إسنا نتيجة توسط المهرانا بمبه زوجة مهراجا البنجاب التي كانت عينت وصيفة الملكة عندما أصبحت الملكة إمبراطورة الهند،وهذه قصة من قصص البدايات البروتستانتية التي تستحق أن تروى فقد حضر أمير هندى يدعى ديوليب سينغ وهوالوريث لعرش البنجاب إلى مصر عام ١٨٦٤م، وكان قد تحول من الهندوسية إلى المسيحيّة في بريطانيا وحضر إلى الكنيسة في مصرأحد أيام الآحاد وكتب للقسيس ليرشح له فتاة يتزوجها فرشح له فتاة اسمها بمبه أمها حبشية وأبوها تاجر ألماني وقد أعجب المهراجا بها وتزوجها، ثم عاد المهراجا إلى مصر عام ١٨٦٥م؛ لقضاء رحلة بالنيل واشترى عوامة(ذهبية) "أيبس" وقضى العروسان فيها شهرًا معًا وعند مغادرتهما مصر تركا العوامة أيبس للكنيسة، وهي مازالت رابضة على نيل الجيزة حتى اليوم ضمن ممتلكات الكنيسة الإنجيلية.

نستطيع القول إن ما ساعد على قيام نهضة تعليمية(٦٣) وثقافية واجتماعية في مصر من بداية القرن العشرين وحتى ثورة ٢٣ يوليو كانت ثلاثة عوامل في منتهى الأهمية :

الأول : موقف المسيحيين بجوار المسلمين في مصر من الاستعمار الأجنبي.

الثاني : دور المسيحيين العرب في نقل العلوم الأوروبية إلى مصر.

الثالث : ظهور كوادر سياسية وثقافية لا تخفى عن العين مثل ويصا واصف، ومكرم عبيد وبطرس غالى في السياسة، وسلامة موسى ولويس عوض وموسى صبرى وميلاد حنا في المجال الثقافي، وسوف نتناول ـ بالتفصيل ـ كادرًا سياسيًّا (مكرم عبيد)، وآخر ثقافي(لويس عوض)، وامرأة (إستر فهمى ويصا).

الأول : موقف المسيحيين(٦٤)في مصر من الاستعمار الإنجليزى

كان تصريح اللورد كرومر "إن القبطى قد أصبح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في عاداته ولغته وروحه كالمسلم تمامًا" سلبيًا من وجهة نظره إيجابيًّا من وجهة نظر المصريين جميعًا وقد نشر اللورد كرومر آراءه هذه في إطار حديثه عن موقف الأقباط من البريطانيين فقد كان المسيحيون المصريون مشغولين في ذلك الوقت بمستقبلهم أكثر من واقعهم، كانوا قلقين على مدى مشاركتهم في الحكومات المصرية، وقد كان واضحًا أن المندوبين البريطانيين يظهرون تعاطفًا مع المسلمين أكثر من المسيحيين بعكس ما هومشاع أوكان متوقعًا والسبب الآخر للقلق أن المسيحيين في

نهاية القرن التاسع عشر كانوا يملكون خمس الأراضي الزراعية والمباني بالإضافة إلى ما يملكونه في البنوك مع أنهم يمثلون ٦ ٪ من سكان مصر، وهذا يعنى أنهم كانوا يتمتعون بوضع اجتماعي أفضل نسبيًا من بقية المصريين،وهذا يفسر ويبرر مستوى تعليمهم المرتفع ونهضتهم ورقيهم الاجتماعى.

وعندما جاء الخديوي عباس حلمي شجع القيادات الوطنية وخاصة الشبان منهم وقد استاء كرومر من هذا الاتجاه، لكن موقف عباس تغير بعد ذلك بعد ما أصبح له حق التصرف في الأوقاف على الرغم من معارضة الشيخ محمد عبده واتجه الخديوي للتقرب من المندوب السامى الجديد سير الدون جوست الذى لاحظ أن نموالروح الوطنية قد تسبب معاداة كرومر للمسلمين فسعى جوست إلى تأييد الجاليات الأوروبية والمسيحيين، وعندما شعر قادة الحزب الوطنى أن عدد المثقفين المصريين من المسيحيين كبير نسبيًا قرروا أن يتخلوا عن الطابع الديني الذي التصق بالحزب بدمج الوطنيين المسيحيين معهم وذلك عندما ارتفع صوت أحمد لطفى السيد من منبر صحيفة "الجريدة" ينادى مصر للمصريين لا للإنجليز ولا للعثمانيين يقول سلامة موسى : "لقد وجد لطفي السيد مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك، ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأى العام فى مصر وهنا وجد الأقباط منطقًا في هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملًا جديدًا يعبئ الأمة للإصلاح والتجديد".

وفي نوفمبر ١٩٠٨م تم تعيين بطرس غالى باشا رئيسا للوزراء وقد لقى ترحيبًا من الصحافة القبطية؛ لأنه أول قبطى يتولى هذا المنصب وقد

قام بطرس غالى بدعم الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين وأنشأ (الجمعية الخيرية القبطية) وعندما طرد الخديوي عباس الشيخ سليم البشرى - شيخ الأزهر - قام بطرس غالى بزيارة الشيخ سليم وأعلن تأييده له.

وقد ضم مصطفى كامل في حزبه شخصيتين مسيحيتين هما ويصا واصف، ومرقس حنا وقد قام أحد المتطرفين أعضاء الحزب الوطني إبراهيم الوردانى باغتيال بطرس غالى لكن صدور بيان غالي الابن بعد عام من مصرع أبيه يطلب فيه مصالحة وطنية متغاضيًا عن الإساءات التي تعرض لها أبوه في ذكراه كان له وقع إيجابي على الأمة.

في ثورة ١٩١٩م تجلت الوحدة الوطنية بين المسيحيين والمسلمين وتعرض المسيحيين للسجن والنفى والتشريد مع إخوتهم المسلمين وطلب العميد البريطاني اللورد اللنبى من بطريرك الأرثوذكس الأنبا كيرلس الخامس أنه مستعد لحماية الأقباط مقابل تراجع موقف الأقباط من الثورة لكن البابا رفض وقد تعرض سعد زغلول لهذا الموقف في خطابه في ١٩ سبتمبر ١٩٢٣م قائلًا: "لولا وطنية الأقباط وإخلاص شديد لتقبلوا دعوة الأجنبي لحمايتهم وكانوا يفوزون بالجاه والمناصب بدل النفى والسجن والاعتقال لكنهم فضلوا أن يكونوا مصريين معذبين محرومين من المناصب والجاه والمصالح يسامون الخوف ويذوقون الموت والظلم على أن يكونوا محميين بأعدائهم وأعدائكم ".

وحين تألف الوفد المصرى عام ١٩١٨م بزعامة سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال سارع الأقباط للانضواء تحت لواء الوفد وقد ضم الوفد الأول

إلى أعضائه سينوت حنا بك، وجورج خياط بك، وواصف غالى بك، وقد نُفى مع الزعيم سعد زغلول مكرم عبيد وسينوت حنا.

وعندما قبل يوسف وهبة المسيحي رئاسة الوزارة بعد استقالة وزارة محمد سعيد باشا احتجاجًا على إعلان الحماية الإنجليزية بقدوم لجنة ملنر عام ١٩١٩ أعلن الأقباط استنكارهم لقبوله الوزارة واجتمعوا في الكنيسة المرقسية وأعلنوا سخطهم بإجماع ما يقرب من ألفى مسيحي.

الثانى : دور المسيحيين العرب(٦٥) في نقل العلوم الأوروبية الحديثة إلى مصر

كانت الطباعة والصحافة قنوات نقل هذه النهضة والتي كان لها عظيم الأثر على الحياة الفكرية والثقافية والدينية على المسيحيين والمسلمين وظهرت حركة القومية العربية كنتيجة لهذه الصحوة التي صنعها المسيحيون العرب وكان من هؤلاء(الأخوان تكلا) اللذان أسسا جريدة الأهرام وجورجي زيدان الذى أسس دار الهلال وجورج أبيض ونجيب الريحانى في المسرح وروز اليوسف في الصحافة ومى زيادة في الأدب وقادت حركة القومية العربية إلى اعتراف العثمانيين ببلاد عربية وإلى نشأة حزب البعث الذى وصل للحكم في بلدان مثل : سوريا، والعراق، وكان ميشيل عفلق(١٩١٠م- ١٩٨٩م) مؤسس الحزب مسيحيًا، وقد انتشرت المدارس الإنجيلية على طول البلاد وعرضها لتعليم البنين والبنات.

ومن أبرز هؤلاء(٦٦) القوميين العرب المسيحيين جورجي زيدان (١٨٦١م- ١٩١٤م) الذى جاء من بيروت إلى الديار المصرية عقب حركة

القومية العربية؛ ليدرس الطب في مدرسة قصر العيني غير أن طول المدة لينال الشهادة الطبية حول عزمه عن صناعة الطب فاشتغل بالصحافة وتولى تحرير جريدة الزمان مدة

سنة أوأكثر وعاد إلى بيروت عام ١٨٨٥م ومكث هناك عشرة شهور درس فيها العبرية والسريانية وعلى أساس دراسته أخرج كتابه عن الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية، ثم عاد إلى مصر حيث تولى مجلة المقتطف حتى عام ١٨٨٨ م ثم استقال من عمله بالصحافة وتفرغ للكتابة والتأليف وقام بإصدار تاريخ مصر الحديث في مجلدين كبيرين، وألفً تاريخ الماسونية العام وهوأول كتاب باللغة العربية في هذا الشأن ثم ألف التاريخ العام وهو مختصر تاريخ ممالك آسيا وإفريقيا القديمة والحديثة وفي أواخر عام ١٨٨٩م انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الأرثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدر يس العربى فيها فيتولاها لمدة سنتين كتب خلالها رواية المملوك الشارد وهي أول رواياته وقد صادفت إقبالًا واسعًا حتى طبعت أكثر من مرة.في عام ١٨٩٠م يؤسس (إدارة التأليف) بالاشتراك مع نجيب مترى ثم ينفصل بعد عامين ليؤسس جورجى زيدان (دار الهلال) ويؤسس نجيب مترى(دار المعارف) وفي أول نشأة دار الهلال كان يتولى كل أمورها بنفسه من إدارة وتحرير ومكاتبات وغير ذلك،حتى إذا اتسع نطاق المجلة عهد بإدارتها إلى شقيقه وانقطع هو إلى التأليف والتحرير فكتب مؤلفات عديدة من أهمها تاريخ مصر الحديث (جزءان) تاريخ التمدن الإسلامي (خمسة أجزاء) وتاريخ العرب قبل الإسلام وتراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (جزءان)، تاريخ آداب اللغة العربية (أربعة أجزاء)،

الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية وأنساب العرب القدماء، تاريخ اللغة العربية، علم الفراسةالحديث، طبقات الأمم،عجائب الخلق، وقد نقل تاريخ التمدن الإسلامي إلى خمس لغات (الأردية والتركية والإنجليزية والفرنسية والفارسية) وقد ألف أيضا ٢٢ رواية تاريخية جعلها متسلسلة منذ ظهور الإسلام، تتناول كل منها عصرًا تاريخيًّا وتصف رجاله وعاداته وحوادثه مع المحافظة على الأصل.

وهكذا نرى أن كتابات جورجى زيدان مازالت تمثل سبقًا فكريًّا جسورًا فهى تجسد تطلع وطموح المسيحيين العرب إلى الاندماج الكامل في كافة مناحى الحضارة العربية الإسلاميّة معرفة وممارسة وانتماءً، فرؤية صاحب (تاريخ التمدن الإسلامي) تؤكد أنه يرى نفسه منتميًا بالفكر والحضور الإنسانى إلى الحضارة الإسلاميّة العربية وهويري أن : "تاريخ الإسلام[٦٧] هوأهم التواريخ العامة؛ لأنه يتضمن تاريخ العالم المتمدن في العصور الوسطى، أوهوحلقة الوصل بين التاريخ القديم والحديث، فيه انتهى التمدن القديم ومنه أشرق التمدن الحديث".. من مقدمة الطبعة الأولى من كتاب تاريخ التمدن الإسلامي.

وهويقدم كتابه هذا إلى قراء العربية المتلهفين على قراءة تاريخ لسانهم وأمتهم وآدابهم وعاداتهم وهويؤكد على أن (تاريخ الأمة الحقيقي هوتاريخ تمدنه وحضارته لا تاريخ حروبها وفتوحاتها وخصوصًا على ما تعوده مؤرخوالعرب في تاريخ الإسلام فإنهم يسردون الوقائع على علاتها،وقلما يشيرون إلى الأسباب التي تربط تلك الوقائع بعضها ببعض؛ حيث يرتاح العقل إلى تعليلها والنظر إليها وترسخ في ذهنه حقيقة تلك الأمة).

وبلا شك يمكن أن نلاحظ أن جورجي زيدان المسيحي يكتب مدفوعًا بإحساس جارف بالانتماء الحقيقي وليس الشكلي إلى الحضارة العربية الإسلاميَّة تاريخها ولغتها وآدابها وهويجسد بالتالي وعيه وإدراكه لما يصفه لنا فهمي هويدي بلغة معاصرة تحت عنوان "الإسلام الحضاري" يقول:

الإسلام الحضارى شيء مختلف، فالدين في ذلك المفهوم له وظيفته الاجتماعية من ثم فهومشروع للنهضة يتطلع للمستقبل وفيما يلتزم بقيم الإسلام ومقاصده فإنه يرى في إبداعات العصر وخبرات الآخرين - التي هي إنسانية - من الدرجة الأولى أدوات لا غنى عنها للمضى على طريق التقدم وفي طريقه إلى الإسلام فإنه ضد الدولة الدينية - بالمفهوم الغربي الشائع- التي تقوم على سلطة رجال الدين واحتكارهم القرار واحتمائهم بالتغيب، حيث ليس في الإسلام شيء من ذلك القبيل، في الوقت ذاته، فالإسلام الحضارى هوفي الأساس ينحاز على طول الخط مع الحرية والديمقراطية والتعددية -طوق النجاة- مقال بجريدة الأهرام ٢٧ يوليو١٩٩٣م.

وهكذا إن الإسلام الحضارة هومشاركة خلاقة لكل من يعيش في ظله لنشر رسالته الحضارية وبناء مشروع حضاري مشترك بين المسلمين وجميع من يعيشون في الأمة العربية الإسلاميَّة وذلك من خلال تحويل التراث الحضاري والثقافي المشترك بين المسلمين وغير المسلمين ليصبح تاريخًا أصيلًا وتراثًا حاضنًا لكافة التكوينات الدينية والثقافية والعرقية في المنطقة العربية، التي هي جزء من العالم الكبير الإنساني .

الثالث : ظهور الكوادر السياسية والثقافية المسيحيّة :

وهنا سوف نختار ثلاثة كوادر:

مكرم عبيد(١٨٨٩م-١٩٦١م) وقد بدأ عطاؤه في النصف الأول من القرن العشرين وانتهى بثورة ١٩٥٢ .

ثم لويس عوض(١٩١٥م-١٩٩٠م) النصف الثانى بمن القرن العشرين.

وأخيرًا إستر فهمي ويصا (١٨٩٥م-١٩٩٠م).

أولًا : مكرم عبيد (١٨٨٩م- ١٩٦١م)[٦٨]

ولد وليم مكرم عبيد في أسيوط وعائلته تنحدر إلى المعلم إبراهيم جوهرى من الأجداد وانتقلت الأسرة إلى قنا وكان مكرم واحدًا من بين ١١ أخًا وأختًا، كان يمتلك ٣٠ فدانًا لكنه اشتغل في المقاولات وبشراكة ٣ من إخوته قام بعمل قومى (امتداد خط السكة الحديد بين نجع حمادى والأقصر)، وقد قلده الوالى في ذلك الوقت (الوسام المجيدي) لإنجازه هذا وأعطاه لقب البكوية فأصبح مكرم بك وقد تنازل عن اسم وليم؛ لأنه أجنبي، ثم اشترى والده ٩٠٠ فدان من الخاصية الملكية.وبعد اجتيازه المرحلة الابتدائية والاعدادية اتجه إلى الكلية الأمريكية بأسيوط (مدرسة العروبة الآن)، والتي أنشأها المرسلون البروتستانت الذين بدأ نشاطهم لنقل الإصلاح الدينى الذي حدث في أوروبا في القرون الوسطي إلى مصر عام ١٨٥٤م (الكنيسة الإنجيلية الآن)، ثم أرسله والده بنصيحة من المحامى المشهور أخنوخ فانوس إلى جامعة أكسفورد؛ ليكمل دراسته هناك وكان عظماء الأمة المصرية يتخرجون فيها ويتباهون أنهم من خريجى

أكسفورد حتى في البرلمان ويدأ تعليمه وهوفي السادسة عشر عام ١٩٠٥م وفي أكثر من مناسبة امتدح عميد الكلية ذكاء ونشاط وليم رغم أنه أصغر الطلاب سنًا، انتهى من دراسته عام ١٩٠٨م وحصل على المرتبة الثانية في تخصصه القانون وفي طريق عودته إلى مصر التحق بجامعة ليون بفرنسا ليكمل دراسات أعلى في القانون وقد أبهره اهتمامهم هناك بالآثار المصرية وتدريسها ومما أثاز فكر وليم مكرم[٦٩] تلك التوجهات الفكرية الحديثة وأعجب بالفلسفة الاشتراكية، ولفت نظره بشكل معمق الاتجاهات غير الدينية ولم يكن مكرم عبيد منفردًا بهذا ولكن صفوة المجتمع مثل محمد حسين هيكل صاحب أول رواية في الأدب العربي (زينب) و(قرية ظالمة) والدكتور محمود عزمى وكان الملك فؤاد ينظر إليهم بشك على أساس أنهم يؤيدون النظام الجمهوري والاشتراكية الفرنسية، وقد أثر ذلك على توجهات مكرم عبيد في مستقبله السياسي إذ كان يؤمن تمامًا بالعلمانية والوطنية، وعلى طريق عائلة ويصا وخياط في أسيوط تحول مكرم عبيد إلى البروتستانتية أوالإنجيلية التي كانت تنادي بالاستنارة الدينية والعلمانية وهنا انقسمت العائلة إلى متمسك بأرثوذكسيته ومتحول إلى الإنجيلية وقد تمسك مكرم عبيد بأرثوذكسيته أوقل عاد إليها؛ لأنه علم بذكائه أنه لن يكون له مستقبلًا سياسيًا لوتمسك بانتمائه إلى أقلية الأقلية الإنجيلية؛ حيث كان البابا يختار الأقباط الذين يطلب الملك أن يعينهم في مناصب عليا، وقد استمر هذا الأمر في العصر الجمهوري، لذلك تمسك مكرم بأرثوذكسيته رغم اقتناعه بالإنجيلية؛ لأنها تحمل فكرًا تنويريًا سياسيًا واجتماعيًا وقد سار على دربه أفراد عائلته الذين اشتغلوا بالسياسة رغم استقلال الكنيسة الإنجيلية عن مؤسسيها الأجانب عام ١٩٣٦م لتصبح كنيسة مصرية

خالصة فإن الدولة تتعامل مع الكنيسة؛ الأرثوذكسية لأنها تضم الأكثرية ولأنها الأقدم.

تحول أحمد عرابى إلى زعيم وطني شعبي بعد أن بدأ حركته داخل الجيش مع الضباط لأنه لمس أمرًا حساسًا وخطيرًا هو استبداد ودكتاتورية الخديوي توفيق ومساندة الاحتلال الأجنبي له، وقد اعتبرت قيادات التنوير في ذلك الوقت وعلى رأسهم الشيخ محمد عبدة وجمال الدين الأفغانى وتلاميذهما أن حركة عرابي يمكن أن تكون الشرارة الأولى لتحقيق التحديث وإثارة الروح الوطنية لتحقيق الهدف الأسمي وهوبعث الأمةالإسلاميّة من جديد حتى يحقق المسلمون ذاتهم ويتحركون دون الاعتماد على الدول الأوروبية ولقد نظر الأفغاني ومحمد عبده إلى الإحياء البروتستانتى كحافز مشابه ومواز لآرائهم الداعية للإصلاح الديني الإسلامي.

ولقد كان لمحمد عبده تلاميذ نابهون على رأسهم سعد زغلول وطه حسين، وأحمد لطفي السيد ومحمد رشيد رضا الفقيه السوري الذي التصق بمحمد عبده وأسس جمعية الشبان المسلمين على غرار جمعية الشبان المسيحيّة، ولقد كان الموضوع الرئيس في الحوار الوطني الدائر بين قيادات هذه المجموعة وصدر للعامة : لماذا تتقدم الدول العلمانية الكافرة في الغرب؟ بينما تتخلف الدول المتدينة ؟ وكانت إجابة الأفغاني (إن الحل في تجمع الأمة الإسلاميّة ونسيان الخلافات التي تقسمها) وكانت إجابة محمد رشيد رضا الخلافة الإسلاميّة وتطبيق الشريعة وكانت إجابة أحمد لطفي السيد وطه حسين (العلمانية وتبني العلم الأوروبي والنهضة الأوروبية)، ومن الغريب أن مصر انقسمت حتى اليوم بين هاتين الفرقتين، ومن

الأغرب أن تلاميذ محمد عبده وهوذات الشخص الذى أخرج من تحت عباءته محمد رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب من ناحية ومن الناحية الأخرى أخرج سعد زغلول وأحمد لطفي السيد وطه حسين، وقد اعتبر الإسلاميون أن محمد عبده انحرف عن الإسلام واعتبر المثقفون العلمانيون أنه إصلاحي لكنه لم يتقدم بنظرية متكاملة لإصلاح الدين الإسلامي كما قدم مارتن لوثر وجون كالفن في الغرب لإصلاح المسيحيّة وهذا هوسر التردد الرهيب الذي عاشته وتعيشه مصر حتى اليوم، نحن نرى رأيـًا هنا ورأيـًا هناك يقدم رؤي إصلاحية دون تقديم نظرية متكاملة للإصلاح وكل الأمور الإصلاحية تجهض بمقولة الوسطية والوسطية تعني عدم التخلف وفي الوقت نفسه عدم التقدم أوالتمسك بالقديم دون جراءة التغيير، أومسك العصا من المتصف وهوما تعانى منه مصر اليوم وغدًا وبعد غدٍ ولا نعرف إلى متى ؟!

وسوف يذكر التاريخ أنه بسبب هذا التردد تحولت مصر إلى دولة أشبه بالدينية في وقت ما وأن جهدها كان يضيع في ذلك الصراع بين الاستنارة الدينية والتمسك بالقديم دون اجتهاد واستخدام العنف بين الطرفين بسبب المحدودية الثقافية والاستنارة ورفض الآخر.

وقد برز في ذلك الوقت الزعيم مصطفى كامل[٧٠] مؤسس الحزب الوطني في وقت كانت مصر منقسمة اجتماعيًا بين حركة (الضباط الفلاحين) لمقاومة الغزوالأجنبي، والتي انهزمت مع هزيمة عرابي وبين حركة أرستقراطية للذين درسوا في الخارج وإذا كان الفريق الأول يعتمد علي الدين في الإثارة، فالفريق الثاني يعتمد على السياسة والفكر والعمل المنظم، من هنا كان دور مصطفي كامل في أن يجمع بين الفريقين على أساس

مصريتهم وقد كان لأحمد لطفي السيد في هذا الاتجاه إسهام رائع فكرى وسياسى، وقد بدأت الحركة في منتهي القوة والتأثير بخطابة مصطفى كامل وفكر وتنظير أحمد لطفي السيد حيث كان أفضل من يعبرعن الفكر الليبرالي في مصر الحديثة.

بعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨م فقدت الحركة الوطنية المصرية زخمها، ولم تعد للحركة الوطنية حيويتها إلا بفكرة إنشاء حزب يعبر عن الجماهير عام ١٩١٨م، وقد فكر في ذلك الأمير عمر طوسون وأيضًا حسين رشدي باشا الذي كان رئيسًا للوزراء في ذلك الوقت دون أن يلتقيا. في الوقت ذاته توجه سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي إلي مقر المندوب السامي للمطالبة باستقلال مصر وقد اعتبرت تلك الخطوة البداية التاريخية الحقيقية لقيام حزب الوفد وقد قوبل طلب الاستقلال بالعنف ونفي رئيس الوفد ومعه محمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدقى إلى جزيرة مالطة وهكذا اندلعت المظاهرات والإضرابات والتخريب على طول البلاد وعرضها وكانت كلمة السر هي سعد زغلول؛ لأنه زعيم شعبي ابن فلاح وحوله كوكبة مصرية عريقة ومنتقاة من تلاميذ محمد عبده مثل ويصا واصف، وأحمد لطفي السيد ومصطفي النحاس، وبعد انتخاب سعد زغلول رئيسًا لحزب الوفد أعطته الجماهير تأييدًا كاسحًا وبدأ يجمع بين أسلوب مصطفى كامل الوطني وأفكار محمدعبده التقدمية، وقام سعد بحركة إصلاح فأخرج من الحزب من سقط في عيون الجماهير وضم بدلهم من رأى فيهم مستقبل الحزب ومن أهمهم مكرم عبيد والذي صعد بعد ذلك ليصير سكرتير الحزب.

ولقد كان لسعد زغلول[٧١] كمصري وطني فلاح أصيل الفضل في اهتمامه بالمسيحيين وعندما سأله جورج خياط عن دورالأقباط في الحركة السياسية الوطنية قال : "إن الأقباط مثل المسلمين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات فالمصريون جميعًا سواء" واهتمام سعد زغلول بالمسيحيين يرجع إلى عام ١٩١٨م؛ حيث عقدت جماعة من الأقباط من علية القوم اجتماعًا في نادى (رمسيس) وكان من بين الموجودين فخرى عبد النور وويصا واصف وتوفيق أندراوس وذلك؛ لأن سعد زغلول عندما ذهب لمقابلة المندوب السامي لم يكن معه أحد من المسيحيين الأقباط فقرروا مقابلة سعد زغلول وإثارة مسألة خلوالوفد من المسيحيين الأقباط، وهنا طلب منهم سعد اختيار ممثل لهم في المرحلة الجديدة من الحركة الوطنية فرشحوا ثلاثة : واصف غالي، وسينوت حنا، وجورج خياط وأدى الثلاثة القسم أمام سعد زغلول في حضور حمد الباسل الثري البدوي الفيومي. وأثناء خلاف سعد مع عدلي يكن انضم إليه ثلاثة أقباط واصف غالي وسينوت حنا وويصا واصف ولويصا واصف قصة لا بد وأن نحكيها هنا لتبين أن الأقباط الذين كانوا يشاركون في السياسة كانوا أقوياء فعلا وليسوا خيال مآتة كما حدث منذ ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢م وحتى اليوم، كان ويصا واصف رئيسًا للبرلمان عندما تعين إسماعيل صدقى رئيسًا للوزراء عام ١٩٣٠م وكان الأخير دكتاتورًا فأوقف العمل بالدستور عام ١٩٣٣م وأغلق البرلمان بسلاسل من حديد حتى لا يجتمع لمناقشة القرارات الاستثنائية التي اتخذها في البلاد، وهنا قرر ويصا واصف أن يفتح البرلمان؛ لأنه برلمان الشعب وليس الحكومة وأخذ بيده (بلطة) وذهب عدد من الأعضاء معه تكفي لعقد جلسة وقام ويصا واصف بتكسير السلاسل

الحديدية وعقد جلسة للبرلمان وكان من بين الذين دخلوا معه وحضروا الجلسة النائب البرلماني الأديب عباس محمود العقاد وقد انتشى بها حدث فطلب الكلمة ووقف ليقول : "هذا البرلمان قادر أن يحطم أكبر رأس في البلد -وهنا انبرى له ويصا واصف قائلًا - اصمت إن أكبر رأس في البلد هي رأس جلالة الملك المعظم - ثم مال على سكرتير المجلس وطلب منه حذف هذه الكلمات من المضبطة لكن- بالطبع- وصل الخبر للملك وحوكم عباس العقاد بتهمة العيب في الذات الملكية وسجن لمدة عام وقد قام مكرم عبيدبالدفاع عن العقاد في هذه القضية وكانت من أشهر المرافعات في تاريخ المحاكم المصرية وكان مكرم عبيد من الشباب المسيحى المحيط بسعد زغلول لكن سعد زغلول لم ينتبه له إلا عندما أعجب سعد ببلاغته في اللغتين العربية والإنجليزية، فهوالذى قال : "إننا لا نعيش داخل مصر لكن مصر هي التي تجري في دمائنا" وهي نفس الجملة التي اقتبسها البابا شنودة، وأعطاها بعدًا بلاغيًّا بقوله "إن مصر ليس وطنًا نعيش فيه لكنه وطن يعيش فينا" وهو ـ أيضًا ـ الذى وقف يترافع في أحد القضايا وكان رئيس الوزراء في ذلك الوقت إسماعيل صدقى فاستهل مرافعته بالقول: "إن قلت الصدق كذبتموني وإن قلت الكذب صدقتموني إذن ليحيا كذبي وليسقط صدقى" وضجت المحكمة بالتصفيق والتهليل له والهتاف لمصر ولأجل كل ذلك أرسله سعد زغلول ليكون مبعوثًا له في لندن في أكثر من مناسبة ليقدم احتجاجات ضد مندوب الحكومة ذلك؛ لأن سعد زغلول كان يعتبر نفسه الممثل الحقيقي للأمة المصرية وكان من أعمق وأعظم ما في شخصية سعد زغلول ثقته وفخره بأن هناك مسيحيين أقباطًا يحيطون به بجوار إخوتهم المسلمين لذلك تميزت حركة سعد عن

حركة عرابي ومصطفي كامل فقد كانت حركة سعد وطنية خالصة لوجه الله، بعيدة عن أي نزعة دينية تفقدها مصداقيتها،أما حركة عرابي ومصطفى كامل فقد كانت بها إيحاءات إسلامية واضحة ولذلك تعتبر ثورة ١٩١٩م أعظم الثورات المصرية في تاريخها؛ لأنه لم يجنب أي مصري لأي سبب من الاشتراك فيها أوالعمل لأجلها.

في ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢م[٧٢] وجهت السلطات البريطانية في القاهرة إنذارًا إلى الشخصيات التي حول سعد تطلب منهم ترك القاهرة والإقامة في الريف وإلا قامت بنفيهم خارج البلاد وقد رفض قادة الوفد الإنذار وبالتحديد سعد زغول وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا وعاطف بركات ومكرم عبيد والذى جعلهم يرفضون الإنذار وتشدد في ذلك مكرم عبيد وبنفي مكرم عبيد تحول من وفدي سياسي إلى وطني ثائر، وبالطبع بعد عودته من المنفي صار أكثر قربًا لسعد زغلول.لا شك أن الجوالعام في مصر في ذلك الوقت كان يتسم بالحرية والوطنية وحقوق الإنسان، وكان السياسيون من أعالى القوم متمرسين على السياسة وكانوا أكثر ثقافة وتحضرًا من الآخرين أوأكثرهم تحضرًا وهذا عكس ما حدث في ثورة ٢٣ يوليوفالضباط حكموا مصر وهوما لم يكن مستحبًا؛ لأنه من النادر أن تجد ضابطًا مثقفًا أوحاصلًاعلى درجات عليا في العلوم السياسية أومن ذوي الخبرة من هنا تراجعت الكفاءات وذوي الخبرات وأعالى القوم للخلف ولولا أن عبد الناصر كان لديه مشروع قومى التف الجميع من حوله مما أخر التدهورلكن كان لا بد أن تحل هزيمة ١٩٦٧م فكشفت أن

الحنكة السياسية والدبلوماسية بل وحتى العسكرية لم تكن موجودة وجاء السادات بالتيار الإسلامي وبدت الكارثة أكثر وضوحًا في عهد مبارك. بالعودة إلى عصر سعد زغلول ففي ٣ إبريل ١٩٢٢م أعلن عن تشكيل لجنة الدستور من ثلاثين عضوًا وقد قام بتمثيل الأقباط الأنبا يؤانس أسقف الإسكندرية وتوفيق دوس وإلياس عواد وقلليني مهنى خمسة من ثلاثين عضوًا بينما الذين مثلوا الأقباط في لجنة المائة كانوا خمسة أيضًا ولا وجه للمقارنة سواء في العدد أومقاييس أخرى. قدم توفيق دوس اقتراحًا بأنه يجب أن تكون هناك كوتة للأقباط وكانت له مبرراته وكان د. عبد الحميد بدوي معارضًا لذلك ففي التصويت رفضت الأغلبية من مسلمين وأقباط الاقتراح وقد اعتبر سلامة موسى الكاتب المثقف أن ما حدث هو إنجاز لحركة ١٩١٩م ومن الغريب أنه عندما يطالب أحد اليوم بكوتة للأقباط يعاد استخدام هذه القصة وبالطبع إعادة هذه الأحداث في ظروف اليوم هوحق يراد به باطل، لأن قيادات البرلمان ليسوا على المستوى المطلوب سواء من الثقافة السياسية أوالتحضر المجتمعي ثانيًا لدينا حركة إسلام سياسي قصمت ظهر مصر وعادت بها إلى القرون الوسطى وإذا أردنا تكرار ما حدث فلنرجع ما كان يحدث إلى الوجود فنرى طه حسين وتوفيق دوس وسعد زغلول... إلخ أين هؤلاء من أشخاص لا يقفون لتحية العلم المصري في البرلمان ويستعيدون القصة عندما تذكر كوتة الأقباط، أليس هذا من سخرية القدر أومن مسخرة البشر ؟!

هناك حقيقة تاريخية تقول عندما تكون الدولة قوية ولديها مشروع قومي يضم الجميع تتوارى جميع النعرات الطائفية والعرقية والجنسية وهوما حدث في ثورة ١٩١٩م وما تلاها وما حدث أيام حكم ناصر من ١٩٥٤م حتى ١٩٦٧م، وكان سعد زغلول يحرص تمامًا على هذه الروح حقيقة وليس بموارية فقد كان يضم مجلس الوزراء قبطيين ويهوديًّا واحدًا وكان رئيس البرلمان قبطيًّا (ويصا واصف) كما ذكرنا من قبل، وبعد وفاة سعد اختير مصطفى النحاس رئيسًا للوفد ومكرم عبيد سكرتيرًا عامًا للحزب، وفي عام ١٩٢٨م أصبح مكرم عبيد وزيرًا للمواصلات لأول مرة في حياته ولقد حقق مكرم عبيد نجاحًا ملحوظًا سواء في تمثيله للوفد بالخارج أوبعمله كسكيرتير للحزب ولقد قام مكرم عبيد بزيارة لسوريا ولبنان وفلسطين وكان لديه الحس العروبي وألقى خطبًا نارية في بيروت ودمشق وشطورة والقدس وعكا وحيفا وتحدث أن جذور المسيحيين الفرعونية لا تتعارض مع القومية العربية، وقد اقترح مكرم عبيد إنشاء جامعة عربية قبل إنشائها بسنوات.

بدأت شعبية حزب الوفد[٧٣] في الانهيار عندما قدم السفير البريطاني إنذارًا إلى الملك يطالبه بدعوة النحاس لتشكيل الحكومة وذلك؛ لأنه لم يتضح موقف الوفد بالنسبة إلى ما إذا كان يتعين على مصر إعلان حالة الحرب إلى جانب الحلفاء أم لا وتركز الاهتمام الرئيس للوفد على ضرورة وجود حكومة شعبية عن طريق انتخابات ديمقراطية وكانت السلطات البريطانية في مصر على دراية كافية بالنزعة الشعبية المؤيدة للنازية وكان يمثلها أحمد حسين زعيم مصر الفتاة، وعزيز المصري، وعلي ماهر،

وكثيرون في الجيش والحكومة ولتفادي ذلك جاء الإنذار البريطاني للملك بدعوة النحاس لتشكيل الحكومة وقد ألحق هذا الإنذار إذلالاً للقصر وبداية النهاية لحزب الوفد الذى عاد إلى الصدارة بعد أربع سنوات من الغياب على أسنة الرماح أوعلى ظهر الدبابات البريطانية، وقد كان مكرم عبيد هومطبخ قرارات الوفد وتحديد توجهاته السياسية بدءًا من معاهدة ١٩٣٦م وحتى الإنذار البريطاني في فبراير ١٩٤٢م.

بدأ الانشقاق بين النحاس وعبيد عام ١٩٣٧م عندما فرض على ماهر رئيس الديوان الملكي الشيخ المراغي شيخ الأزهر على الملك فاروق بدعوة أن الوفد في قبضة الأقباط وذلك لإحراج النحاس وإظهاره كزعيم ضعيف الشخصية داخل حزبه بخضوعه للأقباط وكما نعلم أن تخريب أي عمل ناجح يأتي من خلال إثارة الفتنة بين أقباطه ومسلميه وفي تقرير للسفارة البريطانية عن زيارة المراغي لفاروق يقول إنه حديث مع الشيخ المراغي حول رفض الشيخ للنفوذ القبطي في مصر وأكد أن الأقباط أقلية عنصرية؛ لأن المسلمين سلالة عربية غالبًا وعبر السفير عن آماله في إرضاء المسلمين بالحد من نفوذ المسيحيين الأقباط وإلا العكس سيؤدى إلى إذكاء روح التعصب في مصر.

من هنا جاءت البدايات الأولى للخلاف بين النحاس ومكرم عبيد التي تطورت بعد ذلك بسبب شخصية مكرم عبيد لأنه كان يظن إن انفصل عن النحاس وكون حزبًا سوف يختاره الملك كرئيس وزراء ويشكل الوزارة؛ لأنه كان يشعر في نفسه أنه أفضل من كل رؤساء الوزارة الذين عاصرهم، وربما تلقى وعدًا من الملك بذلك من هنا جاءت الوقيعة بين الرجلين وقد

أرجعت السفارة الخلاف بين النحاس ومكرم عبيد إلى زواج النحاس من زينب الوكيل وهي سيدة مسيطرة مستبدة تريد أن تقوم بدور مهم في السياسة وكان النحاس في ذلك الوقت تحت استحواذ مكرم عبيد؛ ومن هنا لعبت زينب الوكيل دورًا لا يستهان به قام النحاس بتقديم استقالة الوزارة وإعادة تشكيلها بدون مكرم عبيد، ثم تم طرده من الحزب، وقام مكرم عبيد بكتابة الكتاب الأسود ذكر فيه فساد الوزراء الوفديين وركز على النحاس وزوجته وقد نوقش الكتاب في مجلس النواب ٢١ إبريل ١٩٤٣م ورد عليه النحاس واتخذ المجلس قرارًا بأغلبية الأصوات برفض مكرم وكتابه وتجديد الثقة في النحاس ومجلس الوزراء، ثم رفد عبيد من البرلمان بأغلبية ٢٠٨ أصوات ضد ١٧ صوتًا وكون مكرم عبيد حزبًا ضئيلًا أسماه الكتلة وهكذا انتهى الوفد وانتهى مكرم عبيد في وقت واحد بسبب الانشقاق بين النحاس ومكرم.

وصف الدكتور محمد محجوب الأديب[٧٤] المعروف مكرم عبيد بالقول: «إنه خطيب يؤثر بالعاطفة كالموسيقى، صديق مخلص، عدو جبار، ملاك في صداقته، شيطان في خصومته».

رحل مكرم عبيد عن دنيانا ٥ يونيو ١٩٦١م وكانت المرحلة التاريخية الذى كان هومن أبرز رجالها قد رحلت معه بثورة ١٩٥٢م، وألقى السادات الذى كان رئيسًا لمجلس الأمة في ذلك الوقت خطابًا في تأبينه بالكنيسة المرقسية مشيدًا بنضاله لأجل الاستقلال في عام ١٩١٩م وأنهى كلمته بالقول : "إن أبطال ٥٢ يعدون أبطال ١٩ أن يمضوا على طريق النضال الذى بدأه أبطال ١٩١٩م وضحوا من أجله". لكنهم لم يفعلوا وخاصة السادات.

في النهاية إذا كنا نريد تقييم حركة ١٩١٩م لا بد وأن نعترف بأنها أفرخت توجهًا وطنيًا مصريًا في كل ميادين الحياة في الفن والأدب والسياسة، وقدمت نماذج مصرية خالصة في فروع متنوعة، أنتجت سيد درويش في الموسيقي، ومحمود مختار في النحت، وتوفيق الحكيم في الأدب، وسلامة موسي في الفكر الاجتماعي، ومكرم عبيد في السياسة.

ثانيًا : لويس عوض(١٩١٥م-١٩٩٠م)

في النصف الثاني من القرن العشرين أزعم أنه لم يأت مثقف مصري في قامة لويس عوض، ذلك لأنه مصري حتى النخاع، مفكر لا يشق له غبار، ربما يكون هو أول وآخر من كان صادقًا مع نفسه والله والآخرين، فمعظم الأدباء والمفكرين والسياسيين والمشاهير في أي مجال كان عندما يجلسون؛ ليكتبوا مذكراتهم ينتقون النجاحات التي في حياتهم والعلاقات السوية وعندما يكونون أكثر صدقًا يتحدثون عن فشلهم في أمور ما وتغلبهم على هذا الفشل أوتجاوزه والأصدق هوالذى يرفض كتابة مذكراته حتى لا يكذب على نفسه والناس بعدم ذكر نقاط ضعفه أوالمحيطين به خاصة من أسرته، أما من يكتب بشفافية شديدة ودون خجل أووجل موقفه من فكرة الله وضعفاته الشخصية وعيوب أسرته.... فهوبكل المقاييس إنسان استثنائي عملاق وهو-فعلًا-كذلك وقد ذكرني لويس عوض بالفلاسفة المسيحيين في العصر العباسي الذين ترجموا الفلسفة اليونانية وكتب العلوم والطب إلى العربية والذين أسهموا في حواراتهم مع العلماء المسلمين في بيوت الخلافة في تقديم اللاهوت أوالفلسفة المسيحيّة باجتهادات بديعة مثل أبى الفرج الطيب ويحيي بن عدى وحنين بن إسحق وغيرهم الكثير

فأسهموا في إقامة حضارة عربية إسلامية مزدهرة وعظيمة ومنها أطلقت شرارة الإصلاح في أوروبا في القرون الوسطى، لقد كان ومازال لويس عوض من هذه السلالة العظيمة.

ولد لويس عوض(٧٥) في قرية شارونة من أعمال مغاغة محافظة المنيا وقضى أيام طفولته في الخرطوم حيث كان أبوه موظفًا بحكومة السودان.

قبل الابتدائي التحق بمدرسة الفرير بالمنيا، ثم الابتدائي والثانوي من مدرسة المنيا الابتدائية والثانوية وحصل على البكالوريا من القاهرة عام ١٩٣١م، وتخرج في كلية الآداب ١٩٣٣م، وأوفدته الجامعة إلى جامعة كامبريدج وحصل منها على درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي، في سبتمبر١٩٥٤م فصل من الجامعة مع أكثر من خمسين أستاذًا من المطالبين، بالديمقراطية ثم اعتقل عام ١٩٥٩م لمدة ١٦ شهرًا مع الشيوعيين وأفرج عنه ٢٤ يوليو١٩٦٠م، منح جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٩م كان وسط العقد بين عشرة من البنين والبنات ونشأ في أسرة من الطبقة المتوسطة، كان أبوه رجلًا مثقفًا لا يهتم كثيرًا بالدين يشرب الخمر ويلعب الميسر قال عن أبيه : "لم أر أبي يبكي إلا مرتين : يوم وفاة سعد زغلول ٢٧ أغسطس ١٩٢٧م ويوم تنفيذ حكم الإعدام في الفوضويين الإيطاليين ساكووفانزيتي في شيكاغو بتهمة قتل رجلين في أمريكا وبالطبع بكاء الأب على سعد زغلول كان مفهومًا أما بكاؤه على الفوضويين لم يفهمه سوى عندما أفهمه أبوه أنهما أبرياء وأن البوليس لفق لهما التهمة لأنهما قادا عمال شيكاغو لإضراب" ولقد اعتبر ذلك اليوم عيدًا للعمال في كل العالم.

اختلف الجميع حول لويس عوض؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يقرأوه بعمق فمنهم من قرأه برؤية تعصبية؛ لأنه مسيحي ومنهم من رآه شيوعي ومنهم من رآه غير ذلك، يقول لويس عوض عن هذه الظاهرة التي أصبحت عادية ضد أي مفكر عميق النظرة صادق مع نفسه.

من أراد فكرة مجملة عن صورتى(٧٦) في ذهن نقادي فهي إني باختصار،في يقين بعض أدباء اليسار قائد الفكر اليميني في العالم العربي، كما كتب عني الشاعر المبدع عبدالوهاب البياتي وذلك الناقد اللبناني الشريف القلم العفيف البيان حسين مروة، وأنا ـ باختصار ـ في يقين بعض أدباء اليمين قائد الفكر الماركسي اليساري الملحد في العالم العربي كما كتب عني نقاد مجلتى "الرسالة" و"الثقافة" وغيرهما، وفي يقين فئة ثالثة أني آخر قنصل للعالم المسيحي في مصر منذ الحروب الصليبية كما كتب عني الأستاذ محمود شاكر في كتابه " أباطيل وأسمار" وفي يقين فئة رابعة أني داعية فكري للقومية المصرية الفرعونية وعدوفكري للقومية العربية كما روي عني الأستاذ ميشيل عفلق ونقاد مجلتى "الرسالة " و"الثقافة". وكان آخر نعت نعت به على سبيل الدعابة أنا قنصل أثينا وأسبرطة في ديار مصر كما وصفنى صديقي الفنان المبدع سعد الدين وهبة في مجلة "آخر ساعة" في شهر ديسمبر ١٩٦٥م لأني ترجمت "ضفادع " أرسطوفانيسو" أجا ممنون" لأسخيلوس وبعض نقاد "الرسالة" و"الثقافة" وغيرهما أوحوا فيها كتبوا أنى على رباط بتيار صهيوني مشبوه لأني نشرت منذ نحوعامين قصيدة في مجلة "حوار" اللبنانية الصادرة عن المنظمة العالمية لحرية الثقافة وهي منظمة يمثلها بيننا الدكتور إبراهيم بيومي مدكور سكرتير عام مجمع اللغة العربية

ثم يعلق قائلًا لكني في الحق لم أكن إلى حين قريب أوإلى ١٩٥٦م على الدقة أتصور إني أمثل كل هذه الخطورة في الثقافة العربية أوعلى الثقافة العربية بحيث يصدر عني في عام واحد ثلاثة كتب هي "الغزوالفكري" لجلال كشك "وأباطيل وأسمار" لمحمود محمد شاكر، و"دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي "لحسين مروة وبالطبع هذا أمر طبيعي عندما ينبت كاتب مثقف عبقري في وسط عالم غير مثقف كفاية؛ حيث يصبح فيه النصف مثقف أوالربع أوالعشر قادر على مهاجمة المثقف الحقيقي لا لشيء إلا أن الفارق بينهما هوأن المثقف هومن يجمع الأجزاء في رؤية متكاملة نحوالمجتمع والعالم بينما غيره لا يرى العالم إلا من خلال أنبوب ينظر فيه إلى العام المحيط سواء أكان هذا الأنبوب عقيدة دينية أم فكرية أم سياسية لذلك لا بد أن تعطى لمثل هؤلاء بعض العذر.ومن الأمثلة لذلك أنه في عام ١٩٧٨م دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر وطالب بأن تنفض يدها من مشكلات الأمة العربية وتعيش على الحياد كسويسرا وأيده في هذه الدعوة الدكتور حسين فوزي وكان طه حسين من قبل صرح بأننا دولة نتبع دول البحر الأبيض المتوسط فيجب أن نعيش حضارتهم مثل : إيطاليا واليونان وتكون علاقاتنا مع هذه الدول وليس مع الدول العربية وأيده في ذلك أحمد لطفي السيد إلا أن لويس عوض اختلف معهما(توفيق وفوزي) ودعا إلى النظر للمنطقة العربية كوحدة جيوبولوتيكية لا ينفصل أمن دولة فيها عن الأخرى وقال إن الدعوة الانعزالية ما هي إلا أسطورة لا تقل تطرفًا عن الدعوة إلى الوحدة الاندماجية القائمة على العروبة العرقية والعنصرية الملتهمة لكافة ما في المنطقة من قوميات، وبالطبع ثار عليه أصحاب النظرة

الأنبوبية يتهمونه بأنه يتكلم كالمبشرين الذين يسعون لنسف كياننا القومي والديني.

لقد تعلم لويس عوض وتكون ثقافيًا على أيدى العقاد وسلامة موسى وطه حسين، ولكي نفهم لويس عوض جيدًا نستطيع القول إن تكوينه الفكري يمتد إلى أعماق التاريخ الثقافي المصري، ثم أخذ تشكيلها يكتمل من حركة التنوير العقلانية والتي بدأها رفاعة الطهطاوي ومريديه.

ونستطيع القول - بحسب قراءات لهؤلاء الثلاثة- إن الأعمق عباس العقاد والأقدر على التعبير طه حسين والأكثر ثقافة سلامة موسى، أما رأى لويس عوض فيهم فيقول - بقدر ما وجدت طه حسين مهيبًا، وعباس العقاد شامخًا وجدت سلامة موسى متواضعًا غزير العلم بغير تكلف، والعقاد مثاليًا متعاليًا عميقًا وشامخًا وسلامة موسى علميًا باردًا وطه حسين عقلانيًا متأججًا[٧٧]، من هنا سوف نتحدث عن لويس عوض والحقب التاريخية التى عاصرها فقد كان طفلًا أيام ثورة ١٩١٩م وشابًا قبل ثورة ١٩٥٢م ورجلًا ناضجًا أيام حكم عبد الناصر ثم السادات.

وقد كانت أيام تكوينه من الثلاثينيات وحتى الخمسينيات وفيها تكون ذهنه وتوجهاته السياسية والدينية فهومع الليبرالية الفكرية والعقلانية له موقف واضح من الدين كان ـ تقريبًا ـ هوموقف أساتذته العقاد وطه حسين وسلامة موسى، وبالطبع كان كأي مثقف يتحدث بطريقة مختلفة يطلق عليه الأصوليون لقب زنديق، وقد استخدم هذا التعبير سخرية من الأصوليين فقال إن سلامة موسى لم يكن مسيحيًا إلا بالميلاد وكان يضع جميع الأديان التوحيدية في سلة واحدة وكان يتكلم عن الثالوث

الأوزوريسي كما يتكلم عن الثالوث المسيحي ويعتقد أن الأديان جميعًا الإبراهيمية وغيرها ظواهر أنثروبولوجية لذلك فهويرى سلامة موسي صريحًا في زندقته ووجد العقاد يغطي زندقته بمقولات فلسفية فيؤله الشعراء ويساوي بين وحيهم ووحي الأنبياء ويدعوللفرديه كانت زندقة العقاد من منطلق مثالي وزندقة سلامة موسى من منطلق هاوٍ، أما طه حسين كانت آية زندقته كتابه في الشعر الجاهلي الذي قال فيه صراحة أن قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة ليست حقيقة تاريخية وكان رفضه وليدًا للعقلانية والمنهج العلمى والمعنى هنا هوأن كل واحد منهم كان له فهم خاص عن الدين أوالأديان وهكذا كان لويس عوض أيضًا.

في ظل هذا المناخ من الحرية كانت رؤية لويس عوض تجمع بين العدل الاجتماعي والحرية، وقد أطلق على ذلك الفكر الاشتراكية الديمقراطية وهكذا كانت حياته قبل ثورة ١٩٥٢م هي أيام التكوين.

ثانيًا: لويس عوض وثورة يوليو

عاد لويس عوض من بعثته في الخارج عام ١٩٤٠م وهومقتنع بمبدأ الحرية؛ حيث ارتبط بالشعراء الثائرين مثل شيلي صاحب مسرحية "بروميثيوس طليقا"[٧٨] وقد قام لويس عوض بترجمتها إلى العربية، وكان يردد مقولة شيلى "أرجوأن يؤذن لى في هذا المقام بأن أعترف بأني أحمل بين جوانحي شهوة لإصلاح العالم".

وبجانب الحرية، إنحاز عوض للاشتراكية الديمقراطية وكذلك تحدث باحترام شديد عن الماركسية، ولكنه لم يكن يعتنق دموية الماركسيين وهذا

واضح من روايته (العنقاء) أوتاريخ حسن مفتاح[٧٩] فقد اختار بطلها من الشيوعيين، والذي قاد انقلابًا دمويًا لكي يستولى على الحكم وبعد قيامه بقتل شخص برىء وتقمص شخصيته وبعد إعداد خطة الانقلاب وتوزيع الأدوار لتنفيذ الثورة الحمراء التي تغرق البلاد كلها في الدم تنكشف المؤامرة ولا يجد حسن مفتاح أمامه إلا الانتحار وفي تعليقه على الرواية قال إنه كانت أمامه أمثلة حية للعنف الدموي محمود العيسوي قاتل أحمد ماهر، والإخوان المسلمون الذين نشروا الذعر في الوادي بقنابلهم، ويقول لقد فكرت أن أجعل البطل من الإخوان المسلمين لكني لم أفعل لأني لم أخالطهم بصفة شخصية ولا أعرف نسيج حياتهم اليومية.

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليوكان لويس عوض بالخارج؛ حيث حصل على منحة دراسية لمدة سنتين في جامعة برنستون للبحث العلمي وقد توجس لويس عوض الثورة منتظرًا ما الذي ينتج عنها من قرارات تعبر عن سياسات واستراتيجيات خاصة بسبب تجربة الانقلابات العسكرية في أمريكا اللاتينية، وكان لويس عوض يتابع الثورة المصرية وقد أيد خلع الملك فاروق وإعلان الجمهورية وتفاءل بقانون الإصلاح الزراعي، لكن ما جعله يتشائم اختيار على ماهر كرئيس للوزارة وتعاون الثورة مع فقيهين دستوريين هما عبد الرازق السنهوري، وسليمان حافظ، والاثنان معروفان بعدائهما للدستور والنظام الديمقراطي، ثم لما وقعت صدمة إعدام خميس والبقري (من عمال كفر الدوار والذي تحدثت عنهما الصحف الأمريكية بأن المحاكمة كانت عسكرية وشنقًا علنيًا)، وكذلك لم يهضم لويس

إلغاء دستور ٢٣ وحل الأحزاب وبعودة لويس إلى مصر قررت الثورة أن تؤسس لنفسها جريدة (الجمهورية) كوسيلة لنشر مبادئها رافضة صحف (العهد البائد) المصطلح الذى انتشر في ذلك الوقت وكان رئيس تحرير الجريدة حسين فهمي الذي اتصل بلويس عوض ليكون مشرفًا على الصفحة الأدبية،واختار لويس عوض لصفحة الأدب شعار -الأدب في سبيل الحياة- كبرنامج عمل، ولأول مرة تظهر قضايا مثل هل الأدب للأدب أم الأدب للحياة أو لا بد وأن يكون وراء كل عمل أدبي هدف أخلاقي أوسياسي أم أن الأدب عليه أن يعبر عن ذاته دون أن تكون هناك فكرة أخلاقية أوسياسية أواجتماعية تلح عليه، بل عليه أن يتحرر ليبدع، ثم فجر قضية حكم الشعب أم حكم النخبة مع د. سهير القلماوي ولقد اشتدت معارك(٨٠)لويس عوض عنفًا بخوض إسماعيل مظهر وطه حسين والعقاد ومندور وسلامة موسى وسهير القلماوي إلى الحلبة وفي منتصف مارس ١٩٥٤م ذهب أنور السادات إلى جريدة الجمهورية ودخل على لويس عوض في مكتبه قائلًا "يا دكتور كفى كتابة في الأدب الوطن في خطر أكتب لنا رأيك في الأزمة القائمة(أزمة مارس) والتي وقعت نتيجة الصراع بين محمد نجيب وعبد الناصر على الحكم، وهل يكون ديمقراطيًّا أم دكتاتوريًّا مدنيًّا أم عسكريًّا؟

وكان رد لويس أنه لا يريد أن يقحم نفسه في السياسة لكن السادات أصر فاشترط ألا تحذف كلمة من مقالاته لا بيد الرقيب أوبغيره وقد وعده السادات بذلك، فكتب أربع مقالات بعنوان (دستور الشعب) دعا في نهايتها قادة الثورة أن يعودوا لثكناتهم ويخلعوا الكاكي وينزلوا الشارع لا

كعسكريين، ولكن بوصفهم زعماء من أبناء الشعب، لكن المقال الأخير نزل في الطبعة الأولى ثم رفع بعد ذلك وتدهورت الأوضاع ووقع الاعتداء بالضرب على السنهوري رئيس مجلس الدولة فقدم لويس عوض استقالته للسادات في آخر مارس عام ١٩٥٤م ولقد ثبت بعد ذلك أن سبب الأزمة هو تحالف محمد نجيب مع الوفد والإخوان لسرقة الثورة والتخلص من عبد الناصر والمعروف أن محمد نجيب أتى به الثوار ليكون واجهة ليس إلا لذلك كان موقف لويس عوض خاطئًا خاصة وأن الثوار أعطوه فرصة ليعيد دراسته للأمر ويعيد النظر في استقالته فقد طلب منه رئيس التحرير بناء على توجيه من السادات أن يعتكف في منزله شهرًا أواثنين أوثلاثة وتستمر مكافأته الشهرية من جريدة الجمهورية وكانت ٦٠ جنيهًا، ولكنه رفض وهكذا تم فصله من الجامعة في سبتمبر ١٩٥٤م مع ٥٠ من الأساتذة والمدرسين وفي ٢٨ مارس تم اعتقاله لمدة سنة و٦ أشهر وأفرج عنه في ٢٤ يوليو ١٩٦٠م، من بعدها عاد للإشراف على صفحة الأدب بجريدة الجمهورية لمدة عام بدءًا من يناير ١٩٦١م، ثم انتقل إلى جريدة الأهرام التي استمر فيها حتى وافته المنية.

على الرغم من أن كثيرين يعتبرون أن حكم عبد الناصر كان دكتاتوريًا عنيفًا فإن الأهرام في ذلك الوقت كان الواجهة الثقافية الرحبة لجميع الآراء بفضل وجود محمد حسنين هيكل رئيسًا للتحرير والذى كان قريبًا من عبد الناصر، والذي ساعد على ذلك كثيرًا عبد الناصر نفسه حيث كان مثقفًا قارئًا نهمًا فعندما أراد البعض من رجال الثورة منع أم كلثوم من الغناء بحجة أنها غنت للملك والعهد البائد كانت إجابته عليكم هدم الأهرامات

وأبي الهول لأنها كانت في ذلك العهد، وعندما قامت ثورة رجال الدين والأزهر ضد رواية(أولاد حارتنا) وطلبوا منعها رفض عبد الناصر واستمرت الرواية حتى نهايتها وليس أدل على جوالحرية الأدبية والثقافية في ذلك أكثر من القضايا التي أثارها لويس عوض ويوسف إدريس وزكي نجيب محمود وغيرهم من أعلام ذلك الزمان وكان الأهرام بحق ديوان الثقافة المعاصر، ومن أهم هذه القضايا كانت قضية" رسالة الغفران لأبي العلاء المعري في القرن الخامس الهجري العاشر الميلادي، ولقد كان المعري معاصرًا لابن سينا (٩٨٠ م -١٠٢٧م) والبيروني (٩٤٠ م - ١٠٠٢م) وأبي حيان التوحيدي وكان قد تثقف على الكتب التي ترجمت في العصر العباسي عن اليونانية-كما ذكرنا آنفًا - ورسالة الغفران (٨١) تحكي على لسان بطلها ابن القارح أنه قام بزيارة الجنة، ثم انتقل إلى الجحيم، ثم عاد إلى الجنة ثانية، وقد التقى في رحلته بشعراء متنوعين ومتعددين ومختلفين ويحاول في حواره معهم أن يستخرج فلسفة ما وينتقد شعرهم ويوازن بين الواحد والآخر في توجهاته وإتقانه لنظم الشعر،وهذا النوع من الأدب يدعي الإسخاتولوجي؛ أي علم الأخرويات في الديانات التي تؤمن بالآخرة، وبالطبع في دراسة لويس عوض كان لا بد وأن يعود لأدبيات الأخرويات في التاريخ، ولقد ثبت أن هناك عملًا عربيًا آخر بعنوان "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي (٣٨٢م - ٤٢٦ م) وكان معاصرًا لأبي العلاء المعري.

ولذلك كان لابد من العودة إلى التراث اليوناني إن كان فيه ما يشابه رسالة الغفران وهوما أثبته لويس عوض بعرضه لكوميديا "الضفادع" لأرسطوفانيس والتي يصور فيها رحلة الإنسان للعالم الآخر وقد عرضت

هذه المسرحية عام ٤٠٥ ق. م وأيضا نزل فيها أحد آلهة اليونان ليصعد منها شاعرًا يعود به إلى الحياة ليعلم البشر الحكمة وفي شرحه للآخرة ذكر أن هناك بحيرة ضخمة لا بد من عبورها؛ ليجد بعدها الجحيم المليء بالمستنقعات والأوحال والحيوانات الشرسة والحيات، ثم بعدها تكون الجنة ولانتقال الأرواح من ضفة إلى أخرى يتم في قارب يقوده عجوز وفي الجنة يري أهل النعيم يصفقون ويهللون سعداء، وقد بحث هذا الإله عن الشاعر الذي يريد إصعاده منها بعد حوارات كثيرة مع شعراء آخرين يوازن بينهم إلا أنه في النهاية وجد أنه من الأفضل أن يخرج بشاعر آخر اكتشف أنه أفضل لعصره من الشاعر الذي أراد أن يصعده ولا ننسى في هذا المجال الأوديسا لهوميروس ١٨٠٠ق.م وهي أقدم وتمثل في إحدى حلقاتها زيارة أوديسوس الجحيم؛ حيث التقى أبطال اليونان وملوكهم ليعرف طريقه إلى وطنه.

ثم ينتقل لويس عوض للمقارنة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية لدانتي في القرون الوسطى وبالطبع قامت الدنيا ولم تقعد وتصدى للويس عوض مجموعة من النقَّاد على رأسهم الأستاذ محمود شاكر في مجلة "الرسالة" من يونيو ١٩٦٤م حتى يوليو ١٩٦٥م وبالطبع كان الأزهر والكنيسة ضد ما كتبه لويس عوض، حيث يسخر من الجنة والجحيم والعذاب الأبدي وهي نصوص مقدسة... إلخ.

إلا أننا نرى أن دراسات لويس عوض النقدية أفادت الثقافة العربية بغنى عميق ورائع وهي دراسات محايدة ثقافية تنير الأذهان ولا علاقة لها بالأديان لكن الخلط لدينا لا حدود له.

وقضية ثانية[٨٢] أثارها لويس عوض هي الدعوة إلى استخدام اللغة العامية في الشعر وأصدر ديوانًا "بلوتولاند وقصائد أخرى من شعر الخاصة" وأيضًا تصدى لكسر عمود الشعر وتطوير اللغة باستخدام العامية الأستاذ محمود شاكر في حين وقف إلى جانبه شيخ النقّاد في ذلك الوقت الدكتور محمود مندور، والأستاذ رجاء النقاش، والدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامي والمثقف المتميز، وأحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم.

وقضية ثالثة الصراع بين القومية المصرية والقومية العربية، ورابعة الإيراني الغامض جمال الدين الأفغاني وخامسة عن كتابه مقدمة في فقه اللغة العربية.

ونحن هنا لسنا بصدد التعرض لمثل هذه القضايا فما كتب عنها موجود في المكتبات كذلك الحوارات من حولها لكن الغرض من عرضنا لها هو أن لويس عوض واحد من المصريين المثقفين المسيحيين الذين أسهموا في ثقافة الأمة المصرية والعربية إسهامًا عظيمًا لا يمكن التنكر له، وكل ما يحتاجه لويس عوض كغيره من المثقفين العظماء الذين اتهموا بالكفر مثل : طه حسين، وأحمد لطفي السيد، وعباس محمود العقاد، وسلامة موسي وغيرهم، أن نقف أمامهم باحترام وأن نناقش أفكارهم بموضوعية، فالزبد يذهب جفاءً وما ينفع الناس يبقي في الأرض.

ثالثًا : إستر ويصا رسالة إلى المرأة المصرية[٨٣]

في ٧ أكتوبر قامت السيدة إستر فهمي ويصا بزيارة البيت الأبيض الأمريكي تلبية لدعوة رئاسية للتحدث عن المرأة المصرية، عن هذا اللقاء كتبت السيدة "الينور" زوجة الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت روزفلت

في عمودها الصحفي "يومي" عن إستر "أعتقد أن النساء في كل مكان سيشعرون بإحساس وثيق من القرابة في اهتماماتها ومثلها العليا وأتمنى أن تتاح لها الفرصة لتتحدث في أماكن كثيرة للأمة". ولدت إستر أخنوخ فانوس الشهيرة بإستر فهمي ويصا في ١٩ فبراير ١٨٩٥م وتوفت عام ١٩٩٠م من أسرة ثرية معروفة في أسيوط، في سن السادسة بدأت تعليمها الأولى في المدرسة الإنجيلية، والتي كانت تسمى مدرسة الإرسالية الأمريكية حينئذ، وفي سن الخامسة عشر، كانت تجلس مع الفلاحين وتتحدث عن الله الواحد الذي نعبده جميعًا فذهب أحد المستمعين إلى شيخ المسجد وأخبره بذلك فعاد الشيخ معه وأخذ يستمع وكان يعجب من الحين إلى الآخر قائلا : "إنها لم تقل أي شيء خطأ" وقد تعرفت على هذا الشيخ بعد ذلك واعتادا أن يتناقشا معًا، ولقد اشتهرت في ذلك الوقت بأن لها رسالة لتوحيد الأديان وجاء ذلك في كتاب "أبناء الفراعنة الجدد" من تأليف s. H leader عندما عرض عليها الزواج بابن عم والدتها كان ردها الغريب - في ذلك الوقت- أنها ترغب في معرفته بصورة أفضل، وامتدت الخطبة لمدة عام تقريبًا وتزوجا عام ١٩١٣م.

أرسلت خطابًا إلى مجلة "أبوالهول sphinx" في عددها الصادر عام ١٩١٨م ردًا على مقال وكانت به إساءات لمصر والمصريين، وكانت في ذلك الوقت بلغت الثالثة والعشرين من عمرها تقول فيه : يقول الكاتب إنه يتعامل فقط مع نساء الطبقات العليا، لذلك فنحن نسلم أنه يتعامل مع المرأة القبطية (المسيحيّة) من نفس الطبقة... وأستطيع القول إنه لا توجد فتاة قبطية واحدة من جيلي ممن أعرف لم تتلق تعليمًا جيدًا على نحوملائم؛ بل إن الجزء الأكبر من هذا التعليم يعادل تعليم أي فتاة سورية أومصرية

مسلمة تعلمت في مصر، ولكي نتحقق من ذلك إذا أعد تقريردقيق للفتيات القبطيات المقيدات بالمدارس الثانوية، معظم الفتيات من الطبقة العليا والمتوسطة يدرسن الإنجليزية والعربية والفرنسية والموسيقي، ويسرني القول إن الفتيات المسيحيات يهتممن بالعربية بنفس الدرجة التي تهتم بها المسلمات صحيح عدد قليل يتعلمن في الخارج سواء في إنجلترا أوفرنسا وهذا الأمر لا أثنى عليه؛ لأنه ـ في رأيي ـ يجعل الفتيات المصريات غير راضيات عن حياتهن في مصر بعد عودتهن.

وهنا أسمح لنفسي بأن أنصح أخواتي ونساء بلدي بألا يقتفوا آثار ما نسميها بالحضارة على نحوأعمي؛ لأننا سرعان ما نقترب من حجر العثرة وأكثر إفادة لنا أن نكتب الأشياء الصالحة في الأمم وفي الوقت نفسه نتمسك بأخلاقنا القديمة وأفكارنا".

يقول الكاتب إن أفضل معيار لقياس مدى رقى أحد السكان الوطنيين هوزواج بناته برجال أجانب ذى حضارة أرقى؛ لأنه يوجد في كل أمة بعض العادات الخاصة بها والتي تحافظ عليها ولكن في الوقت نفسه يمكن أن تكون محتقرة لدى أمة أخرى وهذا يؤدى إلى سوء تفاهم بين أفراد الأسرة، ومن ثم فمن المستحسن أن تحافظ كل أمة على ما لديها فإذا تم نوع الزواج الذي يحبذه الكاتب في مقاله فإن هذا العالم سيصبح مختلطًا ومختلفًا تمامًا عما هوعليه الآن.

من هذا الخطاب يمكننا أن ندرك مدى النضوج لفتاة مصرية في عامها الثالث والعشرين.

في عام ١٩٦٩م عقد الرئيس جمال عبد الناصر مؤتمرًا للاحتفال بمرور ٥٠عامًا على تحرير المرأة المصرية وتخليصها من الحجاب ودعيت وفود من الحركات النسائية العالمية وكان من بين المتحدثات ممثلات لبنان والسودان والكويت والعراق وسوريا وألقت مس إيفا بلومر ممثلة الاتحاد النسائي العالمي، وصديقة السيدة هدى شعراوي (مؤسسة الاتحاد النسائي المصري) وكذلك ألقت السيدة أمينة السعيد خطابًا عن كيف ثابرت المرأة المصرية إلى أن حصلت على حقوقها السياسية.

في هذا الاحتفال كرَّم الرئيس جمال عبد الناصر أربع نساء اللاتى اشتركن في ثورة ١٩١٩م من أجل الاستقلال بإهدائهم "وسام الكمال" وهن : هدية بركات، وإحسان القوصي، وإستر فهمي، وجميلة عطية.وقد لخصت السيدة إستر فهمي ويصا نضالها في الكلمة التي ألقتها أمام الرئيس عبد الناصر في الاحتفال ونصها كالتالي : "سيداتي سادتى اليوم ونحن نحتفل بيوبيل تحرير المرأة المصرية وتخليها عن الحجاب، أود أن أذكر الظروف والأحداث التي توالت في هذا الصدد، فإن قضية تحرير المرأة تبناها قاسم أمين والسيدة باحثة البادية، ولكنهما لم يتوصلا إلى أي نتيجة مرضية، ولذلك فحينما قامت ثورة ١٩١٩م تحت قيادة سعد باشا زغلول لعبت النساء دورًا مهما فيها وقد أتيحت لهن الفرص لتحقيق آمالهن.

سأقص ما حدث من خلال تجربتي الشخصية... في يوم من ذات الأيام حضر صديق لنا وهومكرم عبيد المحامي ليقابل زوجي، وأخبرنا أن سعد زغلول باشا وبعض زملائه ينوون الذهاب إلى إنجلترا؛ ليطلبوا

من الحكومة البريطانية أن تلغي الحماية عن مصر وأن تمنحها الاستقلال التام، وقد أرادوا أن يعرفوا موقف الأقباط من هذه الخطوة فعبرنا عن عظيم حماسنا لهذا المشروع ووعدنا أن نتعاون بإخلاص.فيما بعد ذهبت إلى أسيوط مع أولادي، وفي اليوم التالي قبضوا على سعد زغلول وزملائه ونفوهم إلى مالطة، وقد تظاهر الطلبة في القاهرة، فأطلق الجنود البريطانيون على المتظاهرين النار، وتأثرت مشاعري بصورة كبيرة لدرجة أنى كتبت التماسًا شعريًا للرئيس ويلسون أعرض عليه قضيتنا ونصه كالتالي : "قدمنا أربعة لهذه القضية، وإذا لزم الأمر سنقدم أربعمائة، أربعة آلاف، أربعة ملايين لتحرر الأربعة، وثلاثة أضعاف هذا العدد مصممون على نيل العدل على أرضنا، شيوخنا سيستعيدون شبابهم، رجالنا شجعان، ونساؤنا سيتحولون رجالًا، وأطفالنا سيكبرون وسيتحدون جميعًا للنضال من أجل قضيتنا المصيرية".

وقررت أن أعود للقاهرة في الحال فقالت أمي :"لقد وصلت للتوفكيف ترحلين بهذه السرعة ؟فقلت لها : "إن لم أذهب الآن فلن أستطيع أن أسافر فيما بعد " وكان ما توقعته صحيحًا لأن أعمال الشغب اندلعت، وحطمت السكك الحديدية، وقطعت كل وسائل المواصلات بين القاهرة والوجه القبلي لفترة طويلة وفي أثناء ذلك كانت الثورة تغلى وأعمال شغب في كل مكان، وإضرابات ومظاهرات في جميع أرجاء البلاد. وعند وصولي إلى القاهرة توجهت لمقابلة حرم سعد زغلول باشا وعبرت لها عن تعاوننا الكامل المخلص في الحركة حتى يتم الإفراج عن القادة، وحتي تحصل بلادنا على استقلالها وعرضت عليها الالتماس الذي كتبته

للرئيس ويلسون فوافقت عليه وأخبرتنى أن أحصل على توقيع ثلاث سيدات على هذا الالتماس وأن أرسله للرئيس ويلسون على الفور.

بعد بضعة أيام تلقت خالتي السيدة روجينا خياط رسالة هاتفية تقول لها إن كانت تحب بلادها فعليها أن تذهب إلى بيت معين في شارع قصر النيل، فذهبنا في الصباح التالي إلى هذا العنوان قابلتنا سيدة مهيبة فنظرت إلينا وقالت :"ما هذا ؟ أين البرانيط ؟ هل أنتن ثلاثة فقط ؟"وبكلمة "البرانيط" كانت تعني السيدات القبطيات وكانت السيدة الثالثة هي إستر منجبادي ترتدي برنيطة والبرانيط كانت تستخدمها السيدات اللاتي تحررن من الحجاب منذ أربعين عامًا، فأجابت خالتي : "نعم صحيح إننا ثلاث ولكن كل منا تساوي ألفًا" وكان يوجد المئات من السيدات في هذا المنزل كلهن يلبسن الحجاب، فوقعن على الاحتجاجات المعدة وخرجن في مظاهرة كبيرة حاملين الأعلام والشعارات وبعد مسافة قصيرة أوقفنا الجنود الإنجليز وأحاطوا بنا موجهين بنادقهم بحرابها إلينا، وبدأنا نعترض محتجين على هذا التصرف فقالت إحدى السيدات مشيرة إلى صدرها : "اقتلوني إن أردتم" وبعد أن أوقفونا لمدة ساعة تحت الشمس الحارة سمحوا لنا بالتفرق والعودة إلى بيوتنا، وفي نفس المساء زارتني ثلاث سيدات فضليات: حرم رياض باشا، وحرم عمر سلطان باشا، وحرم أبوأصبع بك وعبرن عن إعجابهن بموقفي أمام الجنود الإنجليز، وطلبن مني أن أنضم إليهن في قضية تحرير مصر، وفي اليوم التالي قمن بتقديمي إلي السيدة هدي شعراوي، وقررن أن نشكل لجنة تمثل نساء مصر لنعمل جنبًا إلى جنب مع الوفد، وعقدنا اجتماعًا كبيرًا في الكنيسة المرقسية فيما بعد لأن

الاجتماعات السياسية كانت محظورة فكان هناك قرابة ثلاثة آلاف امرأة صوتن لصالح اللجنة وتم انتخاب السيدة هدي شعراوي رئيسة اللجنة وفكرية حسنى، وإحسان القوصى وأنا لسكرتارية اللجنة.

بدأنا عملنا بإرسال الاحتجاجات، وكتابة المقالات في الصحف اليومية، وكان لعملنا قيمة عظيمة، وبعد الإفراج عن سعد زغلول باشا من مالطة عقدنا اجتماعًا كبيرًا احتفالًا بعودته والترحيب به وبرفاقه وحين وقفت فكرية حسني لتلقي خطابها وحيث إنها كانت محجبة قام سعد زغلول ورفع عنها الحجاب ومنذ ذلك الحين كانت النساء تتجول بلا حجاب، وفي يوم آخر كنا مدعوات في مسجد لاجتماع سياسي آخر وألقينا الخطب هناك، وكانت هذه المرة الأولى التي تدخل فيها النساء إلى المسجد مع الرجال وحين نفي سعد زغلول باشا وثلاثة قادة آخرون إلي سيشل كتبنا احتجاجات عدة إلى اللورد اللنبى ندافع عن قضيتنا ونطالب بالإفراج الفوري عن زعمائنا، وحين قبض على أعضاء آخرين في الوفد وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة وحيث كانوا يقاسون من ظروف قاسية كتبنا إلى اللورد اللنبى نوضح هذه الحقائق ونطالب أن ينقلوا إلى أماكن أكثر راحة، فأمر أن ينقلوا على الفورلأماكن أخرى ذات أحوال أفضل، وهنا يجب أن أعترف أن اللورد اللنبى كان مهذبًا جدًّا معنا في ذلك الوقت، وغالبًا ما كان يرد على رسائلنا بخط يده ومازالت بعض هذه الخطابات موجودة بحوزتي.

عندئذ بدأنا نحن النساء في تكوين جمعيات للرعاية الاجتماعية، وفي إحدى هذه الجمعيات التي تم افتتاحها في إبريل عام ١٩١٩م تحت اسم "جمعية المرأة الجديدة". وهي لاتزال قائمة للآن نجد مدرسة وورشة

خيرية ومركز تدريب الممرضات وهذه الجمعيات تعد الآن بيتًا للمسنين والمعوقين، وفي عام ١٩٢٣م تم افتتاح "الاتحاد النسائي" تحت قيادة السيدة هدى شعراوي، واشتركت في العديد من المؤتمرات العالمية، وهذه الجمعية بها ـ أيضًا ـ ورشة خيرية، وهي لاتزال تقدم بعض الأعمال الاجتماعية الجيدة إلى الآن أما جمعية"مبرة محمد على"، فقد تم افتتاحها في عام ١٩٠٨م، ولها عدد من المستشفيات في المدن الكبيرةوالأقاليم وبالإضافة لهذا، فقد تم تكوين عدد من منظمات الرعاية الأخرى ويوجد الآن أكثر من مائة وخمسين جمعية نسائية خيرية مختلفة، علاوة على كثير من الجمعيات الأخرى حيث تعمل المرأة جنبًا إلى جنب مع الرجل.

عندئذ فتحت الجامعات أبوابها على مصراعيها أمام الفتاة المصرية، ولدينا ألوف مؤلفة من خريجات الجامعات، منهن الآن الطبيبات والمحاميات والمدرسات والناظرات والمهندسات والصيدلانيات والزراعيات والموظفات المدنية... إلخ ويوجد كذلك وزيرة في مجلس الوزراء بفضل ثورة ١٩٥٢م بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، ما أكبر الفارق بين امرأة اليوم وامرأة الأمس حين كانت الفتاة ذات العشرة أعوام تنزع من المدرسة وتمكث في المنزل حيث كانت لا تري أي رجال باستثناء أبيها وإخوتها، وكانت لا ترى خطيبها إلا عشية الزواج أما الآن فقد اختلفت الأوضاع فهي تذهب إلى كل مكان وتقابل الرجال، وتعمل جنبًا إلى جنب معهم وتذهب إلى كل مكان مع خطيبها، كل هذا التحول جاء نتيجة مشاركتها في ثورة ١٩١٩م، ومن الخطوة الأولى التي اتخذتها في المظاهرة مرتدية الحجاب في شوارع القاهرة ومطالبتها بالاعتراف بحقوقها

وحريتها، لذلك الآن تتمتع نساء مصر بالحقوق الكاملة سواء أكانت مدنية أم سياسية كما يتضح من عدد المنتخبات كأعضاء في البرلمان.

بالعودة إلى الدور النسائي خاصة السيدة / إستر فهمي ويصا في ثورة ١٩ نجد أنه بعد إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه في ٧ إبريل ١٩١٩م وسفرهم إلى فرنسا لعرض مطالبهم على أعضاء مؤتمر السلام وجدوا تجاهلًا كبيرًا فقدم لهم سعد زغلول التماسًا لكنهم لم يهتموا به، في هذه الأثناء اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالحماية البريطانية على مصر وكانت ضربة قاضية لسعد زغلول وثورة ١٩١٩م، في ذلك الوقت كان الوضع مضطربًا بشدة، فأعلن اللورد اللنبي بأن لجنة ملكية برئاسة اللورد ملنر سترسل في مايو لفحص الوضع وتقدم تقريرها فعارضت لندن ومصر الفكرة، لكن خلال الأشهر التالية أصبح الأمر أكثر ارتباكًا وتوترًا عندئذ وصلت لجنة ملنر في نوفمبر ١٩١٩م، وكانت مهمتها تتلخص في التحقيق بأسباب القلاقل الأخيرة بمصر وتقديم تقرير عن الأوضاع في البلاد وشكل الدستور... بالإضافة إلى تطوير الحكم الذاتي والمؤسسات وحماية المصالح الأجنبية، بالطبع تعبير (تحت الحماية) كان صادمًا لسعد زغلول وكل المصريين فقرروا مقاطعة اللجنة، ولم يقابل اللجنة سوي السلطان والحكومة بتحفظ شديد رافضين التعبير عن آرائهم، وعلي الرغم من أن جميع الرجال لم يعبروا عن آرائهم للجنة فإن السيدات المصريات العظيمات كان لهن موقف أكثر إيجابية ووجهن خطابًا مفتوحًا للجنة اللورد ملنر في اجتماع عام عقد في الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة في ١٢ ديسمبر ١٩١٩م بعنوان (من نساء مصر) يعرض بوضوح القضية ونصه : "أيها السادة : لقد

قررت مصر – مؤخرًا– عدم مقابلة لجنتكم الموقرة، طالما كان مجيئها تحت اسم الحماية البريطانية في مصر وباعتبارنا نمثل نساء مصر، فإننا – أيضًا– بالتأكيد نوافق على هذا الرأي، ومع ذلك فإننا نود إعطاءكم فكرة صحيحة عن الوضع الحالي لمصر كما هوواقع بالفعل لقد أعلن الكثيرون رأيهم في (سبب وماهية) الحركة المصرية وعلى الرغم من أن البعض قد لمس الحقيقة لمسًا سطحيًّا، لكن المسألة ككل مازالت بعيدة عن الواقع.

إن الحركة المصرية هي حركة وطنية تمامًا بكل ما في الكلمة من معنى، خالية من كل النزعات الدينية أوالتأثير التركي وليس لها أي علاقة – إطلاقًا – بالبلشفية، كما أنها ليست نتيجة مباشرة لارتفاع أسعار المعيشة كما أعلن البعض وكما تعلمون فإن الحالة المالية في البلاد ممتازة، والعلاقة بين الناس تسودها فضائل الإحسان والكرم وهما سبيلنا للعناية بفقرائنا، إن الحركة المصرية هي حركة وطنية خالصة.

وقد قال لورد ملنر في كتابه (إنجلترا في مصر) باستبعاد احتمال قيام ثورة في مصر وكان يعتبر الثورة العرابية بأنها الإثبات الأقوى لشدة سوء الحكم القديم ويحتمل أن يكون محقًا في ذلك، ويمكننا أن نستخدم هذه المقولة بأن نقول: "إن ثورة اليوم هي الإثبات الأقوى لسوء الحكم البريطاني في مصر، إننا نتكلم بصدق، يمكننا القول إن سوء الحكم لم يكن السبب المباشر للحركة الحالية، ولكننا لا يمكن أن ننكر دوره في إيقاظ وإثارة فضائلنا العريقة الساكنة من سباتها".

إن مصر أرض المتناقضات كما ذكر لورد ملنر، وليس من الغريب رؤية أشياء غير متوقعة تحدث فجأة وبلا سابق إنذار، إن شرارة الوطنية

العظيمة أخمدت لقرون عدة برماد الغزوات المتلاحقة، وخضعت لتأثير الحضارات حالكة الظلمة ولكن مازال تحت الرماد الحضارة التي تمتعت بزمانها واحتفظت ببقائها ووجودها منذ البداية وبلا شك فقد ساعد التأثير البريطاني على الرغم من أنه غير مباشر، وحضارة القرن العشرين وهي ذات تأثير مباشر في نفض هذا الرماد كما أسهم سوء الحكم والسياسة الحالية الفاشلة لبريطانيا في إمداد الشعور الحالي في مصر بالوقود، "ونحن نشكر لبريطانيا العظمى هذا الفعل".

إن إنجلترا تتباهي بحكمها الصالح لمصر خلال السنوات الماضية، ونحن نشكر إنجلترا، إن للهيبة والمكانة دورًا كبيرًا لنجاح بريطانيا، إلا أن اللورد ملنر يقول : "لا يوجد أي شيء يسمى المكانة"، لم تكن هيبة القوة العسكرية التي أدت إلى سهولة الانقياد وحسم السباق إبان الحكم البريطاني (فالمصريون لا يهابون السلاح) وإنما هي هيبة ومكانة السمعة الطيبة لإنجلترا.

إن الرجل المصري كان في الماضي يحترم الرجل الإنجليزي؛ لأنه كان يعيش تحت وهم أن الإنجليزي لا يقترف بتاتًا أي شيء غير محترم أوغيرشريف.

وكان يصنف الإنجليزي باعتباره تجسيدًا للحق، والشرف، والعدل وصفات أخرى طيبة وكان يعتبره مثالًا للرجل المتصف بالعدل والإنصاف، والذي يفي - دائمًا - بكلمته.

أما عن عيوبه، فإنه كان يعلم عنه بالطبع، الإفراط في الأنانية، والغرور، والكبرياء وكان المصري ينظر إلى الإنجليزى؛ بنظرته الشرقية التقليدية

المليئة بالاحترام مثل احترام الأفندى الصغير الذي يسرع في تزرير سترته عند اقترابه من موظف أرفع مقامًا وكان الإنجليز يفسرون ذلك خطأ بأنه علامة الخنوع، وبالتالي كان لها التأثير السيئ في البريطاني العادي ومع ذلك فإن الإعجاب يؤدي إلى التقليد، والتقليد في الوقت نفسه يؤدي إلى الاكتساب، وحتى السمعة الخادعة يكون لها تأثيرها الكبير على المعجب ولقد كبرت لدى الأفندى الصغير هذه الصفات تدريجيًا حيث توجد جذورها -دائمًا- في قلبه وكل هذا بفضل الاحتلال البريطاني وقد أعلنت إنجلترا المرة تلوالأخرى أن احتلالها لمصر مؤقت، وذوطبيعة إنسانية وقد أكد اللورد ملنر وجهة النظر هذه عن الاحتلال عندما قال : "إنه مخالف تمامًا للحقيقة بأن قوة إنجلترا قد استخدمت دون مراعاة لشعور ومصالح الشعب وبغرض واحد وهوتعزيز مصالحها التجارية، وتمهيد الطريق للضم" كما قرر سياسيون آخرون نفس النغمة في الإعلان عن سياساتهم ولا نستطيع أن نفهم لماذا عجزت بريطانيا عن الوفاء بكلمتها ؟ ولكم أن تتصوروا أيها السادة المحترمون، مدى ما تركه تأثير سياسة إنجلترا في أذهاننا... إن تصرفاتها الأخيرة تبرر النتيجة التي وصلنا إليها، وهل تسمح لنا في التعبير عن ذلك بكل صراحة ؟ إن إنجلترا لا بد أن تكون قد حققت هدفها الوحيد، بتعزيز مصالحها التجارية وتمهيد الطريق للضم، ولقد كان طموح إنجلترا هوضم مصر، ولكن بسبب الخوف فقط من الاصطدام مع مصالح القوى العظمى الأخرى، مما جعلها تتظاهر بخلاف ذلك في حينه فدخلت إنجلترا مصر بحجج واهية.

إنها لم تدخل مصر دخول الفاتح المنتصر الذي يتسم - أساسًا - بالصدق والشرف، ويبدو أنها فضلت اتباع سياستها بتصريحات كاذبة، لقد جردت جميع المصريين من أسلحتهم، وبعد ذلك أعلنت الحماية على مصر تحت مظلة الأحكام العرفية لقد سرقت مكانتنا وسط القوى الأخرى ببساطة في ظلمة الليل وإذا كانت إنجلترا ترى الأمور كما هي في الواقع، فإننا مازلنا نأمل في أنها لم تطأ روح الرجولة والشجاعة التي بها وتقبل هذا الوضع البغيض علاوة على ذلك لن يمكنها أن تخمد الصوت الذي يعبر عن احتجاجنا المشروع.

ومن الآن فصاعدًا، يمكنها - فقط - أن تحكمنا عن طريق القوة العسكرية، وهذا ما تسميها بالحماية البريطانية من جهة أخرى، فإن مصر التي كانت تعيش تحت وهم إنجلترا الموثوق بها، وكانت تضع في اعتبارها كلمة الشرف الخاصة بها، ولم ينتابها الشك أبدًا فلقد قدمت مصر لإنجلترا كل العون ولبت كل احتياجات الجيش في فلسطين قدمت رجالها، ودوابها، ومحاصيلها وأصبحت منطقة التمركز العسكري لجيش بريطانيا في الشرق، وكل ذلك بنية سمحة معتمدة على شرف إنجلترا وحس العدالة لديها.

وللأسف الشديد، لقد اكتشفته مصر، لكن بعد فوات الأوان أنها لمساعدتها في سحق الإمبريالية في ألمانيا، فقد وقعت بين فكى إمبريالية أعظم، هذه الإمبريالية هي الدولة التي أولتها ثقتها وتقديرها وأسرفت في العطاء لها هل تتعجبون إذن، أيهاالسادة المحترمون، من أن تحتج مصر ؟ وأن تشك مصر الآن ولا تثق،إن مصر لا تستطيع، ولن تستطيع التفاوض معكم إن حسكم بالتقاليد البريطانية وحده يمكن أن يجيبكم على هذه الأسئلة، ونحن نأمل أن تتمكنوا من ذلك.

إننا بتمثيلنا لأمهات وأخوات وبنات مصر، فإننا نخطركم بأنه يوجد بديلا فقط للقضية المصرية : إما أن تحافظ إنجلترا على مكانتها المرموقة، وتظفر باحترامنا وصداقتنا من جديد، أوبتعبير آخر، تفي بكلمتها الكلمة التي وقعت وصدقت عليها يجب على إنجلترا أن تلغي الحماية فورًا، وعليها أن تعطي مصر مطلبها المشروع في الاستقلال وإذا تم ذلك، فتصبح إنجلترا صديقتنا، واهبة الخير وكل شيء مرغوب ومنسجم مع استقلالنا التام وسيكون لها دور المساعدة على رفع مستوي الصالح العام لمصر، بمساعدة أبناء الفراعنة للعيش على غرار فضائل وعقائد أجدادهم العظماء، ألا نستحق المحاولة ؟

أما البديل الثانى، والذي سيكون بديلًا مؤسفًا، فهو في قيام إنجلترا بوطأة كرامتها، ويغشى عينيها الجشع وحب الكسب المادي، وتستولى خلسة على مصر أولًا ثم بالقوة بعد ذلك.

إن احتجاجاتنا ستقابل بالسلاح، كما سبق أن رأينا، فإنجلترا لديها القوة الكافية للقيام بذلك عن طريق جيشها، وأسطولها ومطاراتها، ولكننا سوف نحتج ونستمر في الاحتجاج، سنقاتل بلا سلاح، وستمتزج دماؤنا بترحاب أرض آبائنا، وسنموت ونحن سعداء.

ربما كان تاريخنا أيام الرومان وما تلاه، مؤكدًا لتلك الكلمات الأخيرة ولن تنسوا، أيها السادة المحترمون، المائة ألف شهيد أيام دقلديانوس وأرجوأن تسجلوا أن هؤلاء المصريين الذين تركوا بصماتهم على التاريخ هم آباء هؤلاء، الذين سوف يسطرون التاريخ الحالي وأن دمائهم هي نفس الدماء التي سالت من قبل.

ونرجو أن تغفروا لنا صراحتنا، وربما من الأفضل أن تكون صريحًا صادقًا، وخصوصًا في الزمن الذي أصيب فيه العالم أجمع بالغثيان والاشمئزاز من النفاق ومن النظام القديم.

ولا شيء يمكن أن يبقي بعد الصراع العظيم في العالم الآن سوى الحرية، العدل، الحق، وستبلغ الفضائل القمة على المدى الطويل، ونأمل ألا تفشل بريطانيا في أن تكون هي البطل لهذه الفضائل.

سيدات مصر

الاجتماع العام لسيدات مصر

الكاتدرائية المرقسية

القاهرة في ١٢ ديسمبر ١٩١٩

وهذا دليل على أن نساء مصر كان لديهن عمل دءوب وثقافة عالمية حيث كن يتابعن ما ينشر في الصحافة الأجنبية ويسارعن إلى الرد على كل تشويه لمصر والمقال عن زيارة الرئيس الأمريكي ويلسون إلى لندن، وعنوانه زيارة السيد كليمنصو لمصر والربط بين الاثنين في إبداع أدبي راقٍ عميق.

خطاب آخر أرسلته السيدة/ إستر فهمي إلى جريدة The Egyptian gazette [٨٤] الصادرة في ٦ فبراير ١٩٢٠

–حين عرف في لندن أن الرئيس ويلسون سيزور إنجلترا بعد الهدنة، لم تدخر الصحف البريطانية وسعًا لإقناع الشعب بمقابلة الرئيس ويلسون والترحيب به بحماس منقطع النظير، ولسنا في حاجة للقول بإن الشعب

لم يكن مؤيدًا لآراء ويلسون، لأنه كان بالنسبة إليهم البعبع الذي أتى ليحرمهم من بعض "حقوقهم" المكتسبة في الهيمنة على البحار، ولكنهم اختلفوا عن المصريين في أنهم استطاعوا أن يكشفوا نفاقهم العظيم بأنهم حيوا بحماس ضيفهم غير المرغوب فيه أمام بوابات قصر باكينجهام، أما المصريون فهم لن يقبلوا السيد كليمنصو بنفس الحماس الذي قوبل به الرئيس ويلسون من قبل الإنجليز، ربما لأن المصريين اليوم لا يشعرون بأي التزام فيما يتعلق بمساعدات في الماضي، ولا يتوقعون أي مساعدات قادمة من رجل فرنسا، كما توقع الإنجليز من الرئيس الأمريكي إلا أن هذا لا يعنى أنهم لا يرفضون زيارة السيد كليمنصو لمصر لقضاء شهر العسل، فإنهم يعرفون جيدًا أن رجل فرنسا العظيم قد قايض حقوقه، لأنه ـ ببساطة ـ من مصلحة بلاده أن يفعل هذا، وليس لأنه كان ضد طموحات مصر، إن مصر ترحب بالسيد كليمنصوبكرم شمسها المشرقة وابتسامته إنها واثقة أن هذا الرجل العظيم في عمق أعماق روحه سيتحسر تعاطفًا حين يرى النيل الخالد الذي يسجل تاريخ شعبه العظيم.. إن مصر تعرف أنه سيتحسر؛ لأنه تصرف تجاهها كما فعل ليخدم مصالح بلاده، حتى لوكان ضد ضميره، إن مصر سترحب بالسيد كليمنصو؛ لأنها تعرف أنه يتعاطف معها، وكذلك يتعاطف معها كل الفرنسيين مع أنهم لم يستطيعوا ـ فعلًا ـ أن يساعدوها.

أما فيما يتعلق بتلك الأمة (إنجلترا) رابطة الجأش القادرة، الهادئة جدًا في حكمها لدرجة أنها تستطيع أن تدور دورة كاملة بدون أن تحدث ضجة

بتكتيك جيشها، نعلم أنها لن تتمكن من أن تحرز تقدمًا كبيرًا مع المصريين طالما أنها لا تدرك الظلم الذي توقعه بهم، مطالبنا العادلة وضميرها سيعترض طريقها في كل منحنى، وإذا كانت إنجلترا على الرغم من كل هذا لاتزال مصممة على أن تطأ على ضميرها وحقوق الشعوب الأخرى، فربما تلقى شر هزيمة لها في يوم من الأيام، كما حدث لكل القوى المهيمنة من قبل، وسيكون من المؤسف أن يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى في القرن العشرين.

إن مصر لم توافق أبدًا على أن تتخلى عن حقوقها القومية لإنجلترا أو لأى قوة أخرى ولن يستطيع السيد كليمنصوأوغيره أن يقنعها بأن تفعل هذا، وإذا رفضت إنجلترا أن تتخلى عما ليس لها وشجعتها قوتها العسكرية على هذا، فإن الزمان سيعطي لكل ذي حق حقه، ومن ثم فنحن يمكننا أن ننتظر الوقت الملائم.

أما بالنسبة إلى التهديد بأن (أسهل شيء يمكن أن تفعله إنجلترا هوأن تنسحب إلى قناة السويس وتضم السودان،وتترك المصريين ليعتنوا بأمورهم الخاصة) فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يمكنها أن تفعل هذا فالسودان ينتمي إلى مصر ومصر للسودان منذ بداية التاريخ، وسيكون من العجيب ـ حقًا ـ أن تكلل إنجلترا تاريخها بحرمان مصر من مصدر حياتها، إن النيل حيوي ومهم لمصر تمامًا بقدر أهمية الحبل الشوكي للجسم البشري،وإذا انفصل منبع النيل عن مصر عندئذ يجب أن نتوقع ـ سلفًا ـ مشاهدة الجثمان المسجي لأقدم وأعظم بلد في العالم محولا أمام سجلات التاريخ كنموذج حي على قدرات الإصلاح ذات الشهرة العالمية نحن

نرحب بالسيد كليمنصو،لكنه لن يستطيع أن يؤثر في آبائنا السياسية؛ لأننا لسنا متحاملين ضد الإنجليز ولسنا أيضًا مؤيدين للفرنسيين على وجه الخصوص إنما نحن نكافح من أجل الحصول على حقوقنا، وهذا كل ما في الأمر،ولن يرضينا إلا أن نحققها لأننا نعلم أن الزمن سيعطينا ما نستحقه".

بنت النيل

في مارس ١٩٢٣م وجهت دعوة لنساء مصر من الاتحاد النسائي العالمي لحضور مؤتمر في روما، وترأست السيدة هدى شعراوى الوفد المصري الذي ضم إستر فهمي وروجينا خياط بالإضافة إلى سيدات أخريات، واستمر المؤتمر من ١٢ إلى ١٩ مايو١٩٢٣م، وقد ذكرت السيدة هدى شعراوي في مذكراتها حادثة عن هذا المؤتمر :

أذكر لهذه المناسبة أننا عندما ذهبنا إلى المؤتمر ووجدنا أعلام الدول ترفرف في قاعة الاجتماع ولم يكن قد استعددنا لذلك لعدم معرفتنا ببروتوكول المؤتمرات، ولذلك فقد طلبنا من طلاب البعثة المصرية هناك تجهيز علم مصري يتعانق فيه الهلال والصليب وقد صنعوه أكبر حجمًا من كل الأعلام الموجودة فلما لفت نظرهم ذلك، قالوا إن مصر أعرق الأمم ويجب أن يكون علمها أكبر الأعلام، وعندما قدمت العلم المصري لرئيسة المؤتمر نقلت لها وجهة نظر أبنائها الطلبة، فتبسمت فلما فتحنا أمامها العلم ورأت عليه الصليب يعانق الهلال، تأثرت تأثرًا عظيمًا، وأمرت بوضعه على يسار المنصة معادلًا للعلم الإيطالي الذي كان إلى اليمين ليشغل بذلك الموقع الممتاز بعد علم الدولة المنعقد المؤتمر بأرضها، وقدمتنا للمؤتمر تقديمًا

فيه كل التقدير وكان ذلك أكبر عامل في إزالة الفكرة التي شابت حركتنا الوطنية بوصفها بالتعصب الديني.

ومن الجدير بالذكر أن بابا روما وموسوليني استقبلا الوفد المصري برئاسة السيدة / هدى شعراوي.

في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧م مات سعد زغلول وفي ١٥ مارس ١٩٢٨م شكل مصطفي النحاس الوزارة واعتقدت إستر ومعها الحركة النسائية أن النحاس سيتبع سياسة سعد زغلول في تشجيع النساء على الكفاح من أجل الاستقلال لكن ما حدث كان عكس التوقعات منذ رفض النحاس تدخل النساء في السياسة، وقد أدى هذا إلى إضعاف الحركة النسائية السياسية ولكن إستر استمرت في المشاركة بمقالات سياسية وخطب كمصرية وطنية واستمرت تعتبر زعيمة وسط الحركة النسائية المصرية وتدعى إلى معظم المؤتمرات العالمية النسائية أرسلت إستر ويصا ١٣ خطابًا للورد اللنبي وتلقت ردودا لجميعها وهذا يتضح من الصياغة لكن الموجود منها ١٠ ردود.

وقد أرسل لها الرئيس عبد الناصر خطابًا بتاريخ ٥ / ٨ / ١٩٥٦م ونصه :

السيدة إستر فهمي ويصا

تحية طيبة وبعد لقد وافتني رسالتك، وإني إذ أشكر لك تهنئتك القلبية برئاستي للجمهورية المصرية ولعلك قرأت نصوص الدستور ووقفت منها على اتجاهاتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المبسوطة في كتاب (روح الدستور) وهي اتجاهات تقرب من الاشتراكية المعتدلة لا الاشتراكية التي

عينت في كتابك وأظن أن هذا الاتجاه هوالذي يخفف من وطأة التطرف والحركات اليسارية المدمرة.

وثقي أن كل مشروع وكل تخطيط اقتصادى إنما يقوم على دراسة ذوى الخبرة والمجدين والخبراء العالميين.

والله أسأل التوفيق والتسديد

القاهرة في ٥ / ٨ / ١٩٥٦م

رئاسة الجمهورية

وكذلك أرسل لها الرئيس السادات خطابًا هذا نصه :

السيدة إستر فهمي ويصا

رمل الإسكندرية

تحية طيبة... وبعد

تلقيت رسالتك.. التي بعثت بها إلىَّ.. ومعها النسخة المترجمة إلى العربية من كتابك (القلب الطاهر) التي بعثت بها هدية منك لى.. وقد نالت حسن القبول.

ولقد راقني حسن إعداد الكتاب.. وتبويبه وما احتواه من موضوعات ودراسات وأبحاث دينية تحض على اتباع مبادئ المحبة والإخوة والسلام التي تحدثت عنها الكتب المقدسة.. وإن إخراجه بهذه الصورة الممتازة يستحق كل التقدير.

لك مني أجمل الشكر على إهداء الكتاب لي وعلى ما عبرت عنه من كريم المشاعر نحوي.

مع خالص تمنياتى لك بالصحة والسعادة والتوفيق

رئيس جمهورية مصر العربية

٢٠ / ١ / ١٩٨١م

الفصل السادس

السادات - مبارك وعصر النجوم

الفصل السادس
السادات - مبارك وعصر النجوم

لأن عبد الناصر كان يحمل مشروعًا قوميًا كانت النتيجة أن الشعب المصري بجميع فئاته وخلفياته توحد خلفه، ولم تكن في عصره أحداث طائفية إلا قليلاً وتم علاجها بحكمة وحزم شديدين، إلا أن المشروع سقط بنكسة ١٩٦٧م، وكان السادات نائبًا للرئيس وبعد وفاة الرئيس عبد الناصر في نهاية سبتمبر ١٩٧٠م كانت فترة انتقالية، ثم انتخب السادات بعدها رئيسًا للجمهورية وبدأ مهزوزًا في البداية إلى أن قام بالتخلص ممن أسماهم مراكز القوي ووضعهم في السجون، وهوما أطلق عليها ثورة ١٥ مايووانتقلت البلاد من الاشتراكية إلى الرأسمالية ومن اليسارالاشتراكي إلى اليمين الديني ومن الانغلاق على الذات إلى الانفتاح الاستهلاكي ومن الاتحاد السوفيتى إلى

الولايات المتحدة وهكذا طرد الخبراء الروس وصرح بأن أوراق اللعبة ١٠٠٪ بيد أمريكا، وقد أطلق على سياسته سياسة الصدمات الكهربائية كل ذلك بعد أن تعهد في أول خطاب له قائلا: "كلنا عبد الناصر وسأسير على طريق عبد الناصر". وقد أطلق الشعب نكتة في ذلك الوقت تقول (السادات يسير على طريق عبد الناصر بأستيكة).

ثم بدأ استكمال الإعداد للحرب طبقًا للخطة التي وضعها عبد الناصر والتي شنها في٦ أكتوبر ١٩٧٣م، وكانت ملحمة انتصار غير كامل لكن هذا الانتصار حرك الماء الراكد وبدأت عمليات فصل القوات إلا أن الحالة الاقتصادية تدنت بشكل واضح مما دعاه لرفع بعض الدعم من السلع الاستهلاكية فاندلعت ثورة الخبز عام ١٩٧٧م واهتز السادات هزة نفسية ضخمة خاصة وأن تكوينه النفسي كان هشًا لأسباب عدة منها نشأته الفقيرة وتطلعاته الضخمة للسلطة، وعقدة عبد الناصر.... إلخ وأطلق على انتفاضة الخبز انتفاضة الحرامية وتراجع عن كل قرارات رئيس الوزراء برفع الدعم التدريجي على السلع ولأن حرب ١٩٧٣م كانت دفاعًا عن العرب جميعًا، قرر أن يقوم بجولة في دول الخليج التي ربحت الكثير من الحرب في رفع أسعار البترول مما أدى إلى زيادة دخلها القومي عشرات المرات، وقد أطلق بعض المثقفين والسياسيين في مصر وسوريا على أرباح دول النفط بعد الحرب (البترودم) لكنه أصيب بصدمة؛ لأنه قوبل بعدم تجاوب من الرؤساء العرب، بل أحس أنهم يستخفون به وفي طريق عودته بالطائرة بدأ يفكر في زيارة إسرائيل لحل كل المشكلات دفعة واحدة بحسب ما كتب في مذكراته وذلك طبقًا لسياسة الصدمات الكهربائية وبالفعل قام

بالمبادرة وبدأت المفاوضات وانتهت بتوقيع معاهدة السلام (كامب ديفيد) عام ١٩٧٨م، وقامت الدول العربية بطرد مصر من الجامعة العربية ونقلها إلى تونس، ورفضوا إرسال ممثليها إلى ميناهاوس؛ حيث كان السادات يريد التفاوض لكل من فلسطين والأردن وسورياعلى طريقة كامب ديفيد وبزيارة إسرائيل وتوقيع معاهدة السلام صار السادات نجمًا عالميًا صاحب صورة غلاف على معظم المجلات العالمية وحصل على جائزة نوبل للسلام مع مناحم بيجين، وتنافست القنوات التلفزيونية العالمية على استضافته، وحرص هوعلى أن يكون مظهره وسيمًا كنجوم السينما والتلفزيون، ومع الانفتاح الاقتصادى الذي أطلق عليه أحمد بهاء الدين (انفتاح السداح مداح) وخصخصة معظم الأنشطة الثقافية صار التنافس والحصول على الثروات دون بذل جهد حقيقي هوالسمة السائدة في المجتمع وصار عصر السادات هوعصر النجوم في السياسة والدين والرياضة والاقتصاد والبيزنس والفن... إلخ.

فبجوار نجومية السادات كانت نجومية البابا شنودة والشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ومتولي الشعراوي كنجوم دينيين شعبيين وتألق الدعاة الجُدُد وفي الفن كانت نجومية عادل إمام ويسرا وفي الاقتصاد كان ساويرس وأحمد بهجت والبدوي، وفي الرياضة كان أبوتريكة وعماد متعب....إلخ.

وبالطبع عصر النجوم يعنى التنافس وعصر النجوم يعني ثورة المعلومات وسطوة الميديا وخاصة التلفزيون واستخدام الكمبيوتر، وأصبحنا أسرى ثقافة الصورة.

يقول جلال أمين[٨٥] في هذا الشأن "لست من أنصار التفسير النفسي للتاريخ، ولكن من المؤكد أنه لا يصح أن نتجاهل أثر الخصائص النفسية والنزعات الشخصية للحاكم على ما يجري من أحداث، فمن المؤكد -مثلًا- أن هذه الخصائص يمكن أن تؤثر على مجرى الأحداث في المدى القصير وأن تكون عاملًا مساعدًا أومعطلًا ولولفترة من الوقت للتطور الذى تفرضه الظروف الاجتماعية أوالضغوط الخارجية.

ثم أعطى نماذج من حكام مصر مثل قوة شكيمة محمد على ورخاوة سعيد وجبن توفيق وعناد عبد الناصر وقد لاحظ أن أكثر كلمة ترددت على لسان السادات كانت(الحقد) وهذا يعبر عن عدم تصديقه لما وصل إليه وكان سعيدًا به جدًّا ويشعر أن الجميع يحسدونه عليه.وهويقول إن هذا الإحساس أتاه بسبب بيئته الفقيرة التي نشأ فيها ورؤيته أبناء الباشاوات في سن الطفولة لديهم سيارات وسائقون ينتظرونهم خارج المدرسة رغم أن السادات في مذكراته ذكر هذه الملاحظة وأردف أنه لم يتأثر بها لكن الحقيقة أن مجرد ذكرها يشير إلى التأثر العميق بها، وقد كان -دائمًا - يقارن بين مصروفه اليومي(مليمين) يشتري بهما كوبًا من الشاي باللبن وهويشعر بسعادة لكنه يردف كنت أرى زملائي من حولى يشترون أفخر أنواع الشيكولاتة والحلوى، وبالطبع عندما تصدر هذه المشاعر من طفل تعطينا إجابة لماذا أراد أن يكون نجمًا عالميًّا أنيقًا، ولماذا كان يدعوكيسنجر وكارتر وبيجن وجيسكاردستان أصدقائي، ولماذا أطلق على الحكام العرب صفة(أقزام) بالنسبة له وعلى بلادهم بعدم التحضر وأن التحضر الحقيقي هوتحضر مصر وإسرائيل والغرب، وبالتالي انتشر الفساد والتهليب

والقنص والجرى وشركات توظيف الأموال والاتجار بالدين... إلخ لدرجة أن رجل الشارع أطلق مقولة عن الفارق بين عبد الناصر والسادات أن ناصر أفقر الأغنياء ولم يغني الفقراء أما السادات فأغنى النصابين وقيل أيضًا (الذي لم يفتقر في عهد عبد الناصر لن يفتقر بعده والذى اغتنى في عهد السادات لن يغتني بعده) من هنا نستطيع أن نجد مبررًا لصدام السادات مع الجميع في سبتمبر ١٩٨١م اصطدم بمحمد حسنين هيكل ورموز العمل السياسي واصطدم مع المثقفين واصطدم مع البابا شنودة وعدد من المطارنة وملأ سجونه بكل هؤلاء وهوما أطلق عليه محمد حسنين هيكل (خريف الغضب)، فالكل كان غاضبًا؛ المسجد والكنيسة والمثقفون الجميع كانوا غاضبين، وقد كان السادات رمزًا لمرحلة لا تقتصر عليه لكنها كانت حركة عالمية تصادف أن السادات بتكوينه وعبقريته وصدماته الكهربائية غير المبنية على دراسة سياسية أكاديمية عميقة لكي يشل العدو، وبالتحول العالمي بعد ذلك ونتيجة العولمة والكوكبية... إلخ وقد بدأت ظاهرة لم تنته بل تفاقمت في نهايات عصر السادات فعندما كنا نشاهد نشرات الأخبار عالميًا ومحليًا نلاحظ أنه قد خصص بها مشاهد أسواق المال وأسعار العملات ومؤشرات صعودًا وهبوطًا كما تحمل حركة وكلاء البورصة ومشاهد آلات عد النقود كل ذلك مع إيقاعات موسيقية ذات نبرة عالية مؤثرة، لماذا كان ومازال التركيز على أخبار سوق المال ؟

مع العلم أن الخبراء والمتعاملين في هذه الأسواق لهم شاشاتهم الدائمة التي توافيهم بتحركات السوق المالية الكونية، والمشاهد العادي لم تكن له صلة بالأمر.

هنا تتجلى ثقافة القنص أوتحويل الناس إلى قناصين للفرص، تجربة الحظ في دخول إلى حلبة رأس المال التيار،اقتنص فرصة، أربح واجري، الضربة المالية إن هذا - بلا شك - إحلال للحس المالي محل التفكير العلمي الذي يحض على الجهد والعمل الدءوب والإنتاج، إنه التحول من الجهد الإنتاجى إلى براعة اقتناص فرص الربح ويتزاحم القناصون في غابة منهم الصغار ومنهم الكبار لتحقيق أكبر ربح دون اعتبار لما عاداه.

وهذا ما وفره الانفتاح الذي نادي به السادات والغائب الأكبر في كل ذلك هوثقافة الجهد طويل النفس الذي يلزم بالإعداد والترتيب والذي يبدووكأنه نوع من العناء الذى لا لزوم له، إن قضايا المجتمع والتربية والتنشئة والمصير لا مكان لها؛ لأنها تتطلب وقتًا طويلًا لطرحها والتفكير بشأنها، وهكذا تتلاقى ثقافة الصفقة والقنص مع ثقافة الصورة في لحظة الربح اللحظي وليذهب التدريب والتفكيرالعلمي إلى الجحيم.

لقد تحول الدين إلى سلعة وكذلك الرياضة وأضفت الشاشات المدى الكوني على ظاهرة النجومية وأصبح أن يصير الشاب المهمش في العالم الثالث نجمًا رياضيًّا أونجمًا دينيًّا هوباب الخلاص له بل الأمل السحرى الذي ينتظره كل ذلك مع ثقافة الإعلانات وبيع الأحلام.

في عصر النجوم يتصادق النجوم معًا، ثم يختلفون ويتصادمون بعد ذلك، أيد البابا شنودة سياسات السادات الأساسية :

١- إصلاح مسيرة يوليو. ٢ - إلغاء الحراسات والمعتقلات ٣-الديمقراطية والأحزاب. ٤-فتح قناة السويس. ٥-الانفتاح الاقتصادي. ٦- مبادرة السلام بشكل عام غير مباشر، وهذا التأييد جاء

أيضًا من المؤسسة الإسلامية وبهذا تم تكوين الحلف الديني اليميني في وجه اليسار والإلحاد والمادية.

يتنافس النجم مع النجوم الآخرين سواء في مجاله أوفي غير مجاله من نحو اللمعان والسطوة، من هنا كان الصراع بين السادات والبابا شنودة[٨٦] والذى بدأ بحادثة الخانكة عام ١٩٧٢م؛ حيث طلب البابا من الأساقفة السير في مسيرة معًا حتى موقع الحدث الذي فيه صراع على أرض كنيسة مع مسلمين وألا يعودوا إلا بالأرض أوالشهادة، وتم صدام عام ١٩٧٧م بالمؤتمر القبطى، والذي تلاه المؤتمر الإسلامي ولقد قال أحد المحللين الأجانب لقد أثار رد الفعل الذي يبديه الأقباط منذ بضع سنوات- الدهشة؛ حيث لم يعودوا يشعرون بالخوف بعد إحساسهم بالقوة من جراء نهضة كنيستهم ونفوذ البابا شنودة الثالث، وفي حادثة الزاوية الحمراء قام السادات بتأليف قصة عن غسيل لمسيحى ألقت عليه بعض القاذورات أدت إلى حدوث فتنة طائفية وقد استخدم وزير الداخلية النبوي إسماعيل ما دعي بالحل السياسي، إذ أغلق الحى على المتعاركين ليصفوا بعضهم بعضًا.وصرح السادات في خطابه بأنه رئيس مسلم لدولة مسلمة.

فالتحالف السياسي للسادات جمع اليمين المسيحى مع اليمين الإسلامي بكل أطيافه ودرجاته، لكن تطور الأحداث، والصدمات الكهربائية، ولعب الجميع على كل الحبال جعل كل يمين يهاجم السادات؛ لأنه ينحاز لليمين الآخر،فاليمين المسيحى رأى أن السادات يؤيد ويشجع التيار الإسلامي المتشدد في موضوع تطبيق الشريعة وقد زايد السادات على هذا الأمر، وبنصيحة من عثمان أحمد عثمان أطلق يد محافظ أسيوط حينئذ محمد إسماعيل ليؤيد الطلبة

المنتمين إلى التيارات المتطرفة ويمولهم ليضرب التيار الماركسي، لكن في الوقت نفسه ضرب الطلبة المسيحيين ومن هنا بدأ المسيحيون يتشددون ويعملون خارج التحالف أما الجانب الإسلامي رأى أن السادات يحاول تعطيل تطبيق شرع الله ويعدهم ويهزأ بهم وكل ذلك لصالح الأقباط وقد عارضه بوضوح شيخ الأزهر عبد الحليم محمود والإخوان المسلمون والجماعات المتطرفة، حاول السادات بطريقته العجيبة أن يرضي الجميع فخسر الكل، لقد تميز عهد السادات بإضرابات مستمرة ليس بين الشعب المسيحي والمسلم لكن بين تيارات متعصبة ومؤسسات أخذت قوة من رئاسة الجمهورية بطريقة أوأخرى. ثم انهار تحالفهم(٨٧)، وقصة البابا شنودة مع السادات قصة عجيبة، فبعد أحداث طائفية وقعت سقط فيها الكثير من المسيحيين وانتظر البابا شنودة أن يقوم السادات بعمل ما لكنه لم يفعل قرر البابا شنودة عدم حضور صلاة العيد بسبب الضحايا وطلب من الكنائس ألا تستقبل المسئولين المسلمين الذين يذهبون إلى الكنائس للتهنئة بالعيد واشتاط السادات غضبًا وطلب من البابا أن يرجع عن عناده ويصلي العيد لكنه لم يفعل وهنا اتخذ قرارًا بعزل البابا من منصبه الأمر الذي أثار مشاعر سلبية عند الأقباط، ولما كان السادات لا يعرف النظام الكنسي للكنيسة الأرثوذكسية حاول أن يستبدل أي شخصية كهنوتية بشنودة لكنه فشل كما ذكرنا من قبل.وبالعودة إلى عصر النجوم وأيام السادات نرى أنه ساعد التيارات التي ترفع راية الإسلام السياسي هؤلاء العائدون من بلاد النفط في شبه الجزيرة العربية خاصة المملكة العربية السعودية؛ حيث نقلوا معهم مجتمع البداوة والإسلام الصحراوي وخلطوا بين الدين وحضارة البدوالصحراوية، ونادوا بعد اعتقالهم أن الإسلام

الصحيح يتضح في التشبه بسلوك وملابس ومظهر أهل الجزيرة وثقافتهم، وبالطبع لا يوجد مسيحيون في تلك البلاد، بعكس الإسلام الحضاري الذي اختلط بحضارات الفراعنة والفينيقيين والآشوريين فصار مختلفًا في مظهره وأسلوبه عن الحضارة البدوية،وهكذا عاد عمال وموظفو مصر الذين عملوا بالسعودية وقد سقط الأقباط من حساباتهم إذ حملوا إسلام ما قبل الخروج من الجزيرة إلى الحضارات الأخرى وهكذا انشطرت الهوية المصرية إلى هويتين : هوية إسلامية؛ وأخرى مسيحية، وبدأنا نسمع عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وانتشر الحجاب والنقاب واللحية والجلباب والبنطلون تحت الجلباب القصير والصندل وكان هناك أحاديث في التلفزيون عن عودة الجزية على أهل الذمة وأن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغي غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وطالب التيار الديني أن يعدل الدستور وأن تكون المادة الثانية(الشريعة الإسلامية المصدر الوحيد للتشريع) بدلًا من(المصدر الرئيسي للتشريع).ثم جاءت دعوة لإقامة الحكومة الإسلامية واخترقت التيارات الإسلامية النقابات واتحادات الطلاب وهيئات التدريس بالمدارس والمعاهد والجامعات لتدفع المجتمع إلى طريق التطرف والانقسام والطائفية، لذلك لم يكن عجيبًا أن يتحدث بعض أساتذة الجامعة عن تعريب وأسلمة مناهج الطب والهندسة والعلوم... إلخ وكانت القمة في هذا التغلغل اغتيال السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١م.

وجاء مبارك[٨٨] وسار على نفس الدرب، فهو يحاول أن يقيم توازنًا بين الجماعات المتأسلمة والأقباط من ناحية وبينها وبين التيارات السياسية الأخرى، لكن الثمانينيات شهدت انفجارًا لنشاط الأسلمة في المجتمع

المصري ومحاولة صبغه بصبغة إسلامية، وأرادت شطر الذات المصرية إلى ذاتين دينيتين(إسلامية، ومسيحية) وهنا بدأت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية التي كانت قد تشكلت عام ١٩٧٩م في أعقاب معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل في عقد ندوات من أجل التماسك الاجتماعي مشددة على أن القومية المصرية في مواجهة الهوية الدينية من ناحية والهوية الغربية من الناحية الأخرى، فعقدت ندوات عدة عن "الفتنة الطائفية بمصر" لكن عادت الأقلام الإسلامية من جديد عام ١٩٨٨م كتب جمال البنا الإسلام هوالحل- وأنور وجدي إسلامية الثقافة ومحمود عبد الوهاب كفاحنا في مقاومة الشيوعية وسعيد طه الإسلام والشيوعية والرأسمالية ويكتب مصطفي حلمي الصحوة الإسلامية عودة إلى الذات "وكانت سياسة[٨٩] مبارك تركز على زواج السلطة بالمال وتعضيد رأس المال بقوة مع القبضة الأمنية الشرسة، وكان يعمد إلى ترك الحراك الاجتماعي بين المسيحيين والمسلمين على الأرض ولا يوجد سوى الحل الأمني والأهم في كل ذلك هوأن يتركوه على كرسيه فقد كانت الأولوية الأولى لأكثر من ٩ جهات أمنية في مصر هي الحفاظ على مبارك رئيسًا للجمهورية.في الثمانينيات انزوت الكنيسة على نفسها وانزوى المسيحيون داخل الكنيسة وكأى دكتاتور يضع في كل موقع حساس دكتاتوريًا صغيرًا ويدير البلاد بالتليفون وهكذا كانت العلاقة مباشرة مع بابا الكنيسة وشيخ الأزهر ومحافظ البنك المركزى وهكذا، وتقوقع المسيحيون داخل كنائسهم وأصبحت الكنيسة دولة قائمة بذاتها فهي تحتوى على الحضانة والمدرسة والنادي والمستشفى وكل الأنشطة الاجتماعية الأخرى، وعندما تقع أي حادثة في أي بلد على طول الجمهورية يهرع أصحاب المشكلة إلى الكاتدرائية المرقسية للبابا

شنودة الذي يتصل بطريق مباشر مع الرئيس مبارك، وكانت هناك عقدة بين شنودة ومبارك منذ أن كان نائبًا للرئيس السادات، فقد أراد السادات في وقت صراع عنيف أن يرسل نائبه مبارك؛ ليتقابل مع البابا شنودة للتفاهم إلا أن البابا رفض استقباله ولذلك رفض مبارك مقابلة البابا شنودة على مدى أيام حكمه.

واستمر هذا الوضع في التسعينيات؛ حيث نشطت فيها الكتابات الإسلامية لتضخم الذات الإسلامية دون اعتبار لطبيعة وروح المجتمع المصري وتاريخ المصريين المشترك مع إهمال أن المسيحيين والمسلمين في مصر أي المصريين جميعًا لهم نفس العادات والتقاليد وذات العرق فإذا أخذنا قطاعًا عريضًا للأسرة المصرية في الطبقة المتوسطة ستجد نفس الأسلوب في تربية الأبناء والتفرقة بين الأولاد والبنات وعلاقة الرجل بالمرأة وطريقة التدين بحيث إنك لا تستطيع أن تفرق بين أسرة وأخرى.

ومن أكثر العناصر التى حفظت لمصر خصوصيتها هي التيار الثقافي العام الرافض للتفرقة بل والمزاج الشعبي العام الذي يكره العنف، فكتب أحمد شوقي الفنجري "كيف نحكم بالإسلام في دولة عصرية" ١٩٩٠م، ويكتب يوسف القرضاوي "أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة" ١٩٩١م ويكتب متولى الشعراوي "الإسلام بين الرأسمالية والشيوعية" ويكتب عبد الهادى المصري "ضد العلمانية وموقف أهل السنة والجماعة" ويكتب جابر عصفور "دفاعًا عن التنوير" ١٩٩٣م ثم تم تكوين "لجنة التنوير"؛ لينشط المجلس الأعلى للثقافة في هذا الاتجاه ويعقد ندوات عدة ومؤتمرات عن التنوير ورموزه وتاريخه...إلخ وتم إعادة نشر

المؤلفات المصرية التي تخاطب العقل وتنيره والموضوعية ونقد الذات تحت عنوان "المواجهة" فيخرج إبراهيم مبروك بكتاب المواجهة (١٩٩٤م) وفيه يهاجم الأساس الفكري للعلمانية المعاصرة، والذي حدده في كتاب "في الشعر الجاهلي" و"مستقبل الثقافة في مصر" لطه حسين وكتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ على عبد الرازق وبالطبع كان على المسيحيين أن يعبروا عن أنفسهم خاصة أن الأمر يتعلق بالهوية والمواطنة فكتب ميلاد حنا عام ١٩٨٠م "نعم أقباط، ولكن مصريين" متناولًا بالرد التاريخي اللحمة الوطنية بداية من العصر الفرعوني إلى اليوناني فالروماني، ثم العصر المسيحي الإسلامي، وفي عام ١٩٨٩م كتب "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية" وفي عام ١٩٩١م، كتب إكرام لمعي "الاختراق الصهيوني للمسيحية" و"الوجه الآخر لتعاليم المسيح" و"الوجه الآخر للكنيسة" وقام القس باخوم عطية كاهن مطرانية بنى سويف بكتابة "لماذا الوحدة الوطنية" وذلك بعد أحداث "أبوقرقاص" عام ١٩٩١م، ثم قام مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بإصدار تقرير الحالة الدينية في مصر عام ١٩٩٥م ثم أصدر تقريرًا آخر عام ١٩٩٨م.

وعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠١١م كان إعلان (جورج بوش) الرئيس الأمريكي الحرب على الإرهاب مثل جماعة القاعدة والحكومات التي تحتضنها وبالطبع كان لهذا رد فعل عكسي بتجمع الجماعات معًا وتماسكها خاصة أنه تحدث برعونة عن "الحرب الصليبية" وصدر كتاب "صراع الحضارات" لصموئيل هنتجتون وتحدث عن العولمة وأن الصدام القادم لن يكون بين دول بقدر ما هوصدام بين حضارات الشرق والغرب

الإسلامية والمسيحية والبوذية والكونفوشوسية... إلخ، وأخذت أمريكا هذا الفكر نبراسًا لها وقررت تفكيك القوميات وتقسيمها على أساس العرق والمذهب واللغة، وسمعنا كونداليزا رايس وزيرة خارجية أمريكا وهي تتحدث عن "الفوضى الخلاقة" وكان رد الفعل المسيحي أن أخذ بعض منهم والرافضون للعروبة والمعارضون لتيار الحكومة الإسلامية في تكوين حزب سياسي باسم "مصر الأم" في عام ٢٠٠٤م؛ ليعلنوا أن الأمة المصرية مصرية فقط وليست عربية فلا بد من نزع كلمة عربية من اسمها والقول إن مصر دولة حرة مع إحياء اللغة المصرية القديمة كما فعل يهود إسرائيل بإحياء اللغة العبرية.

جثم مبارك على عرش مصر من عام ١٩٨١م حتى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ما يقرب من ثلاثين عامًا بدأها بداية جيدة، ثم سار على منهج السادات في إعطاء الإخوان مساحة في مجلس الشعب بحسب الاتفاق معهم ٨٠ مقعدًا في إحدى المرات، وتركهم لنشاطهم بشرط عدم الاقتراب من رئاسته وقد كان واضحًا ذلك في تأييد الإخوان لمبارك، ونفس الأمر بالنسبة إلى المسيحيين والعلاقة مع الكنيسة، إلا أنه كان هناك أمران يستخدمان لإلهاء الناس عن الفساد المنتشر في دولة مبارك هما الفتنة الطائفية، ودورى كرة القدم،وهكذا صار علاء وجمال مبارك يقيمان دوري كرة صيفي ويشاركان فيه ويتحركان مع الفريق القومي هنا وهناك، وأصبح لهذا العهد نجومه وكان من أبرزهم أحمد عز رجل الأعمال الذي أطلق عليه الشعب الطفل المعجزة وانتشرت في عهد مبارك القروض الضخمة من البنوك والفساد المالي والإداري وبعد وفاة محمد حفيد حسني مبارك في

٢٠٠٩م الذي كان قريبًا من جده، وتعرض مبارك لعملية في ألمانيا بدأت شيخوخته مع شيخوخة نظامه وكان من أهم علامات الشيخوخة أن صار مبارك منعزلا تمامًا عن الجماهير وبدأ عصر سوزان مبارك وعلاء وجمال وزكريا عزمي وبدأ الحديث عن التوريث وبدأ يبرز اسم جمال مبارك[٩٠]، ويبدأ ذلك من عام ١٩٩٨م، لأول مرة في الأهرام ذكر مشاركة جمال في المحور الاقتصادي بالندوة الاستراتيجية حول حرب أكتوبر وأنه سوف يتحدث عن التعاون الاقتصادى العربي، ويشير الأهرام إلى "السيد جمال مبارك" بدون أية صفات.

وفي ٢٥ نوفمبر من نفس العام قفز اسم جمال مبارك إلى الصفحة الأولى في الأهرام تحت عنوان "مبارك يستقبل الرئيس الأمريكي جورج بوش في جمعية المستقبل التي يرأسها السيد جمال مبارك".

وتوالت الأخبار عن عشاء تقيمه الجمعية للرئيس الأمريكي جورج بوش والجمعية تبنى ١٥ ألف وحدة سكنية وأن جمال مبارك عضوالمجلس الرئاسي المصري الأمريكي وهكذا بدأ الاسم في الصعود طبقًا لخطة واضحة في موقع(محاورات) تم تفجير قنبلة في ديسمبر من نفس العام أن مصادر من مجلس العموم البريطاني تقول هناك اتجاه لتنصيب جمال رئيسًا لمجلس الشعب وبدأت التكهنات وارتفع إيقاعها وبدأ الإعلان الغربى يتحدث عن حزب جديد باسم(المستقبل) وقد ناقشت الأمر في مقالات عدة جريدة فاينانشيال تايمز في ٢ / ٦ / ١٩٩٥م، وكذلك نيويورك تايمز أكثر من مرة في التوقيت نفسه إلا أن الرئيس مبارك أعلن في حديث تليفوني للإذاعي عمر بطيشة بثه التلفزيون على القناة الأولى "إن نظام مصر

نظام جمهوري، لا توريث فيه للحكم وأنه لا توجد -أساسًا- فكرة لهذا الموضوع".

بدأت الدعوة لتنحية مبارك(٩١) من حركة كفاية بقيادة جورج إسحق وبتوقيع ٦٠٠ شخص على موقع الـ BBC هيئة الإذاعة البريطانية بثقلها الإعلامي والتاريخي وطالبت قراءها بالتعليق هنا بدأ الحديث عن دولة سوزان مبارك، خاصة مع بدايات تسريب سيناريوهات التوريث فقد أدرك الكل أن(الأم) هي التي تقف وبقوة وراء الفكرة، ولم يعرف أحد متى برزت الفكرة في عقلها لكن عندما تم توريث بشار في سوريا أفصحت(محدش أحسن من ابنى)، بدأت الهمهمات على وزراء تعينهم سوزان، ويطلق عليهم "وزير تبع الهانم" قالت عن نفسها في حديث لمجلة نص الدنيا" أنها شخصية قوية للغاية تعرف - بالضبط - ما تريد" وقال رجل الشارع إنها تجاوزت جيهان السادات، ووصفها الكاتب جهاد الخازن في برنامج "من واشنطون" على قناة الجزيرة في ٣ / ٤ / ٢٠٠٥م إنها دولة ثانية والإصلاح الاقتصادى سببه جمال مبارك ولقد رأيت بعيني في إحدى المناسبات السيدة / سوزان تزور مشروعًا، وكان ثلاثة وزراء يركضون خلفها كالأطفال أوالحرس.

من هنا ظهرت حركات معارضة كثيرة للفساد الواضح والتوريث... إلخ.

فظهر كتاب "ضد الرئيس" لعبد الحليم قنديل وكتاب "مصر رايحة على فين" لسعيد شعيب.

تم تزوير انتخابات الرئاسة ٢٠٠٥م وانتخابات البرلمان دون معارضة تذكر للإخوان ولا لليسار بقيادة أحمد عز، لتعديل الدستور وتوريث الحكم وعندما قامت المعارضة بتكوين برلمان ظل يعلق مبارك بجملة شهيرة جدًّا "خليهم يتسلوا". وفيها قمة الاستخفاف بالمعارضة وقمة الإحساس بالقوة الباطشة، في وسط هذه الأجواء، وبينما الحكام يقولون "سلام، سلام، أمان، أمان" انفجرت مظاهرات ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م في كتاب لجلال أمين بعد الثورة صدر عام ٢٠١٢م من دار الشروق عبَّر دواعي أوأسباب الثورة بالقول" تمليك ما لا يملك، وتوريث ما لا يورث وبيع ما لا يباع وطنية زائفة ودولة بوليسية" وهوما فصلناه في هذا الفصل.

الفصل السابع

المسيحيون وثورة ٢٥ يناير

الفصل السابع
المسيحيون وثورة ٢٥ يناير

> يقول مونتسكيو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية[٩٢] "إن عامل استمرار الحكم الدكتاتورى هوالخوف وإذا سقط الخوف سقط الدكتاتور وعامل استمرار الحكم الملكي هوالإجلال للأسرة المالكة وإذا سقط الإجلال سقط الحكم وعامل استمرار الحكم الديمقراطي هووعي الجماهير وإذا غاب الوعى الجماهيري سقط النظام"

صمتت المؤسسات الكنسية الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية، بل وربما نقول إنهم حاولوا منع شبابهم من النزول إلى الميدان شأنهم شأن الإخوان لكن الشباب لم يوقفهم شيء وقد اتسم موقف البابا شنودة الثالث من مظاهرات ٢٥ يناير بالتحفظ الشديد وقد اعتبر أن المسيحيين ليس من طبيعتهم المشاركة في المظاهرات إلا أن دورات الاحتجاج المسيحي السابقة والمتعاقبة للثورة كانت قد بلورت وعيًا مركبًا لدى الشباب

والذى بات يدرك ضرورة الفصل بين الدور الرعوي الروحي للكنيسة والدور السياسي، لذلك انخرط شباب الأقباط ومنذ اليوم الأول للثورة في المظاهرات وهوما مثَّل ضغطًا على الكنيسة جعلها تتدارك موقفها بعد ذلك، وتدعم رغبة الشباب في التغيير بشكل علني، والفكر الذى كان وراء التحفظ الكنسي على المشاركة في الثورة، تلك الأفكار التي كانت شائعة في الأوساطالكنسية وبين قطاعات كبيرة من الأقباط أن مبارك أفضل للمسيحيين والكنيسة من الإخوان المسلمين فعلى الرغم من كل سلبيات عهد مبارك وما شهده من احتقان دينى وغبن لحقوق المسيحيين الدينية والمدنية والسياسية يبقى على أقل تقدير أفضل من الإخوان المسلمين الذين يسعون إلى إقامة دولة دينية تقيد فيها الحريات والحقوق الدينية والشخصية والمدنية ويرى هذاالتوجه أن الإخوان المسلمين هم السبب الرئيس في إشاعة التشدد الدينى منذ بداية مصر الحديثة في أوائل القرن العشرين وقد خرج منهم بعد ذلك الجماعات الإسلامية بكافة اتجاهاتها الراديكالية والمسلحة في السبعينيات والثمانينيات، والتي خططت ونفذت الاعتداء على الكنائس والأديرة وقتل المسيحيين وحرق ممتلكاتهم لتهجيرهم من قراهم. أما المسيحيون الذين انخرطوا في مظاهرات ٢٥ يناير من بدايتها فهم الذين شاركوا قبل اندلاع الثورة في احتجاجات ومظاهرات وطنية عامة مطالبة برفض التوريث المنددة بالفساد وعلى رأسها حركة كفاية، والتي كان يرأسها جورج إسحق فقد كانت لها رؤية ملخصها.. أن غياب الديمقراطية على المستوي السياسي والاجتماعي وحرمان التيار الإسلامي من التعبير عن نفسه سياسيًا قد أدى به إلى مزيد من العزلة التشدد والعنف في أغلب الأحيان وأن سياسة مبارك لم تكن في أي وقت

من الأوقات جدية أوحتى إصلاحية[٩٣] في معالجة قضايا التطرف الديني أوالتوتر في العلاقات بين المسلمين والأقباط أوهموم الأقباط ومشكلاتهم، بل إن الأجهزة الأمنية لنظام مبارك قد اعتمدت على تأجيج الصراع بين الأقباط والمسلمين بالتواطؤ تارة والتحريض تارة أخرى، ليبقي لها السيطرة والقول الفصل والاستمرار في السلطة إلى ما لا نهاية، وعلى العكس تمامًا، فقد رأوا أن التخلص من نظام مبارك وما مثله من تزاوج السلطة مع رأس المال هوالبداية لبناء دولة المواطنة والعلاج الجذري لحل التوترات الدينية في مصر.

في ميدان التحرير ردد المتظاهرون "مسيحيون ومسلمون يد واحدة". وقد حملوا شعارات الهلال مع الصليب باعتبارها إحدى رايات الثورة ومن المشاهد البديعة كان قيام المسيحيون بحماية المسلمين أثناء تأديتهم شعائر الصلاة وما جرى في مراسم القداس المسيحى في ميدان التحرير على أرواح شهداء الثورة بتاريخ ٦ / ٢ / ٢٠١١م؛ حيث قام المسلمون بتشكيل دروع بشرية لحماية المسيحيين وإنشادهم سويًا هتافات (آمين) وكذلك قيام رجال دين من المسيحيين وشيوخ أزهر بالتواجد وسط الاحتجاجات - هذه التحركات الإيجابية جذبت نظر العالم، لقد قام المسيحيون والمسلمون في الأحياء بحماية منازلهم والمنشآت العامة "المتحف المصري" ودُور العبادة المختلفة وتم تأسيس لجان شعبية تقوم بتنظيف الشوارع ومد الثوار بميدان التحرير بما يحتاجونه، لقد قام المصريون بخلق مجتمع بديل لمدة ثلاثة أسابيع مجتمع قائم على التعددية والتضامن المشترك بين مختلف الأطياف؛ حيث لعب الدين دورًا في تعزيز أواصر

التعاون بين مختلف الفئات الاجتماعية على عكس ما كان عليه الحال أيام حكم مبارك لقد نجح متظاهروميدان التحرير في الاستناد إلى مرجعيات التعايش الإسلامي المسيحي والمتشكلة في مصر خلال آلاف السنين من العيش المشترك هذا فضلًا عن مجابهتم لنموذج الهوية الدينية إسلامية كانت أم مسيحية، والتي نالت رواجًا لدى بعض الأطراف بالتواطؤ مع أجهزة الإعلام العالمية التي لم تتوان عن احتضان مثل هذه النزعات.

كانت تجربة ميدان التحرير هي الثمرة الأولى من نوعها في(رحلة علاج) تنطلق من القاعدة الجماهيرية فقد تمكنت من تجريد الجماهير العربية من معضلة حسم القرار بين ناري الحكم السلطوي والتوجهات الإسلامية وذلك بطرحها خيّارا ثالثًا ببناء مجتمع من نوع جديد، مجتمع يستند إلى تعاون مختلف الأطياف الاجتماعية في القضايا الملحة وبعيدًا عن الأيديولوجيات الرنانة ولقد تحول الحوار الإسلامي المسيحي من حوارات مؤسسية داخل الغرف المغلقة إلى (حوار حياتى يومي) إن ما حدث في ميدان التحرير بين المسلمين والمسيحيين المصريين يدعوكل من الكنائس المسيحية والمؤسسات الإسلامية إلى إجراء إصلاحات داخلية ومراجعة أدوارها في المجتمع بشكل متأنٍ، على أن يكون دور الدولة ككيان محايد يستوعب المؤمنين من مختلف الفئات والعقائد، كذلك يوفر وعيًا كافيًّا حول مفهوم المواطنة المستقلة عن الدين، وفي هذا السياق علينا أن نستذكر أهمية مبادرات المؤمنين من القاعدة الجماهيرية غير المنتمين إلى هياكل مؤسساتية وتوجد - حاليًا - مبادرات (شراكة ديمقراطية) من قبل بعض المؤمنين، ومن ذلك مطالبة مجموعة من الأقباط الأرثوذكس

بالزواج المدنى والسماح بالطلاق ودعوة أساتذة من الأزهر إلى استقلال الجامعة عن جهاز الدولة إن الحاجة إلى إعادة تنشيط وتأييد المجتمع المدني.

بعد أن تنحى مبارك[٩٤] في ١١ فبراير لم تنقطع الاكتشافات عن أشياء غاية في السوءلم يكن يتصور أحد أنها بهذه الدرجة بدأ العمال والموظفون يقومون بتظاهرات لتحسين أحوالهم معلنين وقائع فساد يعرفونها واستطاعوا إثباتها بسهولة ويطالبون بعزل رئيسهم وتفجرت مطالبات في التلفزيون والصحف بعزل رؤسائها، وتكشف عن فروق خيالية في المرتبات بين ما يتقاضاه المحظوظون من المقربين لرئيس الصحيفة أوالتلفزيون وبين سائر الموظفين، ثم اشتعلت حرائق في مراكز أمن الدولة في أماكن متعددة من مصر قيل إن الغرض منها التخلص من وثائق مهمة تدين البعض... إلخ.

وقع حريق في كنيسة بقرية أطفيح فاحتج المسيحيون بشدة وطالبوا بالقبض على الجناة وإعادة بناء الكنيسة، ثم توالت حوادث الشجار بين مسلمين ومسيحيين ووقع قتلى من الجانبين وقطعت أذن لأحد الأقباط... في التصويت على تعديل الدستور خطب أحد مشايخ السلفيين أنها غزوة إسلامية ودعا من لا يعجبه التعديلات الدستورية أن يغادروا البلاد المصرية، وعندما عين مسيحي محافظًا لقنا رفض أهل قنا تعيينه نظرًا لتاريخه السيئ الذي لا يتناسب مع أهداف الثورة، وبدأ مسلسل قطع خط السكة الحديد.

لم تمض أسابيع قليلة على تنحى رئيس الجمهورية حتى صدر قرار بالإفراج عن زعيم جماعة إسلامية حكم عليه بالسجن منذ ثلاثين عامًا

لاشتراكه في التخطيط لاغتيال الرئيس الأسبق أنور السادات ولم يفرج عنه لسنوات عدة حتى بعد أن انتهت مدة العقوبة وتم الترحيب به في الصحافة والإذاعة والتلفزيون وظهر في حوار تلفزيوني مع واحدة من أشهر المذيعات بلحيته الطويلة بنية اللون بسبب الحناء يجيب على أسئلة المذيعة كمنتصر في معركة شرسة وأسوأ ما قال : "إن اشتراكي في اغتيال رئيس الجمهورية كان عملًا مبررًا طالما لم تكن هناك طريقة قانونية للتخلص منه.. ترى ما الرسالة الإعلامية التي أريد إيصالها لشباب الثورة. بعد ثمانية أشهر ونصف من الثورة الرائعة وفي ٩ أكتوبر ٢٠١١م وقعت مذبحة ماسبيرو للمسيحيين، ولقد بدأ البعض يتكهن بعدد البلطجية الذين يتبعون جهاز أمن الدولة لتنفيذ أغراض سياسية؛ حيث لا يستحسنون في هذه العمليات القذرة أن يظهر رجل الأمن بزيه الرسمي وقد قال البعض إن عددهم ١٥٦ ألف، ولقد ثبت في مذبحة ماسبيرو أن هناك بلطجية انضموا إلى مسيرة الأقباط السلمية التي نظموها للاحتجاج على موقف محافظ أسوان من بناء كنيسة، فخرجت فجأة من شوارع جانبية أعداد من حملة السيوف والسنج والقنابل المولوتوف وبدأت الضرب في المتظاهرين وفي الشرطة العسكرية في الوقت نفسه فأشعلت القتال بين الجانبين الذي راح ضحيته ٢٥ قتيلًا وأكثر من ٢٠٠ مصاب.

رغم فداحة ما حدث في مذبحة ماسبيرو[٩٥] فإنه ثمة تحول إيجابي تمثل في حث المزيد من الشباب المسيحى على الاهتمام بالسياسة والمشاركة بعد طول رفض وعدم اهتمام ولا مبالاة، وقد وضح ذلك وتمدد نسبيًا مع الاستفتاء على بعض نصوص دستور ١٩٧١م، والذي شهد إشكالاً من

التعبئة الدينية والسياسية على الجانب الإسلامي دفاعًا عن الهوية والشريعة على خلاف محتوى الاستفتاء ومواده، هذا الاستقطاب أدي إلى انضمام المسيحيين إلى الكتلة المدنية الرافضة لمضمون الاستفتاء ومواده، وقد أدت بعض الخطابات الدينية الإسلامية العنيفة إلى قلق وتوتر مسيحى، من هنا جاءت نزعة المشاركة المسيحية من ناحية وتراجع سيطرة المؤسسة الدينية الأرثوذكسية والكنائس الأخرى على بعض الشباب المسيحى الذين انخرطوا في المجال السياسي العام من الناحية الأخرى.

ساعدت الانتخابات الرئاسية في جولتها الأولى والثانية على المزيد من تعبئة الأقباط سياسيًّا كجزء من كتلة مدنية تسعى إلى الدفاع عن الدولة المصرية الحديثة ومؤسساتها، بل وإلى دعم المطالبات السياسية والرمزية بالدولة المدنية، وقد وضح أن الأجيال الجديدة من المسيحيين رأوا ضرورة المشاركة الفعالة في الشأن العام السياسي كمواطنين كاملى المواطنة بلا خوف وقد وضح ذلك في العديد من الأنشطة السياسية منها انخراط بعضهم في بعض الأحزاب الجديدة، أوترشحهم لمجلس الشعب، وفي التظاهرات والتجمعات السياسية والاعتصامات والوقفات الاحتجاجية هذه التغيرات غير المسبوقة أسهمت في بلورة بعض من إرهاصات من التمايز بين السلطة الكنسية وبين الدور السياسي للأجيال الشابة المسيحية، وهوما سوف يؤدي إلى خلق هوامش مستقلة بين الديني والسياسي في المستقبل وقد بدأت اجتهادات لاهوتية لمفكرين مسيحيين في هذا الشأن مثل القس نصر الله زكريا (المفهوم اللاهوتي للثورة) رؤية مسيحية وكنسية للاحتجاجات والثورات، وكذلك (اللاهوت وأزمة وطن) د.إكرام لمعى

وإعادة طباعة كتاب(الوجه الآخر لتعاليم المسيح) لنفس المؤلف، و(المسيح ثائرًا) للدكتور القس صموئيل حبيب، وكتاب (الأقباط إلى أين ؟) للدكتور الأنبا يوحنا قلته، و(الأقباط والثورة) للدكتور القس أندريا زكى.

لقد كان تراجع العملية الثورية أمام الإسلام السياسي أدى إلى تشكيل أحد أبرز عوامل تطور الوعي السياسي والديني المسيحى إزاء ما يحدث في السوقين الديني والسياسي.

من الواضح حتى اليوم أن المؤسسة[٩٦] غير قادرة على التجاوب مع طموحات شباب الثورة في الزواج المدني والطلاق وتصحيح الأوضاع المؤسساتية داخل الهرم الحاكم وإصلاح يشبه الإصلاح البروتستانتى في الغرب، والإصلاح الكاثوليكي الذي تم عام ١٩٦٢م في مؤتمر الفاتيكان الثانى وسمي بمؤتمر الإصلاح المضاد؛ حيث انفتحت الكنيسة الكاثوليكية على كل الأديان والتيارات المختلفة، ويثور سؤال عن أن الكنيسة الشرقية عندما انقسمت في مجمع خلقيدونية في القرن السادس كان تعدادها يقارب الكنيسة الكاثوليكية الغربية واليوم انهارت في شمال إفريقيا كله وها هي تنهار في الشرق بدءًا من العراق وسوريا وفلسطين والأردن وروسيا والصرب والسؤال لماذا ؟

يتساءل نبيل عبد الفتاح في كتابه"النخبة والثورة" هل يعيد البابا والإكليروس الخطاب المحافظ والمتشدد والخطاب ما وراء الخطاب الذي يعاد إنتاجه ويستهلك في داخل الدوائر الكنسية، أم يتم مد جسور الحوار مع بعض الإسلاميين المعتدلين لدعم حالة اعتدالية دينية في المجتمع تؤثر في العملية السياسية ويقول هناك العديد من التحديات والإشكاليات

الفكرية واللاهوتية والسياسية" تواجه المؤسسة القبطية الأرثوذكسية وغيرها من الكنائس الكاثوليكية والإنجيلية في ظل استمرارية الحالة الانتقالية وضغوطاتها وإمكانياتها على اختلافها من السعة والضيق إزاء حرية التدين والاعتقاد ودور المسيحيين في إطار الدولة والمجال العام السياسي).

نستطيع القول إن عام ٢٠١١م[٩٧] هوعام سقوط الهيبة بدءًا من هيبة سقوط الحاكم حسنى مبارك الذى حنث بالعهد الذى أخذه على نفسه (أقسم بالله العظيم أن أحافظ على النظام الجمهوري) فهوقدم إلى قمة السلطة من خلال النظام الجمهوري عام ١٩٨١م لكن مع الوقت تحولت أسرة الرئيس إلى العائلة المالكة وتحولت قرينته إلى ملكة متوجة وصل بها إلى أن تقبل قبلات الوزراء على يدها، وأرادت أن تكون أمًا للرئيس ولم تتعظ من درس الملكة نازلى التي أصرت أن تكون أم الملك إضافة لكونها زوجة الملك فؤاد، وكانت هذه إحدى أسباب ثورة يوليووكما سقطت هيبة الملك فاروق بتصرفات أمه سقطت هيبة مبارك الذي استسلم لرغبات زوجته وابنه فتحول في ميدان التحرير إلى مادة للسخرية وعدم الاحترام ولقد كنا نتمنى أن تستمر هيبة الحاكم الجديد (المجلس العسكري)، والتي اكتسبها بعد وقوفه بجوار الثورة وتحيته العسكرية للشهداء لكن هذه الهيبة سقطت أمام استخدامه القوة والتخويف في ماسبيرو[٩٨] وأحداث مجلس الوزراء ومحمد محمود... إلخ لكنه لم يدرك أن شعب مصر لم يعد يخاف ولم تسقط هيبة الحاكم فقط، بل سقطت معه هيبة الدولة التي تميزت بها مصر منذ فجر التاريخ(الدولة المركزية) وكانت هيبة الدولة تستمد من الفرعون

الإله، والحكومة التابعة له التي ترى العدالة على طول أرض مصر ولقد سار على هذا المنوال محمد على مؤسس مصر الحديثة وقد فقدت الدولة المصرية هيبتها على يد الخديوي إسماعيل لأسباب اقتصادية وخرج من الحكم ذليلًا بعد أن أرسلت بريطانيا وفرنسا مندوبين عنها لمراقبة الصرف للحفاظ على القروض التي اقترضها إسماعيل وتم إنفاقها بسفه واضح... وقد فقدت الدولة هيبتها في عصر مبارك عندما سخّرت كل جهدها لتوريث الحكم لابن الحاكم وصارت الحكومة برئيسها ووزرائها لعبة في يد الابن الذي كان يصدر لهم الأوامر مع أحمد عز في لجنة السياسات وكانت فرصة للفساد والنهب المنظم، ومع سقوط هيبة الحاكم والدولة سقطت هيبة البرلمان، فالبرلمان في كل دولة هوعنوان الديمقراطية والعدالة، لكن البرلمان الذي انتخب عام ٢٠٠٥م تحول إلى ترزي قوانين ليعدل المواد (٧٦، ٧٧) حتى لا يصلح لرئاسة الجمهورية سوى ابن الرئيس، وقد مرر البرلمان قوانين عدة سيئة السمعة مثل : تمديد قانون الطوارئ، وزيادة سلطات امتيازات رئيس الجمهورية...إلخ ولم يحدث أن تمت مناقشة جادة لأى قانون مهما كانت أهميته، ولقد حدث قمع شديد للمعارضة والتي تمثلت في الإخوان المسلمين التي تمثل أكبر مساحة معارضة بالاتفاق مع مبارك قبل ذلك مما أدى إلى زيادة التعاطف الشعبى معهم، ولقد كانت عبارة(المجلس سيد قراره) هي المبرر الأعظم لعدم تنفيذ أحكام القضاء على أعضاء البرلمان الذي صدرت أحكام ضدهم في جرائم تزوير الانتخابات أوفي استخدام الحصانة البرلمانية خارج البرلمان، ثم جاء برلمان ٢٠١٠م؛ ليعبر عن مدى الفساد الذى نخر في عظام الدولة من تزوير فاضح للانتخابات، حيث استبعدت المعارضة تمامًا لكي تتم جريمة التوريث بسهولة ويسر وكم

سخر الشعب من برلمان فقد هيبته ليس في ٢٥ يناير ٢٠١١م لكن في كل مرة خان فيها الأمانة.

وأخيرًا سقطت هيبة المؤسسات الدينية، فمن المفترض أن تكون المؤسسات الدينية هي ضمير الأمة ونعنى بضمير الأمة أن تعبر عن رسالات الأنبياء؛ حيث أرسل الله الأنبياء للعالم؛ لينبهوا البشر أن يعودوا تائبين إلى الله، في الوقت الذي يبلغون رسالة الله للملوك والرؤساء؛ لكي يرسوا العدل ولا يظلموا أحدًا، وعادة كان الرؤساء والملوك والأباطرة يعتبرون الأنبياء من أعدائهم؛ لأن الأنبياء يرفضون البذخ المفرط والانحراف السلوكي واستغلال الفقراء والجهلاء وقمع المعارضين والفساد... إلخ وهكذا كان الأنبياء هم صوت الضمير للحاكم.

وهذا الدور أنيطت به المؤسسات الدينية من بعدهم لكن ما حدث أن المؤسسات الدينية لم تعارض التوريث سواء علنًا أوسرًا ولم ترفع صوتها ضد الظلم والطغيان وتعذيب ضحايا النظام السابق في المعتقلات والأقسام فلم تعارض تمديد قوانين الطوارئ وغيرها أوتعديل المواد (٧٦، ٧٧) ولم تدافع عن ضحايا الفقر من ساكنى العشوائيات وأولاد الشوارع، وعندما تعرض مبارك لمحاولة اغتيال عام ١٩٩٣م خرج رجال المؤسسات الدينية في الشوارع لتهنئة الرئيس بالنجاة- وعندما خرج شباب مؤسساتهم في ثورة ٢٥ يناير يدافعون عن أنفسهم ضد الظلم حاول رؤساء المؤسسات الدينية إثناءهم عن ذلك، لكن أكبر خطيئة لهذه المؤسسات أنها عقدت صفقات عدة بينها وبين الرئاسة لذلك لم تؤيد الثورة بل حاولت منع أبنائها ورجالها من المشاركة فيها ولأجل كل هذه السقطات سقطت هيبة

المؤسسات الدينية أمام شبابها وجموع المصريين وسقوط كل هذه الهيبات هوالذي أدى إلى الفوضى التي حدثت طوال عام ٢٠١١م.

في عام ٢٠١٢م كانت أول انتخابات رئاسية بعد الثورة ولقد كانت بمثابة مهزلة حقيقية لأسباب عدة أن عدد المتقدمين كانوا ثلاثة عشر مرشحًا، ولم يكن أحد منهم يمكن أن تقول عليه (هذا هوالرجل) الذى يصلح رئيسًا لمصر وذلك بسبب هزال مؤسسات ما بعد الثورة والذي أدى إلى هزال إفرازاتها، فالمؤسسات التي أتت بعد الثورة سواء بالتعيين أوبالانتخاب مؤسسات ضعيفة وهزيلة وأبرز هذه المؤسسات الحكومة والمؤسسة العسكرية والمؤسسة التشريعية فقد تم انتخاب أول برلمان بعد الثورة ولقد قدمت المؤسسة التشريعية مرشحين وحسب عليها باقى المرشحين الإسلاميين هذه المؤسسة التي أتت بالانتخاب كان يجب أن تكون أقوي من المؤسسات التي تأتى بالتعيين لكن جاءت ممارستها تدل على التخبط وعدم الخبرة بل وعدم القدرة على ترتيب الأولويات فهي لم تتخذ قرارًا له قيمة حقيقية في إصلاح الحال أوفي تعويض الشهداء وكل لجان تقصى الحقائق التي خرجت منها لم تصل إلى شيء ومن الواضح أن معظم الأعضاء لا صلة لهم بالسياسة أوالثقافة السياسية وقد وضح ذلك سواء في محاولة تغيير القسم أثناء أدائه أوفي ضبط الحوار أوآدابه..إلخ.

هكذا جاءت القيادات التى أفرزتها هذه المؤسسة هزيلة جدًّا أما مؤسسة الحكومة فحدث ولا حرج من أداء أحمد شفيق إلى عصام شرف إلى الجنزورى، أما المؤسسة العسكرية فوضح من أدائها أنها لم تمارس السياسة منذ زمن؛ لذلك تخبطت في البدايات ووضعت كادر إخواني (طارق

البشري) الذى ظهرت توجهاته الإخوانية في السنين الأخيرة وضعته على قمة اللجنة الدستورية، والتي أفتت بأسوأ فتوي لقيام دولة وهي أن تكون الانتخابات البرلمانية قبل الرئاسية، ليحصل الإخوان على الأغلبية وهو ما حدث، وأحدث فوضى ضاربة وقد كان واضحًا من اللحظة الأولى تنسيق المجلس العسكري مع الإخوان بضغط من أمريكا، لأن السياسة الأمريكية كانت صاحبة نظرية "الفوضى الخلاقة" التي اجتاحت الشرق الأوسط؛ لكي تكون نتيجتها حكم الإخوان أوالإسلاميين وكانوا ومازالوا يرون أن هذه هى أفضل وسيلة لإنهاء التطرف والعنف في العالم وعندما كان الشعب -في ذلك الوقت- يتمعن في مرشحي هذه المؤسسات الثلاث كان يكتشف مدى الهزال البادى عليهم نتيجة هزال مؤسساتهم التي قصد إضعافها على مدى أكثر من ثلاثين عامًا والحقيقة لم يكن الهزال فقط قد ضرب المؤسسات الرسمية لكن أيضًا الوعى الشعبى أصيب بالهزال على مدى سنوات وظهر ذلك واضحًا في الانتخابات البرلمانية؛ حيث اختار الشعب اتجاهًا وليس برنامجًا، لقد اختار الشعب الذى زيف وعيه في مفهوم التدين كما علمته مؤسساته وقياداته على أنه فرائض وصلوات والتي تعلن في كل مناسبة أننا شعب متدين والحقيقة غير ذلك تمامًا لقد افهموا الشعب أن التدين هوالعبادة وليس السلوك، فصار المصريون متدينين كمسيحيين ومسلمين، لكن سلوكهم متدنٍ إلى أبعد حد، فمصر ثانى دولة في العالم في التحرش بالنساء بعد أفغانستان، وثانى دولة أيضًا في فوضى المرور وحوادثه وضحاياه بعد المكسيك، وهذا لا يشير بأي شكل لشعب متدين لكنك ترى المساجد والكنائس ممتلئة بالعباد وهذه عجيبة العجائب، بهذه الطريقة فقد الشعب وعيه واختار نوابه من المتدينين -بحسب فكره- لأنه

غير قادر على التمييز بين أشخاص المرشحين فهم يتلقون الإرشاد من القادة المحليين في المساجد والكنائس مما ينتج كتلًا تصويتية نحوأشخاص بعينهم، لقد أفهموهم أنها معركة دينية أوغزوة.

أما باقي الشعب فهم يظنون أن الحكم العسكري سوف يحقق لهم الأمن وهؤلاء يعانون من هذا الهاجس أولئك الذين يعملون بالسياحة والذين يملكون ثروات أومستثمرين وأيضًا الأقليات الدينية والمذهبية أوالعرقية وبهذه الطريقة لم يكن الاختيار ولن يكون له علاقة بالبرامج السياسية للمرشحين ولا بالوعى الديمقراطي، ومعظم الذين يتوجهون لصناديق الانتخابات لا يفهمون المصطلحات السياسية مثل : العلمانية، والليبرالية، والقومية ومنظمات حقوق الإنسان، والموازنة، والاحتياطي النقدي... إلخ.

وما زاد الطين بلة أن القيادات القادرة على الحكم ترفعت عن الترشح بسبب مرارة الواقع بعد الثورة وفوضاه، إن ما حدث في انتخابات المرحلة الأولى كان مفاجأة بكل المقاييس فلم ينجح أي رمز من رموز ثورة يناير لقد توقع الكثيرون وصول حمدين صباحى، أوعبد المنعم أبوالفتوح كمرشح مضمون؛ لينافس مرشح الإخوان مهما كان، لقد كانت المفاجأة وصول أحمد شفيق لقد جاء شفيق من الخلف كالحصان الأسود وتخطى المرشحين الليبراليين والناصريين والمسلمين المعتدلين وكان السبب المباشر في ذلك الأداء المتدنى لشباب الثورة فلم يكن همهم سوى مطالبهم أن يترك المجلس العسكري الحكم قبل الانتخابات بشهرين أوثلاثة أشهر، ولم تكن هذه المطالب لها معنى حقيقي أوتصب في صالح مطالب الثورة

(عيش-حرية-عدالة اجتماعية) وهذا يدل على عدم تمرس الشباب سياسيًا وهوالأمر الطبيعي طبقًا لأعمارهم وخبراتهم، ولهذا السبب كادت أن تحرق مصر أثناء أحداث الداخلية وماسبيروومجلس الوزراء... إلخ.

ولقد قام المجلس العسكري والإعلام بما فيها قناة الجزيرة بتشويه المظاهرات السلمية، وهكذا تحول الشارع المصري عن قوى الثورة وأخذ ينظر حوله بحثًا عمن يحقق له الحياة الآمنة ويوقف الفوضى الضاربة في الشارع المصري سواء فوضى المرور أوالبائعين الذين عطلوا السير في أهم شوارع العاصمة هذا فضلا عن انتشار القمامة وحوادث الخطر والسرقة بالإكراه.. إلخ وهوما نجح في استغلاله أحمد شفيق بذكاء شديد وانتهت المرحلة الأولى بنجاح أحمد شفيق ممثل العسكرية المصرية ومحمد مرسى ممثل الإخوان، والاثنان تشكلا في تربيتهما على الطاعة داخل تنظيم منضبط والإيمان بلونين فقط الأسود والأبيض بدون مساحة رمادية فلا يوجد صفح أوغفران أومبررات للخطأ والمخطئ خائن في الجماعة الدينية للدين والمخطئ خائن للوطن في التنظيم العسكري ولا بد أن يموت لأنه لا قيمة لحياته، الاثنان يملكان الحقيقة المطلقة التي يحكمان بها والمنافسة هنا بين الأيديولوجية الدينية والأيديولوجية العسكرية أوالسياسية، وهكذا كان الاختيار بين المر والأمر منه كما يقول المثل الشعبى المصري.

وقدم محمد مرسى برنامجًا ليبراليًا ووعودًا رائعة ودعا مثقفي مصر للوقوف بجانبه وتم اجتماع المثقفين الليبراليين على رأسهم حمدى قنديل وحسن نافعة وعدد من الوجوه البارزة في أحد الفنادق الفخمة ووقفوا -في الصورة- خلف مرسى على أساس أنه سيكون رئيسًا مدنيًا وهذا

أفضل من العسكري لوكان ديمقراطيًّا حرًّا... إلخ، وبالفعل نجح مرسى في الانتخابات ولقد قمت بإرسال خطاب مفتوح له نصه كالتالى:

السيد الرئيس / محمد مرسى

تهنئة بالمنصب كأول رئيس منتخب انتخابًا حرًّا من قاعدة شعبية ضخمة وصلت إلى المعدلات العالمية ٥١٪ وهذه الإيجابية أحدثتها ثورة ٢٥ يناير، والتى قفزت بمصر خلال ثمانية عشر يومًا إلى مصاف الدول المتقدمة، لكنها كانت قفزة فى الهواء حيث أفرغت من مضمونها فى الفترة الانتقالية، إذ انكشف الغطاء عن حقيقة ما نعيشه كمصريين من عدم قدرة على ممارسة الديمقراطية بصورة صحيحة، فوقعت أحداث عدة تبين منها افتقار الكثيرين منا للثقافة السياسية والقدرة على إنكار الذات، ووضع مصلحة مصر العليا قبل المصلحة الحزبية أوالشخصية، ولقد كان هذا واضحًا فى ممارسة شباب الثورة والمجلس العسكرى والإخوان المسلمين ومجلس الشعب، لذلك كانت الفترة الانتقالية من أصعب الفترات التى مرت بها مصر فى تاريخها الحديث منذ نكسة ١٩٦٧م، إلا أن الانتخابات الرئاسية ووصولكم لسدة الحكم يجعلنا نتفاءل بقدرة الشعب المصرى على التعلم والتدرب، وقد ظهر ذلك واضحًا بفوزكم بفارق مليون صوت تقريبًا عن منافسكم، مما يوضح أن الشعب قادم على الطريق وقادر على الحسم، ولعل هذه النتيجة توضح لكم أن الشعب اختاركم كراهية ورفضًا للنظام السابق ولم يكن أمامة بديل آخر؛ حيث فشل مرشحوالثورة فى امتحانهم ولم يتفقوا وخرجوا من السباق فى المرحلة الأولى، وهذا يوضح بطريقة لا لبس فيها أنه لا يوجد بيننا أشخاص وأحزاب متمرسون حقيقة

على السياسة بمفهومها الدقيق وقد كان ذلك بسبب طول فترة القهر والدكتاتورية لأكثر من ٦٠ عامًا ويحسب لكم أنكم استطعتم كتنظيم عمره ثمانون عامًا ويقوم على الضبط والربط والطاعة والانتشار وخدمة الشعب الفقير والأمى، وتاريخ من القهر والمعاناة أن تصلوا أخيرًا إلى الحكم. لذلك وبسبب كل هذه التداعيات أعتقد أنكم سوف تواجهون مصاعب وتحديات عدة من أهمها:

أولًا: مصاعب وتحديات التاريخ

لا شك أنكم تحملون تاريخًا طويلًا يصل إلى ثمانين عامًا على أكتافكم، ليس كله ناصع البياض وليس كله أخطاء، لكن من الواضح أنه منذ بداية التنظيم على يد حسن البنا عام ١٩٢٨م، كانت له أهداف سياسية من أهمها إعادة الخلافة، والتأثر بالحركة الوهابية بالسعودية، وخلط السياسة بالدين، وقد وقعت اغتيالات عدة أدت فى النهاية إلى اغتيال مؤسس الحركة ذاته، والذى كان قد أدان الاغتيالات التى حدثت قبل اغتياله وأصدر أكثر من بيان بعنوان (ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين) ثم وقع حادث المنشية عام ١٩٥٤م فى محاولة لاغتيال عبدالناصر، ونحن هنا نعلم أن قيادات الإخوان فى كل عصر أنكروا صلتهم بالعنف، لكننا هنا لسنا بصدد إقرار أوعدم إقرار صلة الإخوان بهذه الأحداث، فكتّاب التاريخ والتحقيقات تقول الكثير بهذا الشأن، ثم جاء السادات والذى قام بمغازلة الجماعات الإسلامية، ومن الضرورى أنك تعلم أن هذه الجماعات خرجت من عباءة الإخوان المسلمين، وإن كان الإخوان يقولون إنها خرجت علينا، مهما كان الأمر فما نريد قوله هوأن التاريخ يقول الكثير عن العمل تحت الأرض ضد

الشرعية، وبلاشك أن هذا التاريخ يعتبر عبئًا ثقيلًا عليكم، وعليكم أن تسطروا تاريخًا جديدًا، لاشك أنها فرصة لاتعوض وربما تجيء مرة واحدة فى التاريخ؛ لكى يقوم الإنسان أوالجماعة بتنقية التاريخ العالق بكم بطريقة أوأخرى، وإن كان صادقًا فى جزء منه أومعظمه، فالفرصة متاحة أمامكم لتحدى التاريخ وتنقيته بتوجهاتكم المصرية الخالصة، وسلوكياتكم الشرعية فى النور، والتى يمكن من خلالها دفن التاريخ السلبى إلى الأبد سواء أكان حقيقيًا أم لا فهذه ليست قضيتنا على أى حال.

ثانيًا: تحديات ومصاعب الواقع

لقد نجحتم فى ظروف صعبة للغاية، فالواقع على الأرض معقد جدًا، والقوى التى على الأرض ليست سهلة الاحتواء وليست سهلة المعالجة، فبعد ثورة ٢٥ يناير أصبح الشعب المصرى شعبًا غير مستأنس، وقد عرف الطريق للاحتجاج السلمى وللاستشهاد، وعلى مدى عام ونصف استطاع أن يحقق الكثير، ولذلك من المستحيل إقناع هذا الشعب لا بالقوة والحديد ولا بالطرق التقليدية العاطفية سواء أكانت عاطفة دينية جامحة اعتمادًا على أن الشعب المصرى شعب متدين، أم كانت عاطفة وطنية، ولعلكم لمستم - مؤخرًا - أن التركيز على النغمة الدينية لم يعد له جدوى كما كانت أيام الدكتاتوريات والقمع، حيث يكون الدين هوالملاذ والتضرع إلى الله هوالطريق للرضا بالحال وعدم الثورة على الأوضاع، فلم يعد الشعب (يأكل من هذا الكلام) وأيضًا لم تعد العاطفة الوطنية البحتة تحرك الشعب كما حدث عندما اقتنع الشعب أن هزيمة ١٩٦٧م مجرد نكسة، وعاد قائد الهزيمة بعد استقالته بإرادة شعبية كاسحة ولقد كان للسادات كاريزما

خاصة فى هذا الشأن، أما عن مبارك ونغمته الوطنية(سأخدم شعبى لآخر نبض فى قلبى.... وسأعيش فى مصر وأموت فى مصر.......إلخ) كل هذا لم يعد له مكان فى قلب المصريين؛ لأنهم تعلموا وتدربوا على مدى عشرات السنين أن السياسة لا قلب لها وأن العاطفة الدينية مكانها علاقة الفرد بربه، وليس مكانها انتخاب إنسان أورفض آخر، أوقبول معاهدة أورفض أخرى، وأن المصلحة العليا للعباد والبلاد هى الفيصل الأول والأخير فى كل قرار يتخذ، لذلك فأنتم تواجهون شعبًا استيقظ بعد طول سبات، وغير قادر على النوم ثانيًا، فالقلق والشك أصبح سلوكه اليومى مع كل قائد على أى مستوى، كذلك تواجهون مجلسًا عسكريًّا له مكانته فى قلوب المصريين كقيادة لجيش وطنى يستطيع أن يحسم الكثير من الأمور فى الخارج والداخل، وهويعطى الإحساس بالأمان للشعب، وأخيرًا فإنكم تواجهون نصف الشعب المصرى الذى لم ينتخبكم ويشعر بالتوجس من نحوكم، فهل ستبدأون بالمصالحة الوطنية؟ وهل ستذهب إلى أحمد شفيق وتصالحه كفارس انتصر على آخر فى السباق لأجل مصر؟! وهل ستحقق ما وعدت به من وزارة ائتلافية ورئيس وزراء وطنى ليس من حزب الحرية والعدالة ونواب من المسيحيين والشباب والمرأة؟! إن استطعت أن تفعل ذلك فسوف تربح حقيقة احترام الجميع.

ثالثًا: تحديات ومصاعب الهوية

من البديهيات الوطنية لأى شعب من الشعوب هى أن تنطلق هويته من كونه ينتمى إلى وطن (أرض)، ثم إلى ثقافة (علم-أدب - فن) وثالثًا إلى دين وأخيرًا إلى حضارة، واختلاف الترتيب يصنع مشكلة، فنحن

مصريون ننتمى أولًا إلى أرض مصر وبالثقافة نحن عرب لغةً وفكرًا وعلمًا وفنًا وأدبًا، ثم ننتمى إلى دين (مسيحى مسلم يهودى)، وأخيرًا تظللنا جميعًا الحضارة الإسلامية، ولعلكم تذكرون أن المرشد السابق عندما قام بتغيير الترتيب تسبب فى مشكلة للتنظيم ككل، وذلك عندما صرح قائلًا بأنه لا يهتم لوجاء مسلم من ماليزيا ليحكم مصر!! ثم قال(طظ) فى مصر!! ولا شك أن المرشد قال ذلك وهويظن أنه لن يصل أحد من الإخوان لحكم مصر، وأعتقد أنكم معى فى ترتيب دوائر الهوية؛ أى أننا مصريون عرب مسلمون ومسيحيون، ولورددت ما قالة المرشد السابق فأنت تعلن أنك لست رئيسًا لكل المصريين؛ لأن أغلبية المصريين الذين أعطوا أصواتهم لك هم مصريون أولًا قبل أى شىء آخر، وعندما نقول نحن مصريون أولًا وعرب ثانيًا، ومسيحيون ومسلمون ثالثًا، فهذا يعنى أنه يوجد ما يسمى بالإسلام المصرى.والمسيحية المصرية والذى يختلف عن أى إسلام آخر أومسيحية أخرى، والدليل على ذلك أن الإسلام المصرى ليس هوالإسلام الخليجى أوالإيرانى أو المغربى.....إلخ. والمسيحية المصرية ليست هى المسيحية الغربية أو الهندية.....إلخ. إن المسيحية المصرية تشترك مع الإسلام المصرى فى التسامح والحب وعدم العنف والأرضية المشتركة والعيش والتاريخ المشترك، إن المصرى الذى كان يضع طلباته واحتياجاته فى تابوت الموتى الفرعونى ليصل إلى الجانب الآخر، إلى ماعت إلهة العدالة هونفسه الذى يذهب كمسيحى ومسلم معًا إلى مولد العذراء أوالسيد البدوى أوأبي الحجاج الأقصرى، ويتضرع أمام الأضرحة، وما عروسة المولد النبوى سوى العذراء(فهى عروس) وما حصان المولد

النبوى وفارسة وسيفة سوى(مارجرجس) إنه الشعب الواحد المتدين المنحدر معًا من آلاف السنين وهذه الممارسات لا تجدها فى أى شعب مسيحى أومسلم آخر فى أى مكان فى العالم، إنها هويتنا أردنا ذلك أولم نرد، إن إسلامنا ليس هوالإسلام الفارسى ولا الإسلام البدوى أوالثروى أوالثورى، إنه الإسلام المسالم الذى نشأ على ضفاف النيل مع الحب والنسيم والأرض الطيبة والناس الطيبين، الإسلام الذى لا يعارض الفن أوالفلسفة أوالأدب أوالعلم أوالجمال، إن إسلام إرضاع الكبير ومضاجعة الوداع وزواج المسيار ليس إسلامًا مصريًّا بأى حال وغير مقبول لا من فقراء مصر ولا من الأميين فيها فما بالك بباقى الشعب، إن تقديم هوية مصرية إسلامية معاصرة للعالم سوف يقفز بمصر إلى مقدمة الدول العربية وسوف يحقق الكثير مما نحلم به ونحن نتطلع إليكم فى النهاية منتظرين إعادة الأمن والأمان لكل فرد وأسرة ومنظمة فى المجتمع المصرى، كإعادة النظام إلى الشارع وإعادة السياحة بكل قوة وبخطة واضحة المعالم وبلا غموض أو إمساك العصا من المنتصف، إننا والشعب المصرى ككل نتطلع إلى إعطاء المرأة المصرية مكانتها التى تليق بها، وتحقيق المساواة وحقوق الإنسان لكل شعب مصر، إننا نتطلع إلى دولة المواطنة ولقد بحثت عنها فى خطابكم الأول ولم أجدها أرجوأن يكون المانع خيرًا أوسهوًا.

سيدى الرئيس: ألم أقل لك إن المهمة ثقيلة، لكن مهما كان ثقل المهمة فعندما يحملها كثيرون ينتمون إلى مصر بصدق ويعملون معكم بإخلاص، فسوف نجد مصر - دومًا- فى ارتفاع بلا توقف أوتردد أوتراجع.

مع تمنياتى لكم بالتوفيق.

ماذا فعل الرئيس محمد مرسي بعد وصوله للحكم ؟ قرر الرئيس إعادة مجلس الشعب المنحل بحكم قضائي، هذا غير اصطدامه بالمحكمة الدستورية العليا وقام بتخفيض سن القضاة فيها ليخرج تهاني الجبالي التي أصرت على أن الدستورينص على حلف الرئيس اليمين أمام الدستورية العليا، لكن محمد مرسى حلف أمام الشعب في التحرير، وأخيرًا امتثل لكنه أضمر استبعاد تهاني الجبالي، ثم أقال النائب العام وعين نائبًا يميل إلى الإخوان وهذا يعني بوضوح أنه لم يحترم مؤسسات الدولة، لقد نحى مرسى جانبًا كل الوعود التي صرح بها قبل الانتخابات من مشاركة رموز الثقافة والسياسة في الحكم ومن تفعيل دور المساعدين والمستشارين، وإذ به يحولهم إلى(كذابين الزفة) لا يستشيرهم أحد في شيء ولا يساعدون الرئيس في أي أمر، لذلك فوجئوا بالإعلان الدستورى الذي أخرجه محمد مرسي، والذي فيه عطل القضاء وأعطى اللجنة التأسيسية للدستور شرعية رغم عدم شرعيتها، بل وفشلها في تقديم دستور توافقي، هذا أدى لاستقالة سمير مرقص مساعد الرئيس للتحول الديمقراطى واستقالة خمسة مستشارين ويمكن أن نلخص عيوب الإعلان الدستوري الذي أعاد الثورة إلى الشارع في ثلاثة أمور الأول تناقض مع أهم أهداف الثورة الذي هورفض الحكم المطلق الذي كان يمارسه حسنى مبارك، وقام بتحصين كل قرارات الرئيس وقوانينه منذ اعتلى سدة الرئاسة في ٣٠ يونيو٢٠١٢م واعتبارها محصنة غير مقبول الطعن عليها قضائيًّا، إن الرئيس دون أفراد الشعب جميعًا فوق القانون والدستور فقراراته لا يطعن عليها بأى طريقة وأمام أي جهة كانت، إن تقنين الحكم المطلق في مصر من المستحيل أن يكون عملًا ثوريًّا خاصة أن الحاكم محمد مرسى لم يأت

للحكم؛ لأنه زعيم الثورة، بل جاء بناء على الدستور والقانون أما الأمر الثانى، فهوزيادة ضبابية مستقبل مصر فمن المعروف لأى دارس مدقق أن مصر تحت رئاسة مرسى بهذه الصورة هي الحالة النموذجية التي تريدها أمريكا وإسرائيل لأنها الحالة التي تعطى إسرائيل استقرارًا حقيقيًا ودائمًا فمن المعروف أن أمريكا أقامت علاقات مع الإخوان قبل الثورة ومن المعروف ـ أيضًا ـ أن أمريكا ضغطت حتى يأتي الإخوان -كما ذكرنا من قبل- وكان من الواضح أن هناك اتفاقيات بهذا الشأن، والموضوع مفهوم ومدرك؛ لأن عدم استقرار مصر يؤدي إلى استقرار إسرائيل وتحقيق سياسة هنرى كيسنجر نحو مصر (قطعة الفلين)، والتي تعنى أن تبقى مصر طافية على وجه المياه لا تستقر ولا تغرق؛ لأنها لواستقرت سوف يكون لها شأن لا تتحمله إسرائيل ولوغرقت سوف تخسر أمريكا وإسرائيل الكثير فهذا الطفويجعلها - دائمًا - في حاجة إلى المعونة الاقتصادية والاستقرار السياسي وهذه الضبابية تجعل المستقبل غامضًا وخطيرًا وبلا ضوابط حقيقية؛ حيث لا رؤية حقيقية لمستقبل البلاد وضعت أمام الشعب وأسئلة بلا إجابة من قتل شهداءالشرطة في سيناء أثناء إفطارهم في رمضان ؟ مَنْ فتح السجون أثناء الثورة ؟ مَنْ الطرف الثالث ؟ وغير ذلك الكثير.

أما الأمر الثالث فإن الإعلان الدستوري فتح أبواب جهنم التي سوف تحرق الجميع(الحكام-الجيش -الشرطة-الشعب) لم يستثن أحدًا من النيران التي يمكن أن تكتوي بها بلادنا فمن المعروف أن الديمقراطية تنشئة والحكام تربوا على السمع والطاعة والجيش على المحك، فقد ظهر بيان في تلك الأثناء يتحدث عن أن بعض الضباط ضد الإخوان وضد

الإعلان الدستوري وهذه علامة غير مطمئنة بالمرة، فالجيش هوالملاذ الأخير والشرطة منقسمة ومخترقة من الجماعة أما الشعب فسوف يكون وقود الحرب الأهلية التي لا تبقى ولا تذر لقد كان الإعلان الدستوري القشة التي قصمت ظهر البعير فقد سبقها في احتفالات ٦ أكتوبر أن دعا الرئيس قيادات الجماعة الإسلامية والذين أدينوا بقتل السادات إلى الاحتفال كبديل عن جرحى الجيش في معركة أكتوبروأجلسهم في الصفوف الأمامية وكان هذا المنظر تحديًا للجيش والشعب، هذا فضلا عن خطاباته ضد الشيعة التي أدت إلى مذبحة لشيخهم حسن شحاتة ومعاونيه وأخيرًا وليس آخرا عندما خطف إرهابيون بعض رجال الشرطة من سيناء قال نحن مع الخاطفين والمخطوفين ! !

من هنا ونتيجة كل ذلك وعلى القمة الإعلان الدستوري عادت الثورة إلى الميادين وخاصة الإتحادية وقام الشباب بالاعتصام أمام القصر الجمهوري وكان المشهد أمام قصر الاتحادية يوم الخميس ٦ ديسمبر ٢٠١٢م مساءً مذهلًا ورائعًا وحيويًّا، رسالة لكل من يهمه الأمر تقول : جذوة الثورة مازالت متقدة ولن تستطيع قوة على الأرض إطفاءها وأن الثورة تفرض كلمتها على الجميع، لقد قام بعض المؤيدين لمرسى بفض اعتصام الشباب أمام الاتحادية مساء الأربعاء ٥ ديسمبر بقوة وشراسة روعوهم وجرحوهم وظنوا أنهم بذلك سوف يمنعون الكثيرين من الخروج يومي الخميس والجمعة لكن ما حدث كان العكس تمامًا لقد ثبت أن استعجال الإخوان لحكم مصر أضر بقدرتهم على الأداء السياسي الفعال، أتذكر جيدًا د. عصام العريان قبل الانتخابات الرئاسية في ندوة

شارك فيها بدأها بالقول : "نحن لسنا مجانين لنحكم مصر في هذه الظروف ثم نحن غير مهيئين لذلك" لكن استعجال الإخوان لحكم مصر أدى بهم إلى موقف لا يحسدون عليه لقد تراجع مرسي عن قراراته ثلاث مرات في ثلاثة شهور، فما السبب ؟ من المستحيل أن يكون السبب هوالمؤامرة أوالقوى الخارجية أوالثورة المضادة لكن قبل كل هذا -حتى لوكان موجودًا- وبعده إنه الأداء(الخبرة يا مواطن) كيف لرئيس في خمسة أشهر يعادي القضاء والإعلام ونقابات عدة والمسيحيين والأقليات الصغيرة، تميزت مظاهرات الاتحادية أنه قد أضيف إلى شباب الثورة نساء ورجال شعورهم بيضاء ورجال رءوسهم صلعاء وهذا يعني أن الشعب بكل فئاته مع الثورة دون تحفظ، وأن الانحياز للثورة كان من مسلمين وليسوا إخوانًا ومن مسيحيين وليسوا كنسيين ومن يساريين وليسوا أيديولوجيين ومن قوميين وليسوا مؤدلجين إنهم مصريون حتى النخاع يرددون عيش- حرية- كرامة إنسانية-عدالة اجتماعية لا يهتمون بالنظام ولا بالصراع عليه إنهم يموتون ويصابون كل يوم وليس دفاعًا عن أيديولوجية معينة أوأشخاص بعينهم أوقيادات لهم كاريزما لكن عن مصر ومصر فقط.

هناك حكمة إنسانية تقول (إن عدم استئناس المستحيل يجعل الممكن مستأسدًا) إن ما فعله الإخوان هواصطيادهم للمستحيل(الحكم) لكنهم بعد اصطياده فشلوا في استئناسه وهنا صار الممكن(استمرارهم في الحكم) مستأسدًا عليهم أومستحيلًا.

بعد عام من حكم الإخوان تعمق الانقسام وزاد التعصب ورفض الآخر وعدم الإحساس بالأمان، وقد بدا أن كل محاولة للإصلاح تأتى

بعدم المرجومنها سواء على المستوى الدولى أوالمحلى فقد كشف أسلوب التعامل مع قضية سد النهضة الإثيوبي على عدم احتراف سياسي عميق، حيث جمع مرسى بعض الشخصيات العامة من غير المتخصصين وفتح باب المناقشة ليقول أحدهم علينا إن نهددهم بالضرب بالطيران (كده وكده يعنى)، وسارت المناقشة العقيمة الساذجة ولم يكن يعلم رئيس الجمهورية ومن معه أنهم على الهواء مباشرة، وكانت نكتة الموسم في الشارع المصري التى تدل على تخبط وعدم خبرة، بل وسذاجة القائمين على حكم مصر كذلك التعامل مع القضية السورية؛ حيث تم قطع العلاقات مع الحكومة السورية على الهواء مباشرة في خطاب عام دون علم الخارجية وذلك اتساقًا مع الموقف الأمريكي إلا أنه بعد ٤٨ ساعة تغير الموقف الأمريكي في اجتماع الثمانية الكبار من نحوالقضية السورية، أما في الداخل فتعيين المحافظين جاء خاليًا من أي حنكة سياسية سواء من ناحية التوقيت أوالأشخاص فاختيار أحد المنتمين إلى الجماعة الإسلامية محافظًا للأقصر أدى إلى كارثة سياحية عالمية؛ لأنه اكتشف أنه من الذين قاموا بعملية ذبح السياح في معبد حتشبسوت في الأقصر، والذى اكتشف ذلك الإعلام الغربى وكانت فضيحة، وهكذا رفضت باقى المحافظات تعيين محافظين من الإخوان، من هنا كانت الدعوة للمظاهرات يوم ٣٠ يونيو٢٠١٣م ولقد استهان الإخوان بالدعوة.

والحقيقة أنه لم يكن في الحسبان أن تصل مصر إلى هذه الدرجة من الغليان بعد سنة واحدة من حكم الإخوان فقبل عام استبشر الجميع خيرًا حيث خرج الشعب واختار د. محمد مرسى رئيسًا للجمهورية رفضًا لرموز

الحكم السابق ولم يكن أحد من الأقليات سواء الدينية أوالعرقية معترضًا على نجاح مرسى، بل كانوا متفائلين ينتظرون حلولًا حقيقية على الأرض وكان الجميع يحلم بتكرار تجربة ماليزيا أوإندونيسيا أوتركيا، لكن الجميع اكتشف أن إسلامي مصر يعتبرون أن هذه التجارب فاشلة ولا تطبق الإسلام الحقيقي وأرادوا تطبيق الإسلام بحسب تصورهم الذي يرفض الآخر ويقتل المرتد وانحسرت رؤيتهم في الحدود واستقبل إسماعيل هنية استقبالًا رسميًا وهورئيس(حماس) المنشقة عن منظمة (التحرير) والمصنفة بجماعة إرهابية مما دعا الشعب المصري أن يعيش الرعب كله.

وكان هناك حديث عن تخصيص سيناء لتكون امتدادًا لغزة وعليها تبنى دولة فلسطين في حل الدولتين مقابل ٢٠٠ مليار دولار من أمريكا لمصر.

وبعد ازدياد الجرائم الإرهابية وجه وزير الدفاع عبد الفتاح السيسي كلمة إلى الشعب المصري يوم ٢٤ يونيو٢٠١٣م يطلب منهم النزول لتفويض الجيش والشرطة لمحاربة الإرهاب ولذلك خرج الشعب بالملايين يوم الجمعة ٢٧ يونيو٢٠١٣م يفوضون الجيش والشرطة لمحاربة الإرهاب.

إن المشكلة الحقيقية للإخوان هذه المرة أن الذين خرجوا ليسوا أحزابًا سياسية فقط، لكن الشعب(عشب الأرض) وهذا التعبير يطلق على الفقراء والذين بلا عمل ولاحول ولا قوة، إنها المرأة المعيلة والشاب التائه بلا رؤية ولا هدف أوعمل إنه الرجل الذي لم يعد معاشه يكفيه يومًا من ثلاثين، بعدها نزلت الملايين يوم ٣٠ يونيوكما طلبت منهم حركة تمرد التي جمعت ملايين الاستمارات من الشعب قرابة ٢٠ مليون استمارة

تطلب من مرسى انتخابات مبكرة لرئاسة الجمهورية ويسمح فيها لمرسى بالترشح أواستفتاء على استمرار مرسى في الحكم من عدمه، لكن مرسى رفض الطلبين وبناءً على مظاهرات ٣٠ يونيوومطالب المصريين قام وزير الدفاع يوم ١ يوليو بتوجيه إنذار إلى رئيس الجمهورية بأن يقبل طلبات الشعب ويختار أحد الاختيارين وأمامهم ٤٨ ساعة لكن مرسى قدم خطابًا للشعب تحدث عن الشرعية وأن دمه ثمن الشرعية وفي ٣ يوليو- وبعد انتهاء المهلة- قام وزير الدفاع بحضور شيخ الأزهر وبابا الأقباط ورؤساء أحزاب من بينهم حزب النور السلفي بوضع خريطة طريق تبدأ بسنة انتقالية يرأس فيها السيد / عدلى منصور رئيس المحكمة الدستورية ويعد فيها دستورًا جديدًا، ثم انتخابات للرئاسة بعد نهاية العام في ٣٠ يونيو٢٠١٤م وهوما تم بالفعل؛ حيث كان مرشحان على مقعد الرئاسة عبد الفتاح السيسي وحمدين صباحى وانتخب السيسي رئيسًا لمصر بأغلبية ساحقة وكانت انتخابات تضم جميع شرائح الشعب المصري وقد نزل (حزب الكنبة) وهذا التعبير يعبر عن المصريين الذين كانوا يرفضون تمامًا المشاركة السياسية في أي أمر كان، وكانت هذه انتخابات تعبرعن تأييد كامل وحب لوزير الدفاع عبد الفتاح السيسي الذى أنقذ مصر من الانهيار والوقوع في يد الجماعة الإرهابية.

الفصل الثامن

الموقف المسيحي

الدور "الحاضر-المستقبل" -المصير

الفصل الثامن
الموقف المسيحي
الدور "الحاضر-المستقبل" -المصير

فوجئ الشعب المصري بمسيحييه ومسلميه أن دعاوى حرق مصر التي هدد بها الإخوان إذا لم ينتخب مرشحهم في الانتخابات الرئاسية تعود ثانية بمفردات أخرى مثل إن لم يعد الرئيس إلى كرسيه ستحرق مصروتحقيقًا لهذه التهديدات وقع في مصر ما لم يقع في تاريخها من إرهاب بداية من شاب ملتحٍ يحمل علم القاعدة الأسود وعليه رسم الجمجمة يقوم بإلقاء أطفال من على سطح منزل بالإسكندرية إلى محاولة تدمير سيناء مرورًا بموجة رهيبة لحرق الكنائس على مستوى الجمهورية

(أكثر من ٧٠ كنيسة) كل ذلك بهدف استدراج الشعب المصري لحرب أهلية بين المسيحيين والمسلمين لكن موقف المسيحيين كان واضحًا أنهم لن يستدرجوا لمثل هذه الحرب، وقال البابا تواضروس قولته الشهيرة : "مصر

بلا كنائس أفضل من كنائس بلا مصر" في الوقت الذي كان المسلمون من غير الإخوان يدافعون عن الكنائس.من هنا كان لا بد للمسيحيين أن يقيموا الموقف.دعا البعض للهجرة والبعض الآخر للاحتماء بالغرب وجمعيات حقوق الإنسان، والبعض الأخير بالتعاون مع الأقليات الأخرى والتمترس في الأرض المصرية من هنا كان لا بد من تقييم الواقع الحالي(الحاضر)، وبناء علي نتيجة التقييم يأتي تحديد الدور الذي يجب أن يقوم به المسيحيون، ثم التطلع لمستقبل رائع لمصر يشارك فيه الجميع.

أولًا:تقييم الواقع

وهنا سنحاول تقييم واقع المجتمع المسيحي من الداخل وما يدور فيه من أفكار سلبية أو إيجابية، ثم تقييم الواقع المصري بعامة من نحوعدم القدرة على القضاء على التطرف والخروج من المأزق.

- تقييم واقع المجتمع المسيحي من الداخل

هناك أسئلة مصيرية تطرح اليوم فى الأوساط المسيحية مثل: هل مصر الآن تحتاج إلى الوجود المسيحى.. وهل المسيحيون هم أحد أسباب الفوضى والاضطراب.. وهل هم فاعل أم مفعول به.. وهل إذا ترك المسيحيون مصر(وهوسؤال جدلى) سوف تهدأ البلاد ويسعد العباد؟! والأسئلة المقابلة هل يحتاج المسيحيون إلى مصر.. ولماذا يحتملون ما يحتملونه.. ولماذا لا يتركون البلاد ويهاجرون فبلاد الله واسعة؟ وهل هناك -فعلًا- مسيحيون قادرون على الهجرة لكنهم متشبثون بمصر ويفضلون البقاء فيها مهما ساءت الأمور؟! وهل هناك من يراهن على المسيحيين فى مصر سلبًا أوإيجابًا؟ والحقيقة أنه لم ولا ولن توجد إجابات شافية عن مثل

هذه الأسئلة، فالأسئلة الصعبة لا تصلح معها الإجابات السهلة، لكن أمام هذه الأسئلة يمكننا أن نحدد أربع خرافات لا بد وأن ينتبه لها المسيحيون حتى لا يقعوا فى فخ الأوهام، ثم نعقبها بحقائق أربع على جميع المصريين أن يتمسكوا بها.

أولًا: أربع خرافات

١ــ خرافة أن تقوم الولايات المتحدة والغرب بحمايتهم من الخارج أوالجيش والدولة من الداخل

ربما لا تتعجب ــ عزيزى القارئ ــ عندما أتحدث عن خرافة حماية أمريكا والغرب، فالمعروف أن هذه الدول لا تحمى سوى مصالحها، فإن كانت مصالحها مع المسيحيين سوف تقوم بحمايتهم والعكس صحيح، وقد وضح ذلك تاريخيًا عندما ضحت أمريكا بحسنى مبارك وعبدالله صالح وزين العابدين، ولقد ضحوا بمسيحى العراق رغم وجود الجيش الأمريكى هناك فلم يحركوا ساكنًا أمام حرق كنائسهم وقتل بعضهم، والسؤال الأهم هنا لماذا لا يطلب المسيحيون -إذن - حماية الجيش أو الدولة، والسبب ــ فى رأيى ــ أن الدولة والجيش لن يهتزا بسبب حادث هنا أوهناك، لكنهم سوف يهتزون عندما تهتز عروشهم ومواقعهم وهذا لا يتم إلا بحرب أهلية واندلاع أى حرب أهلية سوف يكون وقودها ــ كما هى العادة ــ الأقليات وساعتها لن يفيد شيئًا.

٢ــ خرافة الهجرة إلى الخارج

من المستحيل أن تتم هجرة عشرة ملايين إلى الخارج، وعندما يهاجر كل

شخص قادر على ذلك فهذا يضعف الكيان على المدى القريب والبعيد، فضلًا على أن الحياة فى الهجرة خاصة للجيل الأول أسوأ كثيرًا من الحياة فى مصر لاختلاف العادات والتقاليد والإحساس بالغربة، بل إن من هاجروا شعروا بالغربة بينهم وبين أولادهم الذين تربوا فى المهجر أوولدوا هناك، ولم أقابل مهاجرًا من الجيل الأول إلا وعبر لى عن ندمه ومعاناته الشديدة.

٣- خرافة التحالف مع الأقليات الأخرى

إن تحالف الأقليات وبحسب خبرة الشعوب يضع الجميع على اختلاف توجهاتهم فى سلة واحدة والجمع هنا سيكون بين سيئات، بمعنى أن النظرة من الخارج لائتلاف الأقليات الذى يضمهم معًا تبين عوامل عدة للرفض بينما عامل الرفض عند كل مجموعة منهم يختلف عن الأخرى وهكذا تتحمل كل أقلية منهم سمات رفض الآخرين بالإضافة إلى سبب الرفض الخاص بها ودليلنا على ذلك المعارضة السورية.

٤ـ خرافة منظمات حقوق الإنسان

لاشك أن منظمات حقوق الإنسان تقوم بعمل عظيم للاجئين ومصابى الحروب، والأقليات العرقية، لكن ما الذى يمكن أن تفعله هذه المنظمات لأقلية عددية قادرة على الوقوف على قدميها، ولديها جميع وسائل التعبير عن الذات تمتلك مؤسسات تعليمية وعلاجية ومحطات فضائية وصحف، وفى هذه الحالة يكون نشاط المنظمات الحقوقية مجرد إصدار بيانات شجب وتعضيد كما هو حادث الآن.

والآن أنتقل إلى الحقائق الأربع التى يجب أن تترسخ وتتعمق عندنا كمصريين جميعًا

ثانيًا: حقائق أربع

١- حقيقة أنه بالمسيحيين يكتمل وجه مصر الحضارى

هناك فارق ضخم بين دولة لا يوجد بها تنوع بطبيعتها مثل: السعودية والكويت، وقطر.. إلخ وبين التنوع المصرى، فصانعوالتنوع الخليجى جاءوا متغربين من أمريكا وأوروبا وباكستان ومصر، وهذه القشرة من التنوع ليس تنوعًا حضاريًا حقيقيًا لكنه مفتعل، لأنه بلا جذور ولا امتداد، فأشخاصه متغيرون ومؤقتون، فلا يعبر هذا التنوع عن وجه حضارى، لذلك تحرص دول المهجر مثل أمريكا أن تضع المهاجرين فيما يسمى بوتقة الانصهار أى «يتأمركوا»، وهم فى ذلك يراهنون على الجيل الثانى والثالث، أما الجيل الأول فلا يعتبرونه تنوعًا حضاريًا، أما المسيحيون فى مصر فهم الذين يقدمون الوجه الحضارى لبلادهم؛ لأن جذورهم ممتدة فى هذه الأرض فتنوعهم مع المسلمين يعبر عن حضارة حقيقية وليست طارئة، ولذلك يعتبر العالم الفاهم أن دعوات البعض للمسيحيين أن يتركوا مصر هى دعوات متخلفة قبلية وأن محاولات المسيحيين الهجرة هى تدمير لوجه مصر الحضارى المتميز والذى لا يوجد إلا فى البلاد العريقة، لذلك على مسيحيى مصر أن يتمسكوا بتعميق وتلميع وجه مصر الحضارى، وذلك بإصرارهم على البقاء وسوف يأتى زمن وهوآتٍ لا محالة يكون فيه المصريون متحضرين كفاية ليقدروا أن بقاء المسيحيين كان من أجل مصر.

٢ــ حقيقة أن المسيحيين هم التاريخ الحى لمصر القديمة وعامل اكتماله مع باقى المصريين

لقد عاش المسيحيون ستة قرون قبل دخول الإسلام لمصر، وكانوا امتدادًا لمصر الفرعونية، ثم اندمجوا مع العرب القادمين وتعلموا لغتهم

وتبادلوا العادات والتقاليد وكونوا حضارة جديدة، وهذا ما لم يحدث مع مسيحيي المغرب العربي الذين رفضوا تعلم اللغة العربية ولم يصنعوا تمازجًا حضاريًا مع العرب القادمين، فاندثرت المسيحية والمسيحيون القدماء من الساحل الغربي، لذلك فالتجربة المصرية فريدة من نوعها، والمسيحيون المصريون مع مواطنيهم المسلمين علامة واضحة على إمكانية امتزاج الشعوب وتلاقح الحضارات، واستمرار هذا التاريخ بهذه الفرادة يقع على عاتق المسيحيين كأقلية تاريخية وعلى المسلمين المدركين لذلك.

٣ـ حقيقة الدور المسيحي في استقلال مصر

إن هذا الدور ـ ولحسن الحظ ـ لم ولن يسقط من التاريخ ـ مهما حاول البعض ذلك ـ لأن هناك أحداثًا شاهدة وأشخاصًا بعينهم قاموا بأدوار لا تنكر، فدور الكنيسة المصرية الوطني لا ينكره إلا جاهل بالتاريخ لقد وقف المسيحيون مع المسلمين ضد المستعمر الأجنبي في عصر المماليك والأتراك والحملة الفرنسية والاحتلال الإنجليزي والإسرائيلي، والتاريخ مليء بحكايات أبطال ثورة ١٩١٩م، وحرب (١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م)، وهناك رموز عظيمة في العصر الحديث بداية من مكرم عبيد إلى بطرس بطرس غالي الذي صار أمينًا عامًا للأمم المتحدة، ودور المسيحيين مازال ممتدًا حتى اليوم وغدًا، فهم يلعبون أدوارًا وطنية عظيمة في كل المجالات.

٤ـ حقيقة مبدأ دفع الثمن للإنجاز

هناك مبدأ إنساني عام هوأن من يريد أن ينجز شيئًا عظيمًا عليه أن يدفع الثمن وكلما كان الإنجاز أعظم كان الثمن أفدح وهذا المبدأ في التراث المسيحي يعبر عنه بمصطلح «حمل الصليب»، والصليب هنا رمز

للألم من أجل تحقيق هدف وسام عظيم، والإنسان الذى يريد أن يصنع مستقبلًا إنسانيًا عظيمًا لمجتمعه عليه أن يحمل الصليب لأجل تحقيقه كما فعل غاندى، وتابعوه فى الهند ونيلسون مانديلا وتابعوه فى جنوب إفريقيا، ومارتن لوثر كينج وتابعوه فى أمريكا، لقد دفع كل هؤلاء الثمن لأجل تحقيق أهداف عظمى لأوطانهم مثل: الاستقلال، والمساواة، ومصر اليوم على أبواب الديمقراطية والحرية والعدالة وقد وضح بجلاء أن تحقيق هذه الأهداف من الصعوبة بمكان. ألا تستحق مصر أن نحمل الصليب معًا لأجلها سواء أكنا مسيحيين أم مسلمين أم غير ذلك من المصريين؟

- نأتي ـ الآن ـ إلى تقييم المجتمع المصري بعامة من جهة عدم القدرة على مواجهة التطرف والخروج من المأزق:

لم تنقطع موجات التطرف الدينيى في بلادنا على مدى قرن من الزمان ولقد كانت هناك محاولات جادة للقضاء عليه، والذى جربت فيه كل المحاولات الممكنة من استخدام للأمن، والثقافة والمثقفين بمئات الكتب والمؤتمرات الداخلية والخارجية والندوات والبرامج فى الإعلام ومحاولات تعديل المناهج التعليمية هذا فضلًا عن دور المؤسسات الدينية المعتدلة فى تقديم الفكر الوسطى للدين... إلخ، وكان نتيجة كل ذلك أن زاد التطرف وظهرت جماعات أكثر عنفًا، فداعش أعنف من القاعدة والقاعدة أعنف من الجهاد...إلخ. ولقد استخدمت كل الدول العربية والإسلامية أقصى ما لديها من إمكانيات لتحجيم التطرف بلا جدوى، بل ما حدث هوالعكس إذ انتشر التطرف كمًا وكيفًا، والسؤال المحورى هنا هولماذا؟

عندما نضع ـ جانبًا ـ الحديث عن الفقر والجهل والاغتراب للمتطرف ونتعمق أكثر فى دراسة الظاهرة سوف نجد أن هناك ثلاثة أسباب أساسية تقف حائلًا بيننا وبين القضاء أوحتى إضعاف التطرف.

السبب الأول سياسى استراتيجى، والآخر ثقافى تاريخى، والأخير دينى فقهى.

السبب الأول: سياسى استراتيجى، احتكار الدولة للدين

إن ما يعوقنا بشكل جذرى عن علاج التطرف والقضاء عليه هواحتكار الدولة للدين على طريقة احتكارها للسلع، فالدولة لها رؤيتها الاستراتيجية فى فهم الدين واستخدامه، لذلك فهى تمنع أية رؤية أخرى من خارجها، أوغير متطابقة مع رؤيتها. فالجريمة هنا لا تختلف كثيرًا عن تهريب السلع غير الممنوعة لذاتها مثل : السيارات، والسجائر، والمجوهرات، فهذه السلع ليست محظورة لكن يحظر توريدها إلى البلاد بعيدًا عن الجمارك والمنافذ الحكومية المخصصة للاستيراد. من أجل ذلك نجد أن الذين يريدون محاربة التطرف بشكل جاد من متدينين مجتهدين ومثقفين جادين وغير ذلك يجدون أنفسهم مضطرين للتحالف مع الدولة التى من حيث المبدأ لا ترفض الفكر الدينى المتطرف لكنها تحاربه؛ لأنه خارج إطار أورؤية الدولة شأنه شأن السلع المهربة. لذلك يجد الجادون فى محاربة التطرف أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه؛ لأنهم يجهدون أنفسهم فى اجتهادات دينية تنويرية وأبحاث للتقريب بين الدين والعلم وهم يظنون أنهم بذلك يعمقون السلام والتسامح والتنوير لكن فى النهاية يكتشفون أن المتطرفين أقرب إلى الدولة منهم، فالدولة تنظر إلى

هؤلاء المثقفين ورجال الدين المستنيرين نظرتها إلى أناس عملهم الكلام والأبحاث، لذلك تقوم الدولة بتصديرهم للدول الأجنبية فى مؤتمراتهم الدولية ليكونوا واجهة طيبة لها وللسلطة. فهؤلاء المستنيرون لا قاعدة شعبية لهم ولا لهم كذلك قيمة عملية لدى الدولة والسلطة، فهم بمثابة أيقونة توضع بجوار أيقونة المؤسسات الدينية الإسلامية والمسيحية على صدر الدولة مع الدعاية إن هذه المؤسسات تعبر عن الدين المعتدل مع أن الواقع غير ذلك. فعندما تحدث الرئيس السيسى عن الحاجة إلى ثورة دينية امتعضت المؤسسات الدينية بلا استثناء، لأنها هى بمثابة المنفذ الرسمى للدولة (لسلعة الدين)، ولم يكرر رموزها المصطلح (ثورة دينية)، بل حولوه إلى دعوى قديمة متهالكة بعنوان «تجديد الخطاب الدينى»، هذا فضلًا عن تحفظ المؤسسات الدينية على إدانة المجموعات الدينية الإرهابية. وهكذا نجد أن المخلصين من رجال الدين والثقافة والسياسة والمجتمع فى محاربة التطرف يعيشون على الهامش بلا قيمة تذكر لأفكارهم ذلك؛ لأنهم ليسوا من المنافذ الرسمية لفكر الدولة الدينى كالمؤسسات الدينية والثقافية والإعلامية الرسمية، بل إنهم عندما يقيمون الموقف يجدون أن المتطرفين أقرب إلى المؤسسات الرسمية والسلطة منهم.

السبب الآخر: ثقافي تاريخي

عندما أصدرت المجلة الدنماركية الصور المسيئة للرسول فى بداية التسعينيات وحدثت ردود فعل عنيفة على مستوى العالم العربى والإسلامى، قام بهى الدين حسن الناشط الحقوقى بناء على دعوة من الخارجية الدنماركية بدعوة كاتب هذه السطور وصلاح عيسى بالسفر إلى

الدنمارك وعقد بعض اللقاءات من أهمها الاطلاع على وجهة نظر المجلة فيما قامت به من إساءة، وعندما التقينا برئيس التحرير والمحررين قالوا لنا إنهم فكروا فى إصدار كتيب للأطفال عن رسول الإسلام وطلبوا رسامى كاريكاتير لتصميم الكتاب ورسوماته وقد تقدم كثيرون فى البداية ثم اعتذروا الواحد تلو الآخر، والقليل الذى استمر طلبوا عدم وضع أسمائهم على الكتب خوفًا من انتقام المسلمين فألغوا المشروع. إلا أنه حدث أن فنانًا سويديًّا رسم جدارية فى استكهولم لامرأة عارية مرسوم على جسدها آيات من القرآن، فقام المسئولون بإزالة الجدارية دون حتى استئذان الفنان خوفًا من غضبة المسلمين أيضًا، ثم قام فنان فى أحد متاحف لندن الصغيرة فى الضواحى بصنع تمثال امرأة من أوراق التوراة والإنجيل والقرآن وقام بعرضه إلا أن مدير المتحف رفع التمثال دون العودة للفنان. وهنا قال رئيس التحرير لقد أحسسنا أن حرية التعبير والعلمانية الأوروبية التى دفع آباؤنا وأجدادنا دماءهم ثمنًا للحصول عليها من براثن رجال الدين والكنيسة فى أوروبا تكاد تضيع من بين أيدينا، نحن لسنا ضد الإسلام أوالمسيحية أوأى دين، نحن العلمانيين الذين حققوا علمانيتهم وحرية فكرهم بدمائهم، نحن لسنا ضد الإسلام نحن ضد قمع الفكر وحرية الرأى.

هذا التاريخ والصراع ضد الطغيان الدينى فى أوروبا لم يحدث فى بلادنا، وبالتالى فمواطنونا لم يختبروا مثل هذه الحرية لا هم ولا آباؤهم أوأجدادهم، إنهم لم يختبروا إصلاحًا دينيًّا أوتحديثًا تفسيريًّا لنصوص مقدسة فالغلبة - دائمًا وأبدًا - للقديم والسلف إنهم لم يمارسوا مقاومة

السلطة الدينية المقدسة التابعة للدولة المحتكر الوحيد للدين، وبالتالى لا يوجد لديهم أى تصور حضارى لهذا الأمر؛ لأنهم- ببساطة - لم يعيشوه تاريخيًا وحضاريًا. فكيف يحاربون - لأجله - تلقائيًا هل يلقون بأنفسهم للمجهول أم يعيشون فى جنة المضمون هنا وهناك خصوصًا أن أى محاولة للإصلاح تقابل بالاستهجان والتكفير.

السبب الأخير: دينى فقهي

وهوأن المتطرفين والأكثر تطرفًا والمعتدلين والأكثر اعتدالًا لهم إطار دينى فقهى واحد، فلا فارق فقهى بين فكر داعش والإخوان والجهاد والمؤسسات الدينية الرسمية على العموم إلا فى التوقيتات. فداعش تحقق ما يؤمن به الجميع هنا والآن، والإخوان يؤمنون بنفس الفكر مع الاختلاف فى التوقيت والمؤسسات الرسمية تختلف فى التوقيت وبعض شروط التطبيق وأسلوبه هذا كل ما فى الأمر. لأجل هذه الأسباب وغيرها لم ولن يهزم التطرف الدينى فى بلادنا العزيزة العامرة.

هذا هوالواقع الذي نعيشه اليوم والذي يبدومظلمًا .

- الحلول المطروحة أولنقل كيفية الخروج من المأزق

لا ولن توجد طريقة للخروج من هذا المأزق إلابتجديد اللاهوت المسيحي والفقه الإسلامي :

أولًا: الهوية والحضور

إن الهوية المسيحية تتأكد من خلال الحضور الإلهى فى طبيعة الإنسان، وهذا لا يتحدد فى إطار منظومة سوسيولوجية(اجتماعية) لاهوتية بقدر ما هى «عيش» لهذا الحضور هذا العيش هوفى الأساس تحول فى الكيان

الداخلى للإنسان على الصورة التى يريدها له الله (وهى صورة الإنسان يسوع المسيح) الذى كان يتحرك بدافع الحب والرحمة لجميع البشر دون تمييز لعرق أودين أوجنس، والذى نقل فكر البشر من كون أن هناك «شعب الله المختار» إلى أن جميع البشر هم شعبه، حتى الملحد منهم وغير المؤمن به، فهؤلاء هم أولاد الله أو(عيال الله) يحبهم كأب ينتظر توبة ابنه وعودته، لكن من المستحيل أن يتبرأ منه مهما كانت درجة عصيانه بإنكار أبوته.

وانتماء الإنسان إلى الله لا يتحقق إلا بالانتماء إلى الإنسانية ككل والانتماء إلى الإنسانية تأتى من خلال الانتماء إلى حضارة ومكان محددين دون اغتراب، وهونفس الأمرالذي ينطبق على المسلم المنتمى إلى الله والإنسانية ككل وهذا الفكر نجده بوفرة وعمق في الفقه الاسلامي. هنا يحدث الذوبان كمسيحيين ومسلمين معًا فى حضارة واحدة وهوية واحدة.

ثانيًا : تجدد الفكر الدينى المستمر دون تجمد عند نقطة تاريخية معينة

وهذا لا يحدث إلا بأن نفلسف التوتر الخلاق بين المجتمع والمؤسسة الدينية، بين العلمانى ورجل الدين بين الفكر والعمل، نحتاج إلى ترجمة اللاهوت والفقه إلى حياة يومية.

إن داعش والفكر المتطرف لا يهددان المسيحية فقط بل الإسلام أيضًا، فعندما يتحول الثبات فى الفكر الدينى إلى جمود مع تغيرات العصر فهذه خيانة للذات والتاريخ، إن كان مسيحيو ومسلمو مصر يريدون ألا يسقطوا من التاريخ عليهم أن يلتزموا به ويتجاوزوه، فليس عليهم أن يغرقوا فى

التاريخ(السلفية الدينية) ولا أن يترفعوا عليه (الروحانية الشكلية المزيفة خلال طقوس وفرائض بلا معنى أوروح) والاثنان ليسا من مقاصد الأديان فى جوهرها.

هناك ثلاث طرق أمامنا كمسيحيين ومسلمين مصريين:

١ ــ الاستمرار فى التجمد ورفض إصلاح الفكر الدينى

الذى أنقذ المسيحية الغربية من تجمد وانحراف لألف عام تم فيها القيام بالحروب الصليبية وبيع صكوك الغفران(بيع الجنة) والفساد الدينى كانت ثورة الإصلاح الدينى على يد مارتن لوثر عام ١٥١٦م، والذى كتب ٩٥ احتجاجًا على ممارسات الكنيسة ووضعها على باب الكاتدرائية وقام بحمايته أحد أمراء المقاطعات فى مقاطعته وانضم الشعب الألمانى له. ولا شك أن شرقنا الأوسط يعيش قرونه الوسطى بامتياز هذه الأيام، والاستمرار هكذا سوف يصل بنا إلى التجمد فتموت الأطراف وينتهى الأمر بتوقف القلب.

٢ ــ الاستمرار فى الاغتراب

فنعيش جميعًا فى عالم وهمى من صنعنا، فليس فى الإمكان أبدع مما كان، ولا نتفاعل مع مقومات العصر، فنبدأ فى الاندثار وكم من حضارات اندثرت.

٣ ــ قبول تحدى المراجعة والرؤى المستقبلية

وهوالحل الأمثل والطريق الوحيد للخروج من المأزق، فهل لدينا جراءة الفعل؟

ثانيًا:المسيحيون الدور والمستقبل

أوما الذي يمكن أن يقدمه المسيحيون المصريون لوطنهم؟

في واحد من برامج التوك شوالمتميزة جدًا، والذى أحرص على متابعته، قال حلمي النمنم إنه بعد نجاح ثورة ١٩ خرجت أعـداد من فئويين في تظاهرة ضخمة مطالبين بحقوقهم، فخرج لهم سعد زغلول رئيس الوزراء-حينئذ وقائد الثورة وقرأ بعناية شديدة جميع مطالبهم، ثم رفع رأسه قائلاً: إن هذه طلبات وظيفية وليست طلبات نهضوية أوثورية، وتركهم ومضى، أى أن سعد زغلول بعد الثورة كان ينتظر من كل فئة من فئات الشعب لا أن يطالبوا بحقوقهم المنقوصة - فعليًا - لسنين مضت لكن أن يقدموا لوطنهم ما يستطيعون من أفكار ورؤى لأجل نهضة البلاد، وأنا هنا لا أنتقد - إطلاقًا- الطلبات الفئوية لأى فئة ولا الطائفية لأى جماعة دينية، ولا أنتقد الخروج السلمي للمسيحيين معبرين عن الظلم الواقع عليهم، وقد عبرت من قبل أن ما حدث في ماسبيروويوم الأحد الدامي عام ٢٠١١م هومهزلة بكل المقاييس، آخر من يتحمل مسئوليتها هم المسيحيون الذين خرجوا مسالمين، لكنى أقول إن المسيحيين لديهم الكثير الذى يمكن تقديمه لوطنهم الحبيب مصر، وتكون أولويتهم المطلقة - بعد ثورة ٢٥ يناير وثورة ٣٠ يونيووصول السيسي للحكم من خلال صندوق الانتخابات- أن يصبح سقف الطموحات للمصريين مرتفعًا أكثر من ذي قبل، بل يمكن القول إن لا يعد هناك سقف للطموحات، رغم النكسات التي تمر بها الثورة بالأعمال الإرهابية والدعاية الإخوانية ضد مصر في الخارج والداخل وتعاطف الغرب خاصة أمريكا معهم والهبوط الاقتصادى فإننا نتطلع ومعنا العالم إلى أن نحقق لمصر، دولة ديمقراطية ليبرالية حديثة، وعلى المسيحيين أن يلعبوا دورًا في منتهى الأهمية للوصول إلى مجتمع مثل هذا لا بصفتهم مسيحيين لكن بصفتهم مصريين، والخطوة

الأولى للمساهمة الحقيقية لمسيحيي مصر في تحقيق ذلك الطموح هوألا ينظر المسيحيون إلى أنفسهم كأقلية صغيرة تتجاذبها عوامل متباينة كلها في إجمالها تتسم بالسلبية والإحساس بالنقص وإن نظرة الأقلية لذاتها بهذه الصورة يجعلها تركز على بعض النقاط التي تزيدها إحباطًا فوق إحباط، وتشجعها على الانسحاب من المجتمع وإذ تركز على الحقوق المحرومة منها، وتحصى المواقع التي لا يوجد فيها مسيحيون، وكم مسيحى حرم من حقه فهذا يعمق الإحساس لديهم أنه لا فائدة ترجى من هذا الوطن للأجيال القادمة. وإذا نظر المسيحيون إلى ذواتهم كأقلية وقيموا دورهم في المجتمع على أنه غير مجدٍ أومؤثرفمهما قدموا أوأسهموا، يمكن للمجتمع الكبير أن يستغنى عن خدماتهم، بل إن الحديث عن حقوقهم المهضومة، ودورهم غير الفعال، والذي يتردد كثيرًا على الفضائيات المسيحية والإعلام المسيحي يزيد الإحساس لديهم بالاغتراب، ثم أن الإحساس بالأقلية يجعلهم يعانون من عقدة الاضطهاد، إذ يعتبرون أن المجتمع يتخذهم كبش فداء(Scape Goat) في أي أزمة وقد تجسدت هذه الفكرة وبقوة بعد أحداث ماسبيروفقد تردد القول بين المسيحيين، لماذا نحن بالذات الذين استخدم الجيش القوة والعنف معنا ؟ ولماذا لم يستخدم الحزم مع السلفيين في مواقع كثيرة سابقة أوحتى مع مظاهرات واعتصامات فئوية ؟

إن المطلوب هنا هوالتخلص من عقدة الأقلية، واستبدالها بأن المسيحيين جزء لا يتجزأ من المجتمع، ولقد أوصي السيد المسيح أتباعه بالقول "أنتم ملح الأرض"، "أنتم نور العالم"وبالطبع الملح بالنسبة إلى الطعام نسبة لا تذكر، بل من صفات الملح ودوره وواجبه الذوبان ليعطى طعمًا للطعام، فوجود المسيحيين في مجتمع إسلامي يقدم موزاييك رائع إذا استخدم

بالمفهوم الإيجابي بل إن الأكثرية تتمنى ذلك، لأن اللون الواحد لا يصنع لوحة تشكيلية ولا نوعية واحدة من الزهور تصنع ربيعًا، إن التكتل وعدم الانتشار هوأكبر عائق أمام الحضور المسيحى في وسط مجتمع مغاير.

ولا شك أن المسيحيين يملكون الكثير الذى يمكن أن يسهموا به للوصول إلى مجتمع ديمقراطى حر عادل، فهناك ما لا يقل عن خمس عشرة قناة فضائية مسيحية وقناتين ثقافيتين كذلك هناك أكثر من ثلاثين مجلة وجريدة ورقية ومواقع إلكترونية بلا عدد ودُور نشر يصعب حصرها كذلك توجد أعداد ضخمة من المدارس الخاصة وعدد لا بأس به منها تخدم الطبقات الفقيرة وعلى المستوى الاجتماعى هناك الهيئات والمؤسسات والجمعيات التنموية في المجال الزراعي وتنمية القرية والاهتمام بالمرأة والأميين.. إلخ هذا فضلا عن ثلاثة ملايين مهاجر لهم روابطهم في أمريكا وأستراليا وكندا وأوروبا،ويعتبرون جسرًا بين مصر والعالم الخارجي، ولقد كان لهم موقف رائع ومتميز من المسيحيين الصهاينة.

ولا شك أن هذا الكم والكيف إذا استخدم بطريقة صحيحة يمكن أن يدعم مصر وبقوة إذا قام المصريون المسيحيون بما يلى :

أولًا : تعضيد مجهودات الدولة لتطوير نوعية التعليم والخدمات الصحية، وتنمية المجتمع والتأمين للمحتاجين.

ثانيًا : المشاركة في الصراع والنضال الذي تعانيه الدولة كدولة نامية في العلوم والتكنولوجيا وفي النظام غير العادل، والأزمة الاقتصادية.

ثالثًا : الالتزام والانتماء إلى رؤية جديدة للتنمية والتحديث بالحضور الفعال لأجل تحرير الإنسان كاملا وإعطائه حقوقه وكرامته.

رابعًا : تعضيد القوانين التي تنادى بالحق والعدل، وأن تأخذ الكنيسة دورها في محاربة الشر المستفحل والفساد العام فمبرر وجود الكنيسة يتوقف على أمرين كما هومنصوص في اللاهوت المسيحي الأول الدور الكهنوتى والذي فيه تقوم بدورها في الصلاة والتشفع لأجل العالم، والأمر الآخر هوالدور النبوى والذى فيه تمارس دورها كضمير للمجتمع فتشير بكل قوة وعلانية على كل فساد سياسي أواقتصادى أواجتماعي سواء أكان فرديًا أم جماعيًا.

خامسًا : الالتزام والعمل على دراسة وتقوية وتنمية القيم الأخلاقية الحضارية الإيجابية العامة، والتي تسود المجتمع حتى لولم تتسم بالسمة المسيحية، لتكون هذه الفضائل العامة أساس التنمية في المجتمع ككل.

سادسًا : التأكيد على حقوق المرأة والطفل والشاب؛ لكي يكون لهم حضور على جميع المستويات التعليمية، وفي كل المنظمات الحكومية والأهلية، وبالأولى الكنسية؛ لكى يأخذوا مسئولياتهم ويسهموا بطريقة فعَّالة وحرية كاملة.

سابعًا : تعضيد كل جهد لحماية البيئة العامة المحيطة.

ثامنًا : العمل بقوة وجهد غير عاديين لتحقيق الوحدة والمشاركة الفعالة لجميع البشر في القطر كله مهما اختلفت الديانات أوالأجناس أوالتوجهات الحزبية.

تاسعًا : العمل على أن تكون مصر دولة محايدة دينيًا وليست علمانية وذلك لأن معنى العلمانية - في معناه المتشدد- رفض الدين، أما الدولة المحايدة فهي التي تقبل جميع الأديان في ظلها وتتعامل بأخلاقيات عامة

تشمل الجميع ولا تنحاز لدين معين، لأن الدولة شخصية معنوية لا تقوم بالشعائر والفرائض... إلخ.

عاشرًا : تطوير وتعضيد كل الأنشطة الروحية والتعليمية مسيحية كانت أم غير مسيحية يقول الأب متى المسكين : "الطائفية كتكتل بشرى امتدادها الوحيد بعد الأسرة ليس مكانه الكنيسة بل الوطن، والوطن وحده يمتص الطائفية، أما الكنيسة فلتبق إلى الأبد مكان انطلاق إلى العالم، إننا في الكنيسة نتعاهد على أن نموت معًا ومع المسيح عن كل إنسان في العالم مهما كان ذلك الإنسان، أما كنيستى فقد أخفت المسيح (نور العالم) عن العالم بجعله مسيح أقلية، مسيحًا منسحبًا خائفًا منكمشًا يتقى الناس، ويتحاشى المظالم، ويهرب من دفع الثمن".

وهكذا إذا استطاع المسيحيون أن يعيشوا قضايا مجتمعهم بكل ملئه ويتفاعلون مع مشكلاته، يومها لن يخشوا من تطرف ديني أواضطهاد مدنى، فلقد أصبحوا جزءًا لا يتجزأ من المجتمع يرتفعون بارتفاعه ويهبطون بهبوطه، ولن يكون ألمهم سوى ألم الرائد الذى يريد أن يحقق حلمه بتغيير مجتمعه إلى الأفضل روحيًا واجتماعيًا وسياسيًا، فهل يفعلون؟ أرجو ذلك.

"الحواشي"

١- توماس ديفيد. المسيحية العربية.ترجمة:.وجيه يوسف،سباركل لحلول الطباعة.القاهرة ٢٠١٤م.

٢ - نفس المصدر السابق.

٣ - نفس المصدر السابق.

٤ - نفس المصدر السابق.

٥ - قاسم عبده، وآخرون، مسيحيوالوطن العربى.الفريق العربى للحوار الإسلامي المسيحي،بيروت ٢٠١٣ م.

٦ - الفقى مصطفى د، الأقباط في السياسة المصرية القاهرة، دار الشروق ١٩٨٨م.

7 – O.H.Khs-Burmester- the Egyptian Coptic church Cairo 1967 p.I

٨ - لمعى إكرام د، الكنيسة من القرن الثانى حتى السادس، محاضرات في مقارنة الأديان.

٩- قنواتى جورج شحاتة، المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة القاهرة ١٩٩٢م.

١٠ - نفس المصدر السابق.

١١ - مدينة صغيرة بمركز كفر الزيات واندثرت حاليًا.

١٢ - بباوى جورج د، محاضرات في تاريخ الكنيسة، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت لبنان ١٩٨٩م.

١٣ - قاسم عبده قاسم وآخرون، مسيحيوالوطن العربى،الفريق العربى للحوار الإسلامي المسيحي، بيروت٢٠١٣م.

١٤- توماس ديفيد، المسيحية العربية.ترجمة: وجيه يوسف،سباركل لحلول الطباعة.القاهرة ٢٠١٤م.

١٥- قاسم عبده قاسم وآخرون، مسيحيوالوطن العرب الفريق العربى للحوار الإسلامي المسيحى مايو٢٠١٣م.

١٦- توماس ديفيد، المسيحية العربية.ترجمة: وجيه يوسف،سباركل لحلول الطباعة، القاهرة ٢٠١٤م.

١٧- نفس المصدر السابق.

١٨ - نفس المصدر السابق.

١٩- نفس المصدر السابق.

٢٠- قاسم عبده قاسم وآخرون، مسيحيوالوطن العربى،الفريق العربى للحوار الإسلامي المسيحي.بيروت٢٠١٣م.

٢١-نفس المصدر السابق.

٢٢-نفس المصدر السابق.

٢٣-توماس ديفيد، المسيحية العربية. ترجمة: وجيه يوسف، سباركل لحلول الطباعة، القاهرة ٢٠١٤م.

٢٤ - نفس المصدر السابق.

٢٥ - نفس المصدر السابق.

٢٦ - نفس المصدر السابق.

٢٧-غالي شكري د، حصان طروادة المسيحي في مصر، مجلة الوطن العربي/ مقالات ١٩٩١م.

٢٨-توماس ديفيد.المسيحية العربية.ترجمة وجيه يوسف،سباركل لحلول الطباعة.القاهرة ٢٠١٤م.

٢٩- توماس ديفيد، المسيحية العربية،.ترجمة: وجيه يوسف،سباركل لحلول الطباعة، القاهرة ٢٠١٤م.

٣٠- قاسم عبده قاسم، وآخرون، مسيحيوالوطن العربى،الفريق العربى للحوار الإسلامي المسيحي، بيروت٢٠١٣م.

٣١ -توماس ديفيد، المسيحية العربية، ترجمة: وجيه يوسف، سباركل لحلول الطباعة، القاهرة ٢٠١٤م.

٣٢ - نفس المصدر السابق.

٣٣- نفس المصدر السابق .

٣٤- قنواتى شحاته جورج الأب الدكتور، المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة، القاهرة ١٩٩٢م.

٣٥ - قاسم عبده قاسم، مسيحيوالوطن العربى، الفريق العربى للحوار الإسلامي المسيحى بيروت ٢٠١٣م.

٣٦ - نفس المصدر السابق .

٣٧- نفس المصدر السابق.

٣٨- نفس المصدر السابق.

٣٩ - توماس ديفيد، المسيحيون العرب، ترجمة: وجيه يوسف، سباركل لحلول الطباعة القاهرة ٢٠١٤م.

٤٠- الفقي مصطفي د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨م.

٤١ -عفيفي محمد د، الأقباط في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

٤٢- توماس ديفيد، المسيحية العربية، ترجمة: وجيه يوسف،سباركل لحلول الطباعة، القاهرة ٢٠١٤م.

٤٣ -نفس المصدر السابق.

٤٤ - عفيفي محمد د، الأقباط في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٠م.

٤٥ - نفس المصدر السابق.

٤٦-نفس المصدر السابق.

٤٧ - نفس المصدر السابق.

٤٨ - تقرير الحالة الدينية في مصر، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٩٥م.

٤٩ - عفيفى محمد د، الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

٥٠- نفس المصدر السابق.

٥١-الفقي مصطفى د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

٥٢- سوريال رياض، المجتمع القبطى في مصر في القرن ١٩، مكتبةالمحبة، القاهرة، ١٩٨٤م.

٥٣-الفقي مصطفى د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق. القاهرة ١٩٨٨م.

٥٤-سوريال، رياض، المجتمع القبطى في مصر في القرن١٩، مكتبة المحبة،القاهرة ١٩٨٤م.

٥٥- مجلى نسيم،.لويس عوض ومعاركه الأدبية،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

٥٦- نفس المصدر السابق.

٥٧-الفقي مصطفي د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق القاهرة ١٩٨٨م.

٥٨- سوريال رياض، المجتمع القبطي في مصر في القرن ١٩، مكتبة المحبة القاهرة ١٩٨٤م.

٥٩- نفس المصدر السابق.

٦٠- الفقى مصطفى د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق ١٩٨٨م.

٦١- حبيب رفيق وعفيفي محمد، تاريخ الكنيسة المصرية، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٤م.

٦٢- ويصا حنا فهمي.أسيوط حدوتة عائلة مصرية، مترجم،
England.The book Gild.1996

٦٣- سوريال رياض، المجتمع القبطي في مصر في القرن ١٩، مكتبة المحبة،القاهرة ١٩٨٤م.

٦٤- نفس المصدر السابق.

٦٥- نفس المصدر السابق.

٦٦- مرقس نبيل، جريس حنا، نماذج فكرية حوارية لمسيحيي الوطن العربي،الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي، بيروت ٢٠١٣م.

٦٧-نفس المصدر السابق.

٦٨ - الفقى مصطفى د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق ١٩٨٨م .

٦٩ - نفس المصدر السابق.

٧٠ - نفس المصدر السابق .

٧١- زايد محمد، من عرابي إلى عبد الناصر الحركة الوطنية الحديثة بيروت ١٩٧٣م.

٧٢- نفس المصدر السابق.

٧٣ - الفقى مصطفى د، الأقباط في السياسة المصرية دار الشروق القاهرة ١٩٨٨م.

٧٤ - نفس المصدر السابق.

٧٥- مجلي نسيم، لويس عوض ومعاركه الأدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

٧٦- نفس المصدر السابق.

٧٧- نفس المصدر السابق.

٧٨- نفس المصدر السابق.

٧٩ - عوض لويس د، العنقاء أوتاريخ حسن مفتاح، مكتبة الأسرة. القاهرة ٢٠١٢م.

٨٠ -مجلى نسيم، لويس عوض ومعاركه الأدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

٨١ - نفس المصدر السابق.

٨٢- نفس المصدر السابق.

٨٣-ويصا حنا فهمي - أسيوط حدوتة عائلة مصرية ١٩٩٦م .

Wissa Fahmy Assuit – the saga of an Egyptian familyThe Hook Guild Sussex, England 1994

٨٤-نفس المصدر السابق.

٨٥- أمين جلال، شخصيات لها تاريخ، دار الشروق،القاهرة ٢٠٠٧م .

٨٦ - الدسوقي عاصم د، المسلمون والأقباط في مصر،في أصول العلاقات وتداعياتها،محاضرة عام ٢٠١١م .

٨٧-نفس المصدر السابق.

٨٨-نفس المصدر السابق.

٨٩-نفس المصدر السابق.

٩٠- طعيمة محمد، جمهوركية آل مبارك، بدون دار نشر، ديسمبر ٢٠٠٥م.

٩١-نفس المصدر السابق.

٩٢- لمعى إكرام د وآخرون، الربيع العربي ومسيحيوالشرق الأوسط (المحرر القس د. متري الراهب)، ديار للنشر بيت لحم. فلسطين ٢٠١٢م.

٩٣- نفس المصر السابق.

٩٤- أمين جلال، ماذا حدث للثورة المصرية، دار الشروق،القاهرة ٢٠١٢م.

٩٥- عبد الفتاح نبيل، النخبة والثورة، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠١٣م.

٩٦- نفس المصدر السابق.

٩٧- لمعى إكرام د، عام سقوط الهيبة، جريدة الشروق،القاهرة، ٢٠١٢م.

٩٨- نفس المصدر السابق.

قائمة المراجع

١ – توماس ديفيد، المسيحية العربية. ترجمة: وجيه يوسف. سباركل لحلول الطباعة القاهرة ٢٠١٤م.

٢ – قاسم عبده، وآخرون، مسيحيوالوطن العربي، الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي بيروت ٢٠١٣م.

٣ – الفقي مصطفي د، الأقباط في السياسة المصرية، دار الشروق. القاهرة ١٩٨٨م.

٤–لمعي إكرام د.الكنيسة من القرن الثاني إلى القرن السادس، محاضرات في مقارنة الأديان.

٥–قنواتي جورج شحاته الأب د، المسيحية والحضارة العربية، القاهرة١٩٩٢م.

٦–بباوي جورج د، محاضرات في تاريخ الكنيسة، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٨٩م.

٧–شكري غالي، حصان طروادة المسيحي في مصر، مجلة الوطن العربي، مقالات١٩٩١م.

٨–عفيفي محمد د، الاقباط في العصر العثماني،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة١٩٩٢م.

٩–عبد الفتاح نبيل د، وآخرون.تقرير الحالة الدينية في مصر، مركز السياسات السياسية والاستراتيجية بالأرقام، القاهرة١٩٩٥م.

١٠–سوريال رياض، المجتمع القبطي في مصرفي القرن ١٩، مكتبة المحبة، القاهرة١٩٩٥م.

١١-مجلي نسيم، لويس عوض ومعاركه الأدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة١٩٩٥م.
١٢-حبيب رفيق د، وعفيفي محمد د، تاريخ الكنيسة المصرية، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة١٩٩٤م.
١٣-ويصا فهمي حنا، أسيوط حدوتة عائلة مصرية،مترجم The Book Gild England1996
١٤-مرقس نبيل وجريس حنا، نماذج فكرية حوارية لمسيحي الوطن العربي، الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي،بيروت٢٠١٣.
١٥-زايد محمد، من عرابي إلى عبد الناصر، الحركة الوطنية الحديثة، بيروت١٩٧٣م.
١٦-عوض لويس د، العنقاء أوتاريخ حسن مفتاح، مكتبة الأسرة، القاهرة٢٠١٢م.
١٧-أمين جلال، شخصيات لها تاريخ، دار الشروق٢٠٠٧م.
١٨الدسوقي عاصم د، المسلمون والأقباط في مصرفي أصول العلاقات وتداعياتها،محاضرات٢٠١١م.
١٩-لمعي إكرام د، وآخرون، الربيع العربي ومسيحيوالشرق الأوسط،ديار للنشر،بيت لحم فلسطين٢٠١٢م.
٢٠-أمين جلال، ماذا حدث للثورة المصرية، دار الشروق،القاهرة٢٠١٢م.
٢١-عبد الفتاح نبيل.النخبة والثورة، دار العين للنشر، القاهرة٢٠١٣م.
٢٤- لمعي إكرام د، عام سقوط الهيبة، جريدة الشروق القاهرة يناير ٢٠١٢م.
٢٥- صباغ مازن يوسف، البابا شنودة حوارات في الإيمان والثقافة الوطنية، دار الشروق القاهرة ٢٠٠١م.

٢٦-زيدان يوسف، فقه الثورة، دار الشروق القاهرة ٢٠١٣م.
٢٧-الأسواني علاء، هل أخطأت الثورة المصرية؟ دار الشروق،٢٠١٢م.
٢٨-إسبوزيتوجون ل، التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة؟ ترجمة د، قاسم عبده قاسم،دار الشروق٢٠٠١م.
٢٩-الأنطواني أنطونيوس المقص، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، دار الطباعة القومية القاهرة ١٩٩٥م.
٣٠-قلته يوحنا الأنبا الدكتور، الأقباط إلى أين؟دار الثقافة، القاهرة ٢٠١٣م.
٣١-زكريا نصرالله. المفهوم اللاهوتي للثورة، مطبوعات نظرة للمستقبل، القاهرة٢٠١١م.
٣٢-طعيمه محمد.جمهوركية آل مبارك،الجرافيك والطباعة، القاهرة ٢٠٠٥م.

33-wissa Hanna F.Assuit The Saga Of An Egyptian Family, the Book Guild, England1994.

34-Georges Fawaza.America And Political Islam. CAMBRIDGE university press1999

35- Friedman ThomasL.From Beirut To Jerusalem, Anchor Books New York1995

36-Vander Werff Lyle L.Christian MissionThe Record, William Cary Library.South Pasadena, Calf.U.S.A

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل – رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠٠ ـ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ـ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ـ التوفيقية ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ـ الحسين ـ
القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ـ السيدة زينب
أمام دار الهلال ـ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ـ حلوان خلف مبنى
الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ـ ميدان الجيزة ـ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ـ بالحرم الجامعى
بالجامعة ـ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ـ محطة المساحة ـ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة ـ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ـ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ـ نهاية ش ٢٦ يوليوو
من أبوالفدا ـ القاهرة

مكتبة الإسكندرية
٩٤ ش سعد زغلول ـ الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك ـ المرحلة الخامسة ـ عمارة ٦
مدخل (أ) – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى ـ بكلية الزراعة ـ
الجامعة الجديدة ـ الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ ـ بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحي ـ أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ش الجمهورية ـ أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب ـ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ
المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة ـ عمارة سينما أمير ـ
طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا ـ المحلة

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى ـ دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى ـ توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصـــورة
٥ ش السكة الجديدة ـ المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكـتـبـة مـنـوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية
مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام
ميدان التحرير ـ الزقازيق
ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠
ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢